نهاية التاريخ تحت مجهر الفكر العربي

حوار فوكوياما بمرآة المثقفين العرب

د. عبدالعزيز قاسم

العبيكان
Obeikan

obeikandl.com

© مكتبة العبيكان، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

قاسم، عبدالعزيز محمد

نهاية التاريخ تحت مجهر الفكر العربي./ عبدالعزيز محمد قاسم .- الرياض، ١٤٢٨هـ.

٣٤٦ ص؛ ١٤× ٢١ سم.

ردمك: ٦ - ٢٨٦ - ٥٤ - ٩٩٦٠

١ ـ التاريخ ٢ - التاريخ الحديث - القرن العشرون

٣ - العالم - الأحوال السياسية أ ـ العنوان

ديوي ٩٠٧,٢ ١٤٢٨ / ٢٧٧٦

رقم الإيداع: ٢٧٧٦ / ١٤٢٨

ردمك: ٦ - ٢٨٦ - ٥٤ - ٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر: العبيكان Obeikan للنشر

الرياض - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة

هاتف ٢٩٣٧٥٧٤ / ٢٩٣٧٥٨١ فاكس ٢٩٣٧٥٨٨

ص. ب ٦٧٦٢٢ الرمز ١١٥١٧

التوزيع: مكتبة العبيكان Obeikan

الرياض العليا تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

هاتف ٤١٦٠٠١٨ / ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس ٤٦٥٠١٢٩

ص. ب ٦٢٨٠٧ الرمز ١١٥٩٥

لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

obeikandl.com

obeikandl.com

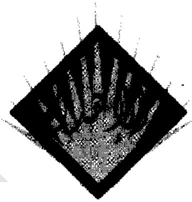

إلى وطني المضيء بنور الرسالة

المملكة العربية السعودية

وقد كان هذا الكتاب ترجمة للحظة

غيرة ودفاع عنه

obeikandi.com

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

بين ختم الرسالة... ونهاية التاريخ

بقلم: محمد صلاح الدين (*)

توطئة:

هذه مكاشفات جمة الفائدة أجراها الأخ الأستاذ عبد العزيز قاسم مدير تحرير "جريدة المدينة" الغراء مع المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما، ثم ضم إليها مداخلات وتعليقات كتبها نخبة من رجال الفكر وأهل الرأي تمثل معظم ألوان الطيف في الفكر السعودي، وفي مقدمتهم شيخنا معالي الأستاذ أحمد زكي يماني، وقد نشر الأستاذ عبد العزيز هذه المداخلات في ملحق" الرسالة " الأسبوعي، حول فوكوياما ومقولاته، مما يشكل قراءة عميقة تتناول من زوايا مختلفة بعض أمهات قضايا الفكر والسياسة التي تمور بها هذه الأيام، الساحتان العربية والعالمية على السواء.

ليس ثمة خلاف - فيما أحسب - على أن فكرة "نهاية التاريخ" هي أقرب إلى الشعارات الانتخابية منها إلى التفكير العلمي أو البحث الأكاديمي أو حتى الفكر السياسي الجاد، ويبدو واضحا أن

(*) محمد صلاح الدين الدندراوي - صحفي وناشر - حاصل على بكالوريوس دراسات الشرق الأدنى من جامعة ميشيجان - آن آربر - في الولايات المتحدة الأمريكية، وماجستير في العلوم السياسية من نفس الجامعة.

obeikandi.com

ما جعل لهذه الفكرة حظاً من الرواج، إنما هو الهوس المحموم الذي اجتاح الساحة الأمريكية السياسية والفكرية والإعلامية، بعد تفجيرات الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١، بحيث أصبح الناس يتلقفون الكثير من الأفكار والشعارات دون كثير تمحيص أو درس، ثم - وربما كان هذا هو الأهم - ولع الإعلام الأمريكي المعروف بالإثارة، وسطحية تناوله للكثير من الأمور، وغوغائية أساليب ترويجه، وهي خصائص توسعت وتضاعفت بعد تفجيرات نيويورك، وأخيرا الانتهازية الفكرية والانتماءات السياسية للسيد فوكوياما، وروابطه الوثيقة والقديمة بغلاة المحافظين وعتاة الصهاينة الذين يديرون السياسة الأمريكية اليوم، من خلال مواقعهم في أهم مراكز اتخاذ القرار في البيت الأبيض والبنتاجون، الأمر الذي شرحه وأرخ له في هذا المجلد الأستاذ الدكتور محمد الأحمري في دراسته (صفحة ١٥٧ / ١٨٨) التي كنت أرجو وضعها في مقدمة المكاشفات؛ لأن معرفة تاريخ الكاتب الفكري وعلاقاته وانتماءاته السياسية ومصادر التأثير عليه هي خير سبيل لدراسة أفكاره وتقييم آرائه، رغم أن السيد فوكوياما قد عاد وانقلب على جماعته من المحافظين الجدد دعاة الحروب الاستباقية والتدخل العسكري والولاء المطلق لإسرائيل، ودخل في جدالات حادة مع غلاة هذه العصبة من دعاة الحرب والسيطرة، انتهت بإصداره كتابا عن ذلك بعنوان (أمريكا على مفترق الطرق) وعدة مقالات نشرها في أمريكا وبريطانيا، مما سأتناوله بإيجاز في موضعه من هذه المقدمة.

نحن إذن أمام فكرة مطروحة (نهاية التاريخ) تستدعي النقاش وتتطلب الرد، أيا كانت العوامل التي فرضتها على الساحة، لأنها تزري في مضمونها - وهذا هو الأهم - بتراثنا وتتجاهل تاريخنا الحضاري، ولأن صاحبها السيد فوكوياما قد تناول خلال الكثير من حواراته مع الأستاذ عبد العزيز قاسم وغيره، وفي محاضراته وكتاباته اللاحقة، ماضي أمتنا وحاضرها ومستقبلها بالتجريح، وهو أمر نعتقد أننا كمسلمين أكثر إلماما به وأعمق معرفة بدخائله وأولى بالحديث عنه.

لقد تناول الأخوة الكرام المشاركون في هذا المجلد من المكاشفات، الرد على أفكار السيد فوكوياما من زوايا عدة، تمثل في مجموعها تقييما شاملا لمجمل آرائه سواء عن النهاية المزعومة للتاريخ أو الإسلام أو السعودية وغير ذلك، وتشكل حواراً عميقاً بين الفكر السعودي والثقافة الأمريكية، وإني لأرجو أن أضيف في هذه السطور شيئا ما إلى الإسهامات الجليلة التي تضمنتها دفتا هذا الكتاب لأساتذتي ومشائخي وأخوتي الكرام.

(أولا) الديموقراطية الليبرالية:

مبدأ:

يتضمن الزعم بأن الديموقراطية الليبرالية تمثل نهاية التاريخ، أي منتهى عطاء الفكر الإنساني، زعما آخر أشد إيغالا في الخطأ وأكثر إسرافا في الادعاء، هو أن المبادئ الأساسية العليا التي قامت عليها الديموقراطية الليبرالية كالحرية والمساواة

والعدل والمسؤولية الفردية وسيادة القانون، هي جزء من تراث الغرب ونتاج حضارته، ونحن نقول إن كل هذه المبادئ السامية إنما تنزل بها الوحي الإلهي من لدن آدم عليه السلام وحتى خاتم النبيين محمد صلوات الله وسلامه عليه، وأرستها في الحياة الإنسانية الرسالات السماوية التي تنزلت على البشر منذ فجر التاريخ، وفاء بوعد الله عز وجل لأبي البشر آدم عليه السلام وزوجه حواء في قوله سبحانه: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة: ٣٧- ٣٨) وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِن بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَىٰ وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا ﴿١٦٤﴾ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾(سورة النساء ١٦٣: ١٦٥).

ويحدثنا القرآن الكريم أن المولى عز وجل لم يكتف سبحانه بأن أودع في العقل البشري القدرة على اكتشاف سنن الكائنات والاستفادة بالتالي من كل ما سخره لله للناس في الأرض والسماء فحسب، بل علم الإنسان عبر كتبه ورسله ما لم يعلم من الهدى والخير، حتى العادات الاجتماعية وأساليب الحياة الحضارية من مثل قوله تعالى عن قتل ابن آدم قابيل لأخيه هابيل: ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ

غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾(سورة المائدة: ٣١).

ولا بد أن نسجل هنا على أي حال،أن علماء السياسة ومؤرخيها الأوائل في أوروبا إذ بدأوا تاريخ الفكر السياسي الغربي من روما وأثينا، قد قفزوا بعدها مباشرة الى أوروبا القرون الوسطى وعصر النهضة، وأسقطوا من تاريخ الفكر السياسي كلية، القرون الثمانية التي حكم فيها الإسلام العالم، والتي تعلموا منها هم أنفسهم مبادئ الحضارة من خلال بغداد والأندلس، حتى حركة الاستشراق التي صاحبت الغارات الاستعمارية الغربية وشكلت طلائعها وعقلها المفكر، لم تعن كثيرا بالفكر السياسي للإسلام، كذلك لم يكن في العهدين الجديد والقديم، ولا في حركة العلمانية الغربية التي فصلت الدين عن الحياة والكنيسة عن المجتمع، والتي ولدت النهضة الأوروبية من رحمها، ما يساعد علماء السياسة الغربيين على تصور فكر سياسي ديني أو معالم نظام سياسي مسيحي كما هو الحال في الإسلام، ولم يبدأ الاهتمام الأوروبي والأمريكي بالفكر السياسي للإسلام إلا في أواخر القرن العشرين، ليشتد ويتسع بعد تفجيرات واشنطن ونيويورك.

هناك فارق إذن بين وسائل التطبيق التي طورها المجتمع الغربي للديموقراطية، وبين مبادئها ومثلها العليا، لأن هذه المبادئ والمثل - كما أسلفت آنفا - قد تنزلت بها الرسالات السماوية

وأقرتها في المجتمع الإنساني كله عبر التاريخ، كلما مضى رسول جاء رسول من بعده يجدد عهد الأرض بوحي السماء وهديها، حتى جاء خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه بخاتم الرسالات، وفيما يلي إشارات موجزة لأهم هذه المبادئ:

(أ) **حرية الاختيار:** لقد اقتضت مشيئة المولى عز وجل وحكمته أن يؤسس الحياة الإنسانية كلها منذ بدء الخليقة على حرية الاختيار، وأن يجعل سبحانه هذه الحرية هي أساس التكليف والثواب والعقاب، وكانت أول قضية أخضعها المولى عز وجل لحرية الاختيار هي قضية الإيمان به سبحانه، حيث قال: ﴿**فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾(سورة الكهف: ٢٩)، وتأكيدا لهذه الحرية ووجوبها، وحماية لتطبيقها حرص القرآن الكريم ومن قبله كتب الأنبياء السابقين على رفض الإكراه والتنديد بكل أشكاله، ليس في الدين فحسب بل في كل مجالات الحياة البشرية ومناشطها، كما جاء في القرآن الكريم ﴿**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ (سورة البقرة: ٢٥٦) وقوله تعالى: ﴿**وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾ (سورة يونس: ٩٩) ثم قوله تعالى: ﴿**نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ**﴾ (سورة ق: ٤٥) وقوله: ﴿**فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ**﴾ (سورة الغاشية: ٢٢)، ولفقهاء الملة وعلمائها بحوث عميقة مستفيضة في حرمة الإكراه وتجريمه، والتنديد بالاستبداد بكل أشكاله.

obeikandi.com

(ب) **العقد الاجتماعي:** برزت فكرة " العقد الاجتماعي" التي اخترعها جان جاك روسو في كتابه الشهير بهذا العنوان، ليفسر بها قيام المجتمعات الإنسانية الحرة على أساس من التراضي الجماعي الحر، حول مجموعة مبادئ للعيش المشترك لفائدة وخير الجميع، وهي فكرة أصبحت من أحجار الزاوية للديموقراطية الليبرالية رغم اعتراف علماء السياسة الغربيين بأنها فكرة خيالية مخترعة لم تتحقق في عالم الواقع، وليس يملك أي مفكر موضوعي إلا الاعتراف بأن هذه الفكرة هي فكرة " منقولة " عن الرسالات السماوية وحياة الأنبياء والرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، الذين شكلت رسالة كل منهم عقدا اجتماعيا حقيقيا تم بتراض حر من خلال استجابة المؤمنين للنبي المرسل والالتزام برسالته، وتشكيل جماعة مؤمنة تعيش باختيار حرّ طبقا لمبادئه، مع فارق جوهري، هو أن التراضي الجماعي الحرّ في العقد الاجتماعي المتخيل من جان جاك روسو لم يكن يحمل في طياته أي مخاطرة أو تضحية، بينما كان العقد الاجتماعي الحقيقي الذي حققته الرسالات السماوية على أرض الواقع في الحياة الإنسانية باستجابة المؤمنين للرسول، قد حمل لأطرافه وهُم الرسل وأتباعهم، أفدح المخاطر وأشد أنواع الاضطهاد، وتطلب منهم أخطر التضحيات، كما نقرأ في تاريخ الرسالات السماوية وسيرة رسل الله، فالعقد الاجتماعي الحقيقي إذن، هو بضاعتنا نحن، أهل الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله.

(جـ) **الشورى:** لقد افترض الله جل شأنه كما جاء في القرآن الكريم أن يقوم المجتمع على الشورى كفريضة ماضية الى يوم القيامة، وذلك قبل أن يسلك ذلك الأوروبيون بعشرة قرون، وقد جعل الإسلام المرأة شريكة للرجل في كل ذلك فكانت للنساء بيعة مستقلة لرسول الله صلى الله عليه وسلم كما للرجال بيعة بنص القرآن الكريم، وفي ثلاث كلمات معجزة أرسى القرآن الكريم قواعد الحكم في الدولة المسلمة ولخص أسس الديموقراطية وذلك في قوله تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**﴾، فأرجع البت في أمور الأمة كلها صغيرها وكبيرها للناس أنفسهم، وليس لسلطة كهنوتية تحكم باسم الله (راجع تفسير الأستاذ محمد أسد يرحمه الله للآية الكريمة في كتابه منهاج الحكم في الإسلام، فصل "مبدأ الشورى")[١]، ولئن قصر المسلمون تقصيرا فادحا في تطوير وسائل التطبيق لكل ذلك، وأهملوا إبداع أدوات الممارسة والتنفيذ، وتعميق قنوات وضوابط الالتزام، فسبقهم الأوروبيون في ذلك سبقا عظيما، فإنه ليس أحد أولى منَّا بهذا الميراث الرباني العظيم وأحق بممارسة هذه الفريضة الكبرى فريضة الشورى.

(د) **المساواة والأخوة الإنسانية:** لقد رسخ القرآن الكريم في الحياة الإنسانية وللبشر أجمعين، عدة مبادئ أساسية كبرى، أولها الأخوة الإنسانية كأساس متين للمساواة بين البشر التي لا تقبل

---

(١) محمد أسد، منهاج الإسلام في الحكم، ترجمة منصور محمد ماضي، ط ٦ مارس ١٩٨٣ دار العلم للملايين - بيروت.

تمايزا إلا على أساس العمل الصالح، وذلك في قول الحق تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الحجرات: ١٣)، ولابد أن يلاحظ المرء أن إقامة المساواة على أساس واقعي هو الأخوة الإنسانية ثم على أساس أن التميز الحقيقي هو بالعمل الصالح وحده وليس باللون أو الجنس أو المال، قد أرسى المساواة في المجتمعات الإسلامية على أسس راسخة، فلم تشهد هذه المجتمعات عبر القرون ما شهدته مجتمعات أخرى من تفرقة عنصرية مقيتة، وما يترتب على ذلك من مفاسد ومظالم مروعة، ولا بد أن نلاحظ أيضاً أن آية الأخوة الإنسانية سالفة الذكر، قد جعلت اختلاف أجناس البشر وتنوع أعراقهم، وسيلة للتعارف والاختلاف والتنافس في العمل الصالح، وليس سبيلا للتمزق والاقتتال.

(هـ) الكرامة الإنسانية: لقد أكد القرآن المجيد الكرامة الإنسانية في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (سورة الإسراء: ٧٠)، وبذلك حمى القرآن الإنسان رجلا كان أو امرأة، من كل ما يخالف هذه الكرامة من أذى أو تحقير أو إذلال أو اضطهاد أو تعذيب أو تشويه، مما فصله فقهاؤنا من قديم الأمد، وافترض صيانة هذه الكرامة والحفاظ عليها حتى في الحروب التي وضع لها الإسلام قواعد أخلاقية صارمة لصيانة كرامة الإنسان وحقوقه، ولا نعلم تشريعا بشريا غربيا أو شرقيا قد سبق الإسلام لذلك.

(و) **وحدة الإيمان:** لقد جعل المولى عز وجل الإيمان بنبي الله موسى ونبي الله عيسى عليهما السلام، وبما أنزل معهما من هدى ونور في التوراة والإنجيل، جزءاً لا يتجزأ من إيمان المسلم، يخرج من الإسلام إن تخلى عنه، كما جاء في الأمر الرباني للمسلمين: ﴿**قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ**﴾ (سورة البقرة: ١٣٦).

ولا بد من أن نلاحظ أن القرآن قد وجه نفس التكليف وبنفس الألفاظ لرسول الله صلوات الله وسلامه عليه (الآية ٨٤ سورة آل عمران) بينما لا يؤمن بنبي الإسلام وكتابه لا المسيحيون ولا اليهود الذين لا يؤمن كل منهما بدين الآخر أو نبيه.

ولا يزال المسلمون منذ صدر الإسلام وحتى اليوم، يستخدمون رجالا ونساء، الأسماء اليهودية والنصرانية، مثل موسى وهرون وعيسى وإسحق ويعقوب ويوسف وداود وسليمان، ومريم وسارة، بينما لا يستخدم المسيحيون ولا اليهود، أسماء المسلمين لا للرجال أو النساء.

وإن من أروع صور السماحة مع الأديان الأخرى واعتبار ذلك نصرة لله عز وجل، أن القرآن الكريم في معرض وجوب حماية دور العبادة والدفاع عنها، قد قدم دور العبادة النصرانية واليهودية على مساجد المسلمين، في قوله تعالى: ﴿**وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ (سورة الحج: ٤٠).

(ز) المجتمع المفتوح: يفتخر الأمريكيون دائما بشيئين، أنهم مجتمع مفتوح وأنهم كذلك مجتمع حوار، وكلا هاتين الخصيصتين هما من أبرز خصائص المجتمع الإسلامي الذي أنشأه القرآن الكريم في العهد النبوي والخلافة الراشدة، والذي كان أول مجتمع حوار مفتوح في التاريخ البشري كله، مع فارق جوهري، أنه مجتمع محكوم بمخافة الله ومكارم الأخلاق وحكم القانون، فلا يستغل أحد الشفافية والانفتاح للإساءة والأذى، ولا يمتطي أحد الحوار للكسب الشخصي أو التشهير بالناس والإضرار بالخصوم.

إن الدارس للقرآن المجيد يستطيع أن يتبين في كل صفحة أنه كتاب حوار مع المؤمنين ومع الكافرين، وأنه ضم أشنع مقولات الملاحدة وافتراءات أعداء الله ومناقشتها والرد عليها، كما أرخ لمعظم الرسالات السماوية وكيف أنها قامت على الحوار والموعظة الحسنة من جانب رسل الله.

بل لقد أثبت القرآن الكريم بين دفتيه حوار المولى عز وجل في الملأ الأعلى مع إبليس رأس الضلالة والشر، وكذلك حواره جل وعلا مع ملائكته المقربين عن بدء الخليقة، واستماع المولى جل شأنه لرأيهم، تأكيدا لمبدأ الحوار، وتشريعا لوجود الرأي الآخر، وتأسيسا لثقافة الاختلاف **﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾** (سورة البقرة:٣٠).

على أن الحوار الرباني مع إبليس، والذي أورده القرآن الكريم في أكثر من موقع وبأكثر من أسلوب وانتهى بالاستجابة الإلهية لرجاء إبليس إمهاله إلى يوم الدين، يتطلب منا درساً عميقاً لاكتناه حكمه وفهم مراميه وتعلم الكثير من دروسه، وأن نتدبر كيف قضى سبحانه أن تستمر معركة الخير والشر إلى يوم الدين؟! كما جاء في سورة (ص) الآيات ٧١ - ٨٥ من القرآن الكريم: ﴿**إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٧٢﴾ فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٧٨﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٧٩﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ ﴿٨٠﴾ إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٨١﴾ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾[1].

كذلك حرص القرآن المجيد على أن يسجل بعض خلافات الرأي بين الصحابة رضوان الله عليهم والمصطفى صلوات الله وسلامه عليه، على عظيم إجلالهم لشخصه وخالص محبتهم وتعلقهم به، وطاعتهم لأمره في أموالهم وأنفسهم، ليكون كل ذلك قدوة للأمة إلى يوم الدين، وإن المطلع على مؤلفات علماء الأمة في

---

(١) راجع أيضا سورة الأعراف (الآيات ١١- ١٨)، وسورة الحجر (الآيات ٣٠ - ٤٣)، وسورة الإسراء (الآيات ٦١ - ٦٥)

مختلف مجالات المعرفة خاصة الفقهاء وعلماء الأصول فإنه سيقف مشدوها أمام عظمة ثقافة الاختلاف التي أسسها في المجتمع والعقل المسلم القرآن العظيم، وأقام عليها مجمل المعارف البشرية، وجعل لها آداباً صارمة لا يتخطاها أولو الألباب.

ولا بد أن يلاحظ المرء في هذا المجال أن المولى جل شأنه قد اقتضت حكمته سبحانه، أن يجعل التعدد والتنوع والاختلاف قاعدة أساسية ليس للحياة الإنسانية فحسب بل للكون كله، ولولا اختلاف الألوان والألسن والأعراق، وتعدد الأمزجة والعقول والمأكل والملبس والمشرب، والتنوع العظيم لكل ما في هذه الحياة الدنيا، لأصبحت كئيبة رتيبة مملة.

كذلك اقتضت حكمة المولى عز وجل أن يكون الاختلاف سنة الحياة والأحياء، كما جاء في القرآن المجيد: **﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾** الآية (سورة هود: ١١٨ – ١٩٩).

يقول شيخ الإسلام الإمام محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره المسمى "التحرير والتنوير" شرحا لمعاني الآية الكريمة: إن المولى جل شأنه قد خلق الناس على جبلة قاضية باختلاف الآراء والنزعات، كان مريداً لمقتضى تلك الجبلة وعالما به، ولذلك فإن الاختلاف دائم بينهم لأنه من مقتضى ما جبلت عليه العقول[1].

---

(١) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، الجزء ١١ ص٣٥٠ – ط١ (١٤٢٠هـ /٢٠٠٠م)، مؤسسة التاريخ – بيروت.

يكفي ما جعله الإسلام من أجر للمجتهد المخطئ، تشجيعا لإعمال الفكر واستفراغ الجهد وتعددية الرأي، وترحيبا بالرأي الآخر أو المخالف، يقول الأستاذ محمد أسد يرحمه الله: " إن اختلاف الآراء بين الناس أمر طبيعي، ذلك بأن التفكير البشري تفكير موضعي، ولا يمكن بحال من الأحوال الحيلولة بين هذا التفكير وبين التأثر بالأمزجة والعادات والبيئة الاجتماعية والتجارب السابقة التي تعرض لها الفكر، ذلك بأن هذه العوامل جميعا تتعاون معا فتكون ما نسميه " بالشخصية البشرية" المتميزة بخصائص فردية، وفي الواقع فإن التقدم الصحيح في مضمار الحياة لن يتحقق بدون هذا الاختلاف في الرأي، إذ إنه من خلال الاحتكاك الناجم عن صراع أفكار متنوعة، ومن خلال المعارك العقلية التي تخوضها الآراء المتباينة تتضح الدروب المتعددة التي ستفضي إحداها حتما إلى حل المشكلة الحل المطلوب، ولعل هذا ما عناه الرسول بالحديث الشريف "اختلاف علماء أمتي رحمة" (الجامع الصغير للسيوطي)[١].

كذلك يلاحظ الدارس، أنه كما أقام القرآن المجيد الرسالة/ الدعوة ومجتمعها على الحوار وقول التي هي أحسن للمخالفين، فقد أقامه على الشفافية والانفتاح حتى في أدق شؤون النبي وحياته الشخصية صلوات الله وسلامه عليه، باعتباره حامل

(١) رونالد سترومبرج، تاريخ الفكر الأوروبي الحديث - ترجمة الأستاذ أحمد الشيباني - الطبعة الثالثة، دار القارئ العربي - القاهرة.

الرسالة ومحورها، وأسوة المؤمنين، بدءاً من حادثة الإفك التي اتهمت فيها زورا وبهتانا أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، ومحاولة بعض المسلمين تبرئة قريبهم المسلم السارق (عبد الله بن الأبيرق) وإلصاق التهمة بيهودي بريء لقطع يده، وعتاب المصطفى حين تعرض لتنافس بعض أزواجه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ**﴾ (التحريم: ١) وتحرجه صلوات الله وسلامه عليه من إعلان تزويجه بأم المؤمنين زينب بنت جحش ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ**﴾ (سورة الأحزاب: ٣٧)، وكذلك عفوه صلى الله عليه وسلم عن أسرى بدر إخلافاً لرأي بعض صحابته ﴿**لَوْلَا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ**﴾ (سورة الأنفال: ٦٨)، وضيقه بالصحابي الأعمى ابن أم مكتوم الذي جاءه يسأل عن أمر دينه، إلى غير ذلك من أحداث العهد النبوي التي سجلها القرآن سطورا تتلى إلى يوم الدين، وامتلأت بها أحداث السيرة العطرة للنبي العظيم.

وحتى حينما ذر قرن الفتن الدموية بدءاً من الخوارج وغيرهم من الفئات المارقة الضالة، فقد كانت خصيصتا الحوار والانفتاح هما اللتان احتوتا كل هذه الفتن حتى طواها التاريخ ونسيها الناس، ولم يتعرض أحد للخوارج بسوء، لرأي أو فكر، حتى انحرفوا إلى العنف واستباحوا دماء المسلمين، فحق على المجتمع المسلم عقابهم وكف أذاهم والأخذ على أيديهم.

ذلك بحث يطول تكفي فيه هذه العجالة، لنقول بأننا نحن المجتمع المفتوح بأمر الوحي وآيات الكتاب، ونحن مجتمع الحوار اقتداء بكتب الله ورسله، ونحن أصحاب ثقافة الاختلاف ومجتمع التعددية، وأن كل ذلك هو نهج الهدى الذي ارتضيناه، وتراث الأمة الذي نقتدي به ونحرص عليه، ولا يزايد علينا أحد في السبق إليه.

(حـ) **سيادة القانون**: يتفق الكثير من علماء السياسة على أن أفضل تسمية يمكن إطلاقها على الدولة الديموقراطية أنها دولة القانون، وليس يختلف أحد أنه لا توجد حضارة أو دولة في التاريخ الإنساني أنشأها القانون وحكمها القانون كذلك، باستثناء الحضارة والدولة الإسلامية، وليس يختلف أحد أن صور تطبيق العدالة وسيادة القانون في عهد النبوة والخلافة الراشدة هي صور فريدة يندر تكرارها على مر التاريخ، كذلك فإن الدارس للقرآن الكريم والسيرة النبوية الشريفة يدرك أن العدالة وسيادة القانون تمثل الذروة في مسؤولية الدولة وسمات الحضارة، فقد جعل القرآن الكريم إقامة العدل هو غاية الرسالات والكتب السماوية في قوله تعالى ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ (سورة الحديد: ٢٥)، كما أرجع المصطفى صلوات الله وسلامه عليه هلاك الأمم إلى فشلها في إقامة العدل في قوله: «إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد» أو كما قال، وفي الجملة فإن مكانة العدل في النظام الإسلامي مبحث عظيم ثمين كتب الفقهاء والمفكرون فيه المجلدات، ولا تزال صرخة الفاروق عمر تدوي عبر القرون، شاهدا على عظمة العدالة الإسلامية: "يا عمرو، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟!".

(ط) **حقوق الإنسان:** اتفق فقهاء الأمة وعلماء الأصول على أن المقاصد العليا لشريعة الإسلام، تتركز في حفظ النفس والدين والمال والعرض، وتلك هي جماع حقوق الإنسان، ولقد أكد فقهاء الأمة وأوروبا لما تزل تعيش في الظلمات ضرورة كفالة الدولة أو المجتمع لكل فرد ما اعتبروه الحد الأدنى لضرورات الحياة وهي: المأكل والمشرب والملبس والتعليم والسكن وزاد بعضهم المواصلات، وقد أصدر الكثير من مفكري الأمة خاصة في عصرنا هذا الحاضر دراسات عميقة عن مكانة حقوق الإنسان في شريعة الإسلام، وسبق الشريعة في ضمان هذه الحقوق مما يمكن الرجوع إليه.

(ي) **المسؤولية الفردية:** تعتبر مسؤولية الفرد وتعزيز مكانته وحفظ استقلاله، وتهيئة المجال لانطلاق قدراته وضمان حقوقه، من أسس الليبرالية الغربية، وقد جاءت الرسالات السماوية بذلك منذ بدء التاريخ البشري، وأوضح القرآن والسنة الشريفة هذه المسؤولية في الدنيا والآخرة، يقول الكتاب العزيز: ﴿**وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**﴾ (سورة الإسراء ١٣ : ١٤) ويقول المولى عز وجل: ﴿**وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا**﴾ (سورة مريم ٩٥).

وحتى في نطاق المسؤولية الجماعية التي تسميها الشريعة الغراء فروض الكفاية، فإن المسلم أو المسلمة محاسب عليها أمام الله كفرد وليس كمجموع، وهذه الفروض كما يقول أستاذنا الدكتور محمد سليم العوا، أدعى لمخافة الفرد والتزامه من المسؤوليات الفردية المباشرة.

لقد أقام الإسلام دون شك نظاما فريدا زاوج في إبداع بين حق الفرد ومسؤوليته، وحق الجماعة ومسؤولياتها، بحيث يدعم كل منهما الآخر ولا يصادمه، ويتكامل معه ولا يناقضه، ويعزز فعاليته ولا يبطله، وكل تلك - كما أسلفت - مباحث جليلة فصلها علماؤنا الأجلاء في مئات المجلدات عبر التاريخ.

كذلك حرص القرآن المجيد في أكثر من موقع أن يندد بسلوك القطيع في شؤون الجماعة الإنسانية، وأن يؤكد حق الفرد ومسؤوليته في استقلالية الرأي ودوره في قيادة الجماعة، فأدان أولئك الأتباع الذين أطاعوا قادتهم أو كبراءهم أو سادتهم طاعة عمياء، لا تبصر هدى ولا تستبين حقا ولا تنكر باطلا، وأوضح بأن القادة والأتباع في المسؤولية والعقاب سواء، في مثل قول الحق جل شأنه: **﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ﴾** (سورة البقرة ١٦٦ : ١٦٧)، وكذلك قول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه: «**لاَ تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَّا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطِّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنْ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاؤوا فَلاَ تَظْلِمُوا**».

(ك) **إعلاء لشأن العقل:** لقد كان اختيار المولى عز وجل للإسلام ليكون خاتم الرسالات ولمحمد صلوات الله وسلامه عليه ليكون خاتم النبيين، وأن تكون معجزته الخالدة كتابا يتلى إلى يوم

الدين، إيذانا ربانيا بأن البشرية قد شبت عن الطوق، وإعلاء سماويا لشأن العقل، الذي أوكل إليه المولى عز وجل بختم الرسالة مهمتين جليلتين، أولاهما: تفسير الوحي الإلهي المتمثل في الكتاب والسنة الشريفة، ومعرفة مراد الله من هذه النصوص، وثانيهما: تطبيق هذا الفهم على أرض الواقع وفي كل مجالات الحياة.

ومن هنا عنّف القرآن الكريم مشركي قريش، حين طالبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم بمعجزات خارقة أسوة بالرسل من قبل، فتنزل قول المولى عز وجل: ﴿**وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ**﴾(سورة العنكبوت ٥٠ – ٥١)

وإذا كان في ختم الرسالة إعلاء وتكريم عظيم لشأن العقل البشري، الذي جعله المولى في الأساس مناط التكليف والثواب والعقاب، وتأكيد إلهي لوجوب إعماله، وثقة بالجوهر الإنساني وعميق إيمانه، وابتلاء لحرص الناس على اصطحاب الوحي والالتزام بأحكامه، فإن جعله تبارك وتعالى مهمة تفسير وحيه وتطبيق شرعه، عملا بشريا محضا، أي حقا وواجبا لأي مسلم قادر ومؤهل لذلك، فإنه سبحانه ينزع بذلك ما يسمى بالحق الإلهي أن يدعيه عالم أو حاكم، ويحول دون نشوء ما يسمى بالدولة الدينية (على كل ما في هذا المصطلح من مغالطات وتضليل)، ويتضح من كل ذلك، أن ما يسميه بعض الفقهاء والمفكرين "حاكمية الله"، لا تتعدى في الواقع الالتزام بشرعه سبحانه، وليس مباشرة

إدارة الدولة، وتصريف شؤون الناس، مما أوكله القرآن للجماعة المسلمة أي الشعب، في قول المولى عز وجل: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ كما أسلفت آنفا في الحديث عن الشورى.

ومن أجل ذلك قرر أعلام الفقه وشيوخ العلم من قديم من أمثال الأئمة أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد بن حنبل وأقرانهم، بأن مجمل آرائهم الفقهية إنما هي اجتهاد بشري للتوصل إلى معرفة مراد الله عز وجل من نصوص الشرع (القرآن والسنة)، وأن هذا الاجتهاد يخضع من ثم لظروف المكان وأحوال الزمان، ويتأثر بما أوتي الفقيه من علم وفهم، وأنه من قبل ومن بعد عرضة للخطأ والصواب، وقد اشتهرت في ذلك مقولة الإمام مالك يرحمه الله في مجلسه بالمسجد النبوي الشريف: "كل امرئ يؤخذ من قوله ويترك إلا صاحب هذا القبر صلى الله عليه وسلم".

(ثانيا) الديموقراطية الليبرالية تطبيقا:

نحن نتحدث إذن عن وسائل تطبيق الديموقراطية وليس عن مبادئها ومثلها، لأن هذه المبادئ والمثل - كما أسلفت آنفا - قد تنزلت بها الرسالات السماوية وأقرتها في المجتمع الإنساني كله عبر التاريخ، كلما مضى رسول جاء رسول من بعده يجدد عهد الأرض بوحي السماء وهديها، حتى جاء خاتم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه بخاتم الرسالات.

ومن الضروري أن نلاحظ أن الديموقراطية الأوروبية لم تخرج فجأة على الناس بشكلها المعاصر كنظام متكامل كما هو الحال مع النظام الإسلامي، بل تطورت عبر القرون سواء من حيث تقبلها للمبادئ الأساسية للديموقراطية الليبرالية أو تطويرها لأساليب التطبيق ووسائل التنفيذ. فنظام التصويت (الانتخاب) مثلا قد بدأ في انجلترا وهي مهد الديموقراطية الحديثة كحق مقصور على النبلاء، ثم تطور فدخل فيه أصحاب الأراضي والعقارات، ثم تطور فأصبح حقا عاما للجميع، ولم تحصل المرأة الأوروبية على هذا الحق إلا متأخرا، بل لم يكن للمرأة الأوروبية شخصيتها الاعتبارية والمالية المستقلة إلا في أواسط القرن التاسع عشر، حتى مفهوم المواطنة وحقوقها فقد مر بأطوار مختلفة بدءاً من كون المواطن (SUBJECT) أي " شيئا" يخضع للعاهل (SOVEREIGN) الذي يملك الأرض ومن عليها، حتى تبلور عبر القرون مفهوم (المواطن) وما يترتب عليه من حقوق والتزامات بالشكل الدستوري والقانوني المعاصر.

هذه الطبقية المقيتة التي كانت تحكم المجتمع البريطاني، والقائمة على العرق والمال، وهذا الاحتقار للمرأة وجعلها كالمتاع تورث وتورث، أنهاها نزول الوحي الإلهي على المجتمع المكي، قبل حوالي عشرة قرون من بزوغ فجر الديموقراطية في أوروبا، فأصبح الناس جميعا رجالا ونساء سواسية في الواجبات والحقوق، لا يتميزون إلا بالعمل الصالح والسبق والبلاء في الإسلام، حتى كان ضعفاء المسلمين وفقراؤهم كبلال يتقدمون على شيوخ قريش،

مما يجعل الزعم بأن الديموقراطية الليبرالية تمثل نهاية التاريخ غرورا أجوف لا يمت إلى التفكير العلمي بسبب، ولا يعكس تجارب القرون ولا واقع الحال في المجتمعات الغربية المعاصرة.

على صعيد التطبيق للديموقراطية الليبرالية هناك إذن، شواهد كثيرة من قبل المجتمعات الديموقراطية تؤكد جوانب النقص وثغرات الفشل في هذا التطبيق، وتنقض بالتالي مزاعم فوكوياما عن نهاية التاريخ:

(أ) هناك تراث كبير لفلاسفة الفكر السياسي الغربي في نقد الديموقراطية، وبيان الثغرات العديدة في مختلف جوانب تطبيقها، وفشل الاختبار الواقعي لمدى الالتزام والتقيد بمبادئها، وخطورة جماعات الضغط السياسي وسطوة الشركات والصناعات العملاقة والبنوك ونفوذها داخل الحكومات والبرلمانات، هناك أيضا ثغرات في طرائق التصويت وأساليب اتخاذ النواب للقرارات والضغوط والمصالح التي تستهدفهم وغير ذلك كثير.

إن جوهر الديموقراطية هو حكم الأغلبية، فكيف انقلب الأمر في أضخم ديموقراطية في العالم وهي الولايات المتحدة الأمريكية بحيث أصبحت الأقلية اليهودية والتي لا تتجاوز ٢٪ من مجموع السكان، هي الحاكم المطلق الذي تعنو له السلطتان التشريعية والتنفيذية، فلم يعد يصدر عنهما إلا الولاء الأعمى للصهيونية، والدعم المطلق لإسرائيل، والتضحية بالمصالح العليا للشعب الأمريكي؟! كيف أمكن للأقلية اليهودية أن تحكم قبضتها على كل

المقومات الأساسية للمجتمع الأمريكي في الإعلام والمال والاقتصاد وصناعة السينما وغيرها؟ كيف فشلت كل أنظمة مكافحة الاحتكار في أمـريكا، وهي أنظمة صارمة في منع أقلية محدودة من احتكار القرارات السياسية العليا للبلاد على المستوى التشريعي والتنفيذي؟ بل لقد بلغ النفوذ الصهيوني حدا بحيث لا يستطيع أي مسؤول أن يتعرض لهذا الموضوع دون أن يغامر بعمله وربما مستقبله.

كيف سمح مجتمع ديموقراطي عظيم كالولايات المتحدة الأمريكية لحكوماته المتعاقبة أن تدعم وتشارك في مأساة إنسانية كبرى كاغتصاب فلسطين، وأن تمول الغاصبين القتلة وتمدهم بأعتى أدوات الدمار وتحميهم ومظالمهم وجرائمهم الدموية حتى من القانون الدولي.

في الديموقراطيات الأوروبية العريقة في إمكان أي مفكر أو كاتب أن يتهجم على الذات الإلهية أو يشكك في الأديان والرسل، لكنه لا يستطيع أن يتعرض بالتمحيص أو المساءلة لوقائع المحرقة النازية لليهود، فضلا عن أن يشكك فيها دون أن يتعرض للمحاكمة والتجريم طبقا للقوانين، فكيف أمكن لهذه السطوة الصهيونية أن تستثني هذا الشأن الصهيوني تماما من حرية الفكر والبحث العلمي في مجتمع ديموقراطي بل وتجعله جريمة تستحق العقاب؟

وليس ينسى علماء السياسة الغربيون أن كلا من الفاشية والنازية اللتين دمرتا أوروبا بحرب عالمية، إنما نشأتا وولدتا من رحم الديموقراطية الغربية، ويبدو أنهم لن يضيفوا الصهيونية إلى

هذه القائمة، إلا بعد أن تقود الغرب إلى كوارث مروعة!؟ بعد كارثة فلسطين.

لقد كتب عن ذلك كله مفكرون غربيون كثر، ولعل أصرح وأقوى ما صدر حتى الآن هو الدراسة التي أصدرتها كلية كندي للحكم في جامعة هارفارد بإشراف أستاذين من أبرز أساتذة العلوم السياسية في الولايات المتحدة الأمريكية هما جون ميرشايمر وستيفت والت بعنوان " اللوبي الإسرائيلي والسياسة الدستورية في الولايات المتحدة الأمريكية"، وهذه الدراسة صرخة تحذير بالغة الأهمية للشعب الأمريكي أن يسترجع استقلاله من تسلط جماعات الضغط الصهيونية، وأن يحمي مصالحه العليا ونظامه الديموقراطي من عواقب الولاء الأعمى لدولة الكيان الصهيوني.

(ب) **وهناك أيضا تراث كبير لعلماء السياسة الغربيين القدامى والمحدثين في نقد حضارتهم التي هي نتاج الديموقراطية وتفصيل أمراضها وعيوبها**، والتحذير من العواقب الوخيمة لجوانب الشر والانحلال والتفسخ والخطر في مسيرتها، بحيث لا يمكن لمثقف يطلع عليها ويلمَ بطروحاتها أن يتورط في زعم ساذج مغرور كالقول بنهاية التاريخ، إلا إذا كان يعمل في مجال حملات التسويق التجاري أو الدعاية الرخيصة (البروباقندا).

لقد تزامن بزوغ فجر الديموقراطية الأوروبية مع ولادة العلمانية والطلاق بين الكنيسة والدولة، وكان من سوء حظ أوروبا أن الحركة العلمانية ولأسباب تاريخية واجتماعية عديدة، كانت من

الاندفاع والتطرف بحيث لم تفرق بين تسلط الكنيسة على السلطة السياسية، والمثل والمبادئ السامية في المسيحية، فكان أن خاصمت الاثنين معا وطاردتهما في كل مكان حتى لا يتجاوزا أبواب الكنائس، وهكذا تخلصت حركة التحول الديموقراطي في أوروبا من المثل العليا التي يلتزم بها أي مجتمع صالح، واستبدلت ذلك بمثل رأسمالية مادية يلهث وراءها الإنسان هي الإنتاج والاستهلاك والمتعة والتكاثر والربح وغير ذلك من مثل المجتمع المادي وممارساته في معظم الديموقراطيات الغربية، كأندية التعري، وبؤر الممارسة العلنية للجنس أمام الرواد، والاعتراف القانوني بزواج الشاذين من الجنسين واعتبارهم عائلة تتوارث، حتى الكنيسة الكاثوليكية في أمريكا أقرت بوجود شواذ بين قسيسيها ونصبت أحدهم في منصب كنسي رفيع.

ولقد كانت أوروبا نفسها هي أول من عانى من ذلك كما أوضح الأمير عمرو محمد الفيصل في زاويته الأسبوعية بجريدة المدينة المنورة، إذ شرح سموه ما حدث في أوروبا من أهوال ومظالم مروعة خلال عقود التحول من مجتمع زراعي إلى مجتمع صناعي، وماذا فعلت النخب الصناعية الحاكمة كي تكسر ارتباط جمهور الناس بأرضهم الزراعية، وتحطم تركيبتهم الاجتماعية في قراهم ومزارعهم وتفكك روابطهم الأسرية والعائلية لإعمار المدن الصناعية، بحيث تحولت هذه الجماهير إلى مجموعات هائلة من الغرباء الذين تحللوا من كل روابطهم الأسرية ومسؤولياتهم الاجتماعية، ليصبحوا وقودا للمصانع العملاقة والصناعات القائمة

على كثافة اليد العاملة، وجموعا من المستهلكين لكل ما تقذفه هذه المصانع من إنتاج، الى غير ذلك من مظاهر جشع رأس المال واستبداد كبار الرأسماليين تحت شعارات التقدم الصناعي وحرية الأسواق، مما أدى إلى نشوء أفكار العدالة والمسؤولية الاجتماعية وبدء انتشار الفكر الاشتراكي ثم الماركسي الأمر الذي فصلته وسجلته عشرات الدراسات عن التاريخ الاجتماعي والسياسي والاقتصادي للمجتمعات الأوروبية منذ فجر الثورة الصناعية. (المدينة ١٤٢٥/١/٣٠)، ويمكن للقارئ المهتم أن يطلع بصورة موجزة دقيقة، على جوانب مهمة من كل ذلك، في كتاب "تاريخ الفكر الأوروبي الحديث" تأليف رونالد سترومبرج وترجمة الأستاذ أحمد الشيباني يرحمه الله[١].

(جـ) **كان ذلك داخل أوروبا الديموقراطية**، أما ما عاناه غير الأوروبيين، فقد انطلقت الحركة الاستعمارية الأوروبية لتحتل بالقوة العسكرية معظم أنحاء العالم في افريقيا وآسيا، وحتى الصين التي شنت عليها بريطانيا ما أصبح معروفا بحرب الأفيون، لإرغام الشعب الصيني على استهلاك الأفيون الذي تروجه بريطانيا الاستعمارية، وقد شكل الاستعمار الأوروبي أكبر حركة نهب مسلحة في التاريخ البشري لاستعباد البشر ونهب ثروات الشعوب والسيطرة على الأسواق العالمية وامتصاص دماء الناس، ولا وجه للمقارنة بطبيعة الحال بين الحروب الصليبية البدائية

---

(١) محمد أسد، منهاج الإسلام في الحكم- مرجع سابق - ص٩٤ .

التي شنتها على العالم العربي أوروبا الكنيسة، والحروب الاستعمارية المدججة بأحدث أسلحة الجو والبر والبحر التي شنتها أوروبا الديموقراطية على العالم كله تقريبا، بما في ذلك أمريكا، حيث تم استئصال المواطنين الأصلاء (الهنود الحمر) وامتلاك المهاجرين الأوروبيين للبلاد.

(د) هل اختلفت الصورة اليوم؟! كلا بطبيعة الحال، فبينما ينفق الديموقراطيون الغربيون عامة والأمريكيون خاصة مئات البلايين سنويا على العناية بالكلاب والقطط، ومثلها على الزهور والعطور ومستحضرات التجميل، وأكثر منها على المخدرات والخمور ووسائل اللهو، كما ينفقون مئات البلايين على تطوير أسلحة البر والبحر والجو بما في ذلك أسلحة الدمار الشامل، يعيش أكثر من نصف سكان المعمورة تحت خط الفقر، ويموت عشرات الملايين من الأطفال من الجوع، إلى غير ذلك من المظالم المروعة ومظاهر السيطرة والقهر التي تمارسها الديموقراطية الليبرالية الرأسمالية على شعوب العالم خاصة الفقيرة منها، مما فصلته عشرات الدراسات الغربية عن أخطار العولمة ومظالمها، والسيطرة الاستعمارية التي تستبطن كل اتفاقياتها وأنظمتها.

ولعل الأستاذ محمد أسد يرحمه الله، والذي كان قبل إسلامه يهودياً نمساوياً باسم ليوبولد فايس، هو خير من أبرز ذلك بإيجاز في الفصل المعنون "روح الغرب" في كتابه الفذ (الإسلام على مفترق الطرق) الذي أنقل منه هذه الفقرات: "المدنية الغربية الحديثة لا تقر الحاجة إلى خضوع ما إلا لمقتضيات اقتصادية أو

اجتماعية أو قومية، إن معبودها الحقيقي ليس من نوع روحاني، ولكن الرفاهية، وإن فلسفتها الحقيقة المعاصرة إنما تجد قوة التعبير عن نفسها من طريق الرغبة في القوة، وكلا هذين موروث عن المدنية الرومانية القديمة"

"كانت الفكرة التي تقوم عليها الإمبراطورية الرومانية هي الاجتياح بالقوة، واستغلال الأقوام الآخرين لفائدة الوطن الأم وحده، وفي سبيل الترفيه عن فئة ممتازة لم ير الرومانيون في عنفهم سوءا ولا في ظلمهم انحطاطاً، وإن العدل الروماني الشهير كان عدلا للرومانيين وحدهم".

"وخلاصة القول أن المدنية الأوروبية قائمة في أساسها على المدنية الرومانية الوثنية، وهي لم تأخذ من النصرانية - التي اعتنقتها لأسباب سياسية قاهرة - سوى الطلاء الخارجي فحسب، ثم إن المدنية الأوروبية لا تزال في واقعها وثنية مادية لا تؤمن بغير القوة".

"إن الأوروبي العادي، سواء أكان ديموقراطيا أم فاشيا، رأسمالياً أم بلشفياً، صانعاً أم مفكراً، يعرف ديناً إيجابياً واحداً هو التعبد للرقي المادي، أي الاعتقاد بأن ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر، أو كما يقول التعبير الدارج " طليقة من ظلم الطبيعة". إن هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة ودور السينما والمختبرات الكيماوية وباحات الرقص وأماكن توليد الكهرباء، وأما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة والمهندسون وكواكب السينما وقادة الصناعات وأبطال

الطيران، أما على الجانب الثقافي فنتيجة ذلك خلق نوع بشري تتحصر فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العملية، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادي"[١].

ليس من المتوقع ألا يكون السيد فرانسيس فوكوياما قد اطلع على شيء من هذه الدراسات، وألا يكون على إلمام بكل هذه التطورات في التاريخ السياسي للعالم عامة والعرب والمسلمين خاصة، وقد كان كل ذلك حريا بأن يردعه عن الوقوع في فرية كبيرة كالزعم بنهاية التاريخ.

(هـ) **بالنسبة لنا نحن المسلمين**، فقد وقعت معظم بلادنا من اندونيسيا شرقا إلى شمال افريقيا غربا، ومن تركيا شمالا حتى الكثير من الدول الأفريقية المسلمة جنوبا، وكان الغرب الديموقراطي بالغ القسوة في البطش بأمتنا مقارنة بغيرها من المستعمرات، حريصا على تمزيقها جغرافيا وسياسيا، جاهدا لإلغاء كل خصوصياتنا الدينية والثقافية والاجتماعية، لكن الجريمة الأخلاقية الكبرى التي ارتكبها الغرب المسيحي الديموقراطي ضدنا، هي تمكين الحركة الصهيونية من اغتصاب فلسطين، وتنظيم وتدريب وتسليح عصابات المهاجرين اليهود، وتمكينها من المواقع الاستراتيجية لارتكاب أبشع المذابح الجماعية ضد الفلسطينيين وترويعهم ودفعهم لمغادرة أراضيهم وبلادهم، حيث

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق - ترجمة الدكتور عمر فروخ، طبعة ديسمبر ١٩٨٧، دار العلم للملايين - بيروت.

لا يزال ستة ملايين منهم لاجئين لأكثر من نصف قرن من الزمان، ولايزال الغرب الديموقراطي يوفر الحماية والتمويل والتسليح للقتلة الصهاينة ليذبحوا أهلنا أمام أعيننا ويدمروا كل مقومات حياتهم صباح مساء.

كيف يمكن والحال كذلك، أن نبتاع من السيد فوكوياما فرية نهاية التاريخ، فبئست الديموقراطية وبئست الحضارة إذا كان حصادها هو هذه المظالم الدامية المروعة، وهذه المآسي الإنسانية الكبرى.

(ثالثا) هل الإسلام هو البديل؟

(أ) يبقى أن نتحاور في إيجاز مع السيد فوكوياما حول بعض القضايا المهمة التي أثارها خلال مكاشفاته مع الأخ الأستاذ عبدالعزيز قاسم، لأنها تمثل جوهر الهجمة الثقافية والفكرية الشرسة التي يتعرض لها الإسلام اليوم على نحو غير مسبوق، دينا ومنهجا وأمة، سواء من عتاة المفكرين الغربيين، الذين أعماهم الهوى الصهيوني والكراهية العميقة للإسلام والمسلمين مثل برنارد لويس، أو من تلامذته ومريديه الصغار، الأقل علما ووزنا وفكرا، أمثال السيد فوكوياما.

يقول السيد فوكوياما في ختام مقالته الشهيرة عن نهاية التاريخ: "إنه عندما ينظر إلى العالم من حوله لا يجد بدائل قوية للديموقراطية الليبرالية في المجتمعات الحديثة على الأقل، وإذا أخبرني أحد بوجود ما يثبت عكس ذلك فسأكون سعيدا وسأقول إنني مخطئ في نظريتي".

لكن السيد فوكوياما يعود في لقائه مع (تقرير واشنطن) والمنشور في هذا المجلد (صفحة ٨٩) فيستثني الإسلام على وجه التحديد قائلا: (إن الإسلام لا يقدم بديلا حضاريا مقبولا يجذب مجتمعات إنسانية متقدمة لتبني أسلوب حياته أو العيش فيه)، فلا يريد أحد - كما يقول فوكوياما - أن يعيش في أفغانستان تحت حكم طالبان ولا في دولة خليجية.

على أن السيد فوكوياما يوغل أكثر وأكثر في نفس المقابلة مع تقرير واشنطن، ليزعم بأن الإسلام - على وجه التحديد - يمثل تهديدا حقيقيا (للديموقراطية الليبرالية بطبيعة الحال وللمجتمعات الليبرالية) من ناحيتين: أولاهما احتمال وقوع أسلحة دمار شامل في يد جماعات صغيرة (إسلامية طبعا) تستطيع من خلالها تحقيق دمار كبير للقوى الكبرى، والجانب الآخر هو - حسب تعبير فوكوياما: وجود أقليات إسلامية ضخمة في أوروبا وروسيا، وليس بالصورة نفسها في الولايات المتحدة الأمريكية، والتي يبدو أنه من الصعوبة تأقلمها - أي هذه الأقليات المسلمة - مع نمط الحياة في المجتمعات الغربية الليبرالية، لكنه عاد ليقول: إن أنموذج المجتمعات الليبرالية هو البديل الأفضل، ونحن نعيش جميعا في مجتمعات متعددة ثقافية والعولمة بمعناها الجديد تزيد من مستوى التفاعلات الثقافية، ومعها لا أرى أنه بإمكان هذه الجماعات (الإسلامية) المختلفة ثقافيا أن تتعايش بسلام في أي مجتمع إلا أن يكون مجتمعا ليبراليا ومتسامحا (تقرير واشنطن).

ما هو مصدر الخطر إذن؟ أو مصدر التهديد؟ طالما أن المجتمعات في أوروبا وأمريكا ليبرالية ومتسامحة؟ لم يقدم لنا السيد فوكوياما إجابة لذلك، ولربما شعر الرجل بالخجل فنقض في عجز كلامه ما سبق أن أكده في صدره.

ورغم أن السيد فوكوياما يعترف صراحة في مكاشفاته قائلا: أنا لست متخصصا في شؤون الإسلام أو السعودية أو الشرق الأوسط، ولذلك لا تأخذوا مستوى معرفتي بهذه الأمور كمؤشر صحيح، فإن الرجل لا يستنكف أن يفتي في أخطر القضايا المتعلقة بالإسلام والمسلمين.

(ب) **إن الأقليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا**، تقدم بحمد الله أنموذجا فريدا للتعايش مع الآخر، والإخلاص والاعتزاز بمجتمعهم الجديد، ومن الاجتراء الفاضح على الحقيقة والواقع، الزعم بأن هذه الأقليات تمثل تهديدا للمجتمعات الليبرالية في أوروبا وأمريكا، في الوقت الذي يشهد الجميع بأنها تمثل إضافة غنية لتعددية هذه المجتمعات الليبرالية، وإثراء ثقافتها وحياتها، كما أن هذه الأقليات تقدم مثلا فريدا في الالتزام بالقوانين والامتثال للأنظمة العامة، والبعد عن الجريمة والمخدرات ومختلف الأنشطة الضارة بالمجتمع.

لا بل إن الإسلام (الذي يتحدث عنه السيد فوكوياما كتهديد للمجتمعات الليبرالية) هو الدين الأكثر انتشارا في أوروبا وأمريكا غير منازع، والذين يقبلون على اعتناقه نساء ورجالا ليسوا فقط

من عامة الناس بل من النخبة المثقفة أساتذة وأطباء وقيادات اجتماعية وسياسية وسفراء، مما دفع أكاديميا مرموقا كبرنارد لويس إلى أن يزعم بأن " أوروبا ستصبح قارة مسلمة مع نهاية هذا القرن" وهي مبالغة تستهدف التحريض والتحذير بطبيعة الحال، لكنها تعكس في نفس الوقت واقع النمو والانتشار والقبول الواسع النطاق للإسلام كعقيدة ومنهج حياة بين الأوروبيين والأمريكيين، مما تناولته تقارير الاستخبارات وتحقيقات الصحف، وحذرت منه إسرائيل قبل أن يحذر منه السيد فوكوياما بسنوات طوال، ولقد أثبت التاريخ المعاصر أنه كلما تعرض الإسلام لهجمة شرسة في أوروبا، مثل كتاب سلمان رشدي " آيات شيطانية"، أو مثل مجازر المسلمين في البوسنة، أو الرسوم الدنماركية المسيئة لنبي الإسلام صلوات الله وسلامه عليه، وحتى بعد تفجيرات ١١ سبتمبر، ازداد بل وتضاعف عدد معتنقيه من الأوروبيين والأوروبيات، كما ازداد الطلب على الكتب والمراكز الإسلامية في جميع أنحاء أوروبا، والتطلع لمعرفة أحكام الإسلام.

على أن هذا يقودنا إلى جوهر ما يفتخر به الليبراليون، وهو التعددية الثقافية والاجتماعية والدينية، القائمة على الحرية الفكرية وحقوق الإنسان، إذ تؤكد لنا نظرة مفكر كالسيد فوكوياما للأقليات الإسلامية في أوروبا وأمريكا، واعتبارها تهديدا لهذه المجتمعات، زيف ما يتشدق به هو وأمثاله حول التعددية وما يرتبط بها من تعايش وتسامح، وكيف أنهم يلتقون في هذه النظرة مع عتاة العنصريين من أمثال الفرنسي جان ماري لوبان زعيم حزب الجبهة الوطنية.

إن التعددية عند السيد فوكوياما وأمثاله هي تعددية مشروطة بأن تتم داخل نظام القيم الغربية وليس خارجه، بمعنى أنها ليست تعددية تقبل الآخر المختلف خاصة إذا كان مسلما، وبذلك فهي في جوهرها تعددية عنصرية.

إن الجمعية الوطنية الفرنسية التي أقرت مرسوم حظر ارتداء المرأة الفرنسية المسلمة لغطاء الرأس، هي نفسها الجمعية الوطنية التي أقرت الشذوذ الجنسي وحق الشاذين في زواج المثلين أي زواج الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة واعتبار ذلك عائلة.

وفي الوقت الذي تسمح القوانين الفرنسية للمرأة الفرنسية بكشف الكثير من مفاتن جسدها في الشارع أو العمل، والتعري الكامل والممارسة العلنية للجنس في أندية التعري، باعتبار كل ذلك من الحريات الشخصية، فإن هذه القوانين لا تعترف للمرأة الفرنسية المسلمة بالحرية الشخصية وتمنعها من غطاء رأسها حتى ولو كان ذلك يشكل التزاما بفرائض الدين، باعتبار هذا الغطاء يمثل تهديدا لقيم الجمهورية (تأمل).

لقد خالفت ذلك معظم المجتمعات الليبرالية العلمانية في أوروبا وأمريكا، واعتبرته نقضا لحقوق الإنسان وللحريات الشخصية، ولم تر في غطاء الرأس للمرأة المسلمة أو احتشامها بتغطية كل جسدها أي تهديد للعلمانية، بل تأكيداً لها ودعماً لمبادئها.

بالنسبة للسيد فوكوياما في أمريكا وجان لوبان في فرنسا وأمثالهما، لا بد لكي يتم قبول المسلمين في المجتمعات الغربية

(الليبرالية) أن يشربوا الخمر وأن يأكلوا لحم الخنزير، ويقبلوا بالإجهاض وبالشذوذ الجنسي وزواج المثلين.

لا بد أن يتوقفوا عن أن يكونوا مختلفين عن مواطنيهم الفرنسيين أو الأمريكيين أو البريطانيين فلا يؤموا المساجد ولا يصوموا شهر رمضان، لا بد - باختصار - أن يتركوا الإسلام، وهو ما تسميه الجامعات العنصرية " الاندماج" بمعنى الذوبان التام، وهو أمر مطلوب وبإلحاح من المسلمين، لكن لا يصرح بطلبه.

ويعلم السيد فوكوياما أن كثيرا من المسيحيين واليهود الغربيين، لا يشربون الخمر ولا يأكلون لحم الخنزير، وأنهم يعارضون بعنف الشذوذ الجنسي والإجهاض، ولا يقبلون بالتعري والانحلال الجنسي، كما أنهم يذهبون إلى الكنائس والبيع للصلاة كما يذهب المسلمون للمساجد، بمعنى أن هذه القيم أو المسالك هي تراث مشترك للمسلمين والنصاري واليهود، فليست هي بالتالي ما يجعل المسلمين تهديدا للمجتمعات الغربية كما يقول فوكوياما، وإنما فقط كونهم مسلمين، وتلك لعمر الحق عنصرية مقيتة، وغوغائية مؤسفة ونقض فاضح لكل قيم الليبرالية والليبراليين.

(جـ) **ولا بد أن نسجل هنا**، أن إسرائيل تقف بكل قدراتها وأجهزتها مع الجاليات اليهودية في أوروبا وأمريكا، وراء مخطط التخويف من الأقليات الإسلامية في الغرب، واعتبارهم خطرا يهدد هذه المجتمعات، وتقوم الموساد ومراكز البحوث الإسرائيلية بنشر إحصاءات مزيفة عن تنامي أعداد هذه الجاليات، وتعقد

المؤتمرات عن أخطارها، ولا تخفي إسرائيل مطلقا بل تعبر بكل صراحة عن قلقها من هذه الأقليات، وخشيتها من تنامي أعدادها وتحسن أحوالها، وازدياد مشاركتها في الحياة العامة في بلدانها، وكما حولت إسرائيل الفلسطينيين، من ضحايا لبطشها واحتلالها، الى إرهابيين خطرين على أمنها ووجودها، فإنها تريد - كما يفعل السيد فوكوياما - تصوير هذه الأقليات الإسلامية الصغيرة كقنابل متفجرة تهدد المجتمعات الغربية المستضيفة لها.

ويبدو أن الكيان الصهيوني قد أصبح شديد الحساسية نحو أي قوة يمكن أن تحد من تسلطه المطلق على السياسات الغربية، أو تمس الحماية الكاملة التي يتمتع بها ضد كل القوانين والشرائع الدولية، فلأول مرة تشن الرابطة اليهودية لمكافحة التشهير بنيويورك وهي أكبر منظمة يهودية أمريكية، هجوما إعلاميا علنيا على ما أسمته تنصير الحياة داخل الولايات المتحدة الأمريكية معتبرة أن ذلك يشكل - في زعمهم - تقويضا للتسامح الديني، وتهديدا لمبدأ الفصل بين الكنيسة والدولة، ونقلت صحيفة هآرتس الإسرائيلية عن ابراهام فوكسمان المدير المحلي لمفوضية الرابطة اليهودية سالفة الذكر قوله: إننا نواجه اليوم تحالفا من جماعات دينية مسيحية أفضل من حيث التمويل والتوحد والتنظيم والنشاط، تسعى إلى تنصير جميع مجالات الحياة الأمريكية من أروقة الحكومات إلى المكتبات والأفلام واستوديوهات التسجيل والملاعب وغرف تبديل الملابس، وقال فوكسمان ساخرا: إن هدفهم هو تنصير أمريكا وأنه لا يوجد أي جهد يبذل في سبيل إخفاء أهدافهم وطموحهم.

Obeikandl.com

وخلص فوكسمان إلى أن السبب الرئيس في وجود تلك الحركات هو الشعور بالاضطهاد والإحساس بأن الدين عموما والمسيحية خصوصا تتعرض لهجوم من قبل الليبراليين في الولايات المتحدة.

واستشهد باستطلاع للرأي - تم إجراؤه لصالح الرابطة ولم تنشر نتائجه بعد - قائلا: إن هذا الاستطلاع يظهر أن نسبة ٧٥٪ من الأمريكيين الذين يذهبون للكنيسة مرة واحدة أسبوعيا يعتقدون أن الدين يتعرض للهجوم في بلادهم، وارتفعت هذه النسبة بين الإنجيليين لتصل الى ٨٠٪، أما بالنسبة لمن يذهبون للكنيسة بانتظام فرأى ٧٠٪ أن المسيحية بالتحديد مهددة، واتفق مع هذا الرأي ٧٦٪ من الإنجيليين.

(د) **وما دمنا بصدد الحديث عن التعددية والتعايش والتسامح**، فلا بد من أن نذكر أن سجل أمتنا في ذلك كله منذ البعثة الشريفة وحتى سقوط الخلافة الإسلامية عام ١٩٢٣، هو سجل مشرف يدعو للفخر والاعتزاز، فحيثما انطلقت جيوش الفتح الإسلامي إلى مختلف أرجاء العالم كانت إنقاذا للمستضعفين والمضطهدين، وحيثما حكمت كانت أمانا للخائفين وإنصافا للمظلومين ومثلا كريما للتسامح والوفاء بالعهد والخلق الكريم.

ويذكر التاريخ ماذا فعل الصليبيون حينما دخلوا القدس الشريف حيث سالت دماء المسلمين كالأنهار، وماذا فعل صلاح الدين الأيوبي حين استعاد المدينة المقدسة، فعفا عن الصليبيين

وأمنهم على أنفسهم وأموالهم وأهليهم، وكفل إيصالهم بسلام الى حيث يريدون.

وحين طردت أوروبا اليهود مرتين، الأولى في إسبانيا عام ١٤٩٥ والثانية تحت الحكم النازي، كانت تركيا وغيرها من بلاد المسلمين هي الملاذ الآمن الذي لجأ إليه اليهود، وحتى الحكم العثماني لأوروبا والذي دام حوالي ثمانية قرون، كان مثالا للتسامح والتعايش حيث وفر الفاتحون العثمانيون لرعاياهم اليهود والمسيحيين حماية تامة وحياة كريمة مزدهرة وعدالة وتسامحا لا نظير لهما في تاريخ الأوروبيين.

وقد لا يعلم الكثير من غير المسلمين، أن هذا السجل الناصع العظيم للأمة من التسامح والتعايش مع الآخر ومحبته وحمايته، إنما هو جزء لا يتجزأ من إيمانها وفرائض دينها والتزامها مع ربها.

في المقابل يسجل التاريخ ما خاضه الأوروبيون من حروب أهلية ضد بعضهم استمرت لعدة قرون، وما أصاب الكنائس والفرق المسيحية من بعضها من مذابح واضطهاد دموي، ولعل المذابح الجماعية الدموية التي استمرت حوالي ثلاثة قرون ضد مسلمي البوسنة تقدم أبشع مثال دموي معاصر على عمق التعصب الديني الأوروبي وضراوته، مما لا يسمح للسيد فوكوياما أو غيره أن يعظ العالم الإسلامي أو يعطيه محاضرات عن القيم الإنسانية وحقوق الإنسان،، ومما يذكرنا بقول شاعرنا العربي سعد بن محمد بن سعد الصيفي التميمي الملقب بـ (الحيص بيص):

ملكنا فكان العفو منا سجية | فلما ملكتم سال بالدم أبطح
وحللتمو قتل الأسارى وطالما | غدونا على الأسرى نعف ونصفح
فحسبكمو هذا التفاوت بيننا | وكل إناء بالذي فيه ينضح

*****

(هـ) يبقى في ختام هذا الحوار أن أسجل عدة نقاط:

(١) لقد أعطت حضارة الإسلام للبشرية مكارم الأخلاق، ورسخت في المجتمعات الإنسانية معالم الأخوة والتسامح والتعايش وكرامة الإنسان، وربطتها بالسماء، وخلفت حتى اليوم أمة وحدها الفكر والمشاعر والارتباط بالله، ووجهتها لقبلة واحدة فروض الإسلام كالحج والصيام والصلاة، واحتفظت في نطاق هذه الوحدة بتعددية رائعة نادرة من الحضارات والفنون واللغات والثقافات، أما الحضارة الغربية فقد قدمت للبشرية مع التقدم المادي، كل ضروب العدوان والأثرة، والاستغلال والجشع، والعنصرية والغزو والقتل والاستعباد، وخلفت في مختلف جنبات الأرض أشنع مظاهر الفقر والظلم، باعتراف خيرة علمائها ونخبة مفكريها[١].

(٢) إن الختم الإلهي للرسالات السماوية، قد أطلق العقل البشري من عقال التخلف والتبعية والجهل، وفتح أمامه آفاق الدأب

(١) نعوم تشومسكي، إهدار الحقيقة – أوهام الليبرالية والسوق الحرة، ط١ – دار الشروق الدولية – القاهرة.

للبناء الفاضل والعمل الصالح والأخوة والكرامة الإنسانية، وعزز من أشواقه لخالقه، ووضع أمامه أكرم الاختيارات لكل ما أودع فيه من الخير والبر والاستقامة والمرحمة، أما أسطورة نهاية التاريخ فإنها حلقة من مسلسل الغرور البشري الأجوف، والغطرسة الظالمة والتبجح الفارغ، ومظهر من مظاهر الاستعلاء الذي بدأه رأس الشر إبليس، استكبارا على ربه، وتحقيرا لما خلقه سبحانه بيديه، فانتهى به إلى أسفل سافلين.

(٣) ان تأخر المسلمين وتخلفهم الذي نقر به ونعترف آسفين بوقوعه، إنما يرجع لإهمالهم وتراخيهم وتفرقهم، وبعدهم عن تعاليم ربهم، وليس نقصاً في دينهم، ولذلك قال فقهاؤنا الأقدمون: "إنما يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال".

لكن القوة الكامنة في هذه الأمة لن تخذلها بإذنه تعالى، وستظل تمثل الخير بالباقي على هذه الأرض، كما قال الأستاذ محمد أسد يرحمه الله: " إن القوة الباطنة والتماسك الاجتماعي في العالم الإسلامي كانا أرقى من كل شيء خبره العالم من طريق التنظيم الاجتماعي، لقد ترامت الإمبراطورية الإسلامية في ثلاث قارات وكانت في أثناء ذلك كله محاطة بدول معادية لها قوة عظيمة وفيها حيوية بالغة، ومنذ فجر التاريخ، والشرق الأدنى - كما ندعوه - هو البؤرة البركانية لقوى اجتماعية وفكرية متنازعة، ولكن حصانة النظام الاجتماعي الإسلامي ظلت - إلى عهد قريب على الأقل - منيعة، وليس لنا أن نبحث بعيداً عن تعليل لهذا المشهد الرائع،

إن تعـاليـم القـرآن الكريم الدينيـة خلقت هـذا الأسـاس المتين، وسنة رسـول الله أصبـحت إطارا من الفـولاذ حـول ذلك البناء الاجتماعي العظيم"[١].

(٤) لقـد انقلب السيـد فـوكـويامـا مـؤخـرا - كـمـا أسلفت - على جـماعـته من المحـافظين الجـدد الذين يسـمونهم فـي واشنطن العـاصـمة (أحـذية إسـرائيل) وأصـدر كتـابا بعنوان (أمـريكا على مفترق طرق) كما نشر عدة مقالات يهاجم فيها ما كان يروج له من قبل، سـواء مبـدأ الحـرب الاسـتبـاقيـة، واسـتخـدام القـوة، والتـصـرف الأمـريكي الأحـادي، ونشـر الديموقـراطيـة بـالقـوة الجبرية إلى غير ذلك من أفكار المحافظين.

يقول فوكوياما في مقال نشرته جريدة النيويورك تايمز: " منذ عـهـد كلينتـون، ولدت الهـيـمنة الاقتـصـادية الأمـريكيـة عـداوة كبـيـرة لعملية العولمة التي تسيطر عليها أمريكا، لا سيما من جـانب حلفاء ديموقـراطيين مـقـربين ظنوا أن الولايات المتحـدة تفـرض عليـهم نموذجها الاجتماعي المناهض لاشتراكية الدولة".

" كانت أمريكا لتكون أول بلد يعترض لو أن روسيـا أو الصين أو الهند أو فرنسـا أعلنت امتلاكهـا حقاً مماثلاً بالتصرف الأحـادي، سـعت الولايـات المتـحـدة إلى الحكم على الآخـرين في حين لـم تكن مـسـتعـدة لقـبـول التـشكيك في سلوكـهـا في أمـاكن مـثل المحكمـة الجنائية الدولية".

---

(١) محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق - مرجع سابق - ص ٣٧ .

"أما مواجهة التحدي الجهادي فهي صراع طويل وضبابي، لا يقوم على حملة عسكرية، بل على مباراة سياسية للفوز بقلوب المسلمين العاديين حول العالم وعقولهم".

"لكن الدرس الأبرز الذي تُعلمنا إياه هذه الأمـــثلة هو أن الولايات المتحدة لا تقرر متى ستنتشر الديموقراطية وأين، لا يستطيع غرباء فرض الديموقراطية على بلد لا يريدها، يجب أن تكون المطالبة بالديموقراطية والإصلاح داخلية، بناء عليه ترويج الديموقراطية عملية طويلة الأمد، وقائمة على انتهاز الفرص، وينبغي عليها انتظار النضوج التدريجي للظروف السياسية والاقتصادية لكي تكون فاعلة".

ولا بد أن يفتقد القارئ الكريم في هذه " التوبة " كما افتقدت، شيئاً من الأسى لعشرات الألوف من الضحايا من النساء والرجال والأطفال، الذين سقطوا ولا يزالون يتساقطون يوميا في العراق وأفغانستان، أو قليلاً من الغضب للسجون الأمريكية السوداء السرية والعلنية وما يمارس فيها من تعذيب جهنمي، وإذلال بشع للكرامة الإنسانية يتعرض له ألوف الضحايا المعتقلين بالشبهات، أو عدداً من التساؤلات عن بلايين الدولارات التي يبتلعها الفساد الأمريكي في إدارة الدولة والتعمير المزعوم للبلاد.

"توبة" فوكوياما لا تعنينا ولا تتعلق بهمومنا وآلامنا، لأنها كحرياتهم ومثلهم حكر على الأمريكيين والإسرائيليين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

بين يدي الكتاب

بقلم: د. عبدالعزيز قاسم (*)

كان لحواري الذي أجريته مع المفكر الأميركي الشهير فرانسيس فوكوياما والذي نشر في ملحق (الرسالة) الصادر عن صحيفة(المدينة) السعودية بتاريخ ١٤٢٦/٣/١٢هـ صدى عريضا لدى النخب الثقافية والسياسية السعودية، وقد أكرمنا بالمداخلة والتعليق على الحوار وقراءة فكر فوكوياما نخبة مفكرين متعددي التوجهات ويمثلون معظم الطيف الفكري السعودي، وكعادتنا في مثل هذه الحوارات التي تمثل رصدا تاريخيا للمرحلة السياسة والفكرية التي نمر بها ككيان وفكر، ارتأينا جمعها في كتاب كي تكون وثيقة وشاهدا لنمطية تفكيرنا وحوارنا مع الآخر الغربي في مرحلتنا الزمانية التي نعيش..

وقصة الحوار تعود إلى تلقي كاتب االسطور دعوة كريمة من معالي الأستاذ فيصل بن عبدالرحمن المعمر أمين عام مكتبة الملك عبدالعزيز العامة بالرياض للمشاركة في ندوة مؤسسة الملك عبدالعزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بمدينة الدار البيضاء بالمملكة المغربية، وعقدت الندوة في ٨-٩ ابريل ٢٠٠٥م تحت عنوان (وجهة التاريخ: العقل وشروط الوجود الإنساني) بمشاركة مجموعة من مفكري العالم ربما كان الأبرز فيهم هو

obeikandi.com

المفكر الأميركي من أصل ياباني فرانسيس فوكوياما، فقد غصّت القاعة الرئيسة عن آخرها بالحضور الذين توافدوا من وقت مبكر، إضافة إلى قاعة أخرى بها شاشة عرض امتلأت هي الأخرى.

فيما كانت ورقة السيد فوكوياما بعنوان (نهاية التاريخ.. بعد مرور ١٦ سنة على إعلانها)، ومن حسن الحظ أنها المحاضرة الوحيدة التي حظيت بترجمة فورية إلى اللغة العربية ما جعلني أتابع بدقة وأحقق كسبا للصحيفة عبر نشر ترجمة المحاضرة.

تعرض الرجل في محاضرته إلى قضية اندماج العالم الإسلامي في مجتمعات الحداثة والتحديات التي تواجه ذلك الاندماج، وقد حلل ظاهرة ابن لادن بوصفها ظاهرة لا صلة لها بمسألة السيادة، وأنها أيديولوجية سياسية تستخدم الدين من أجل تحقيق أغراض سياسية، وعرّج على دور السعودية في ترويج (الإسلام الراديكالي)، بزعمه، ومن ثم خلق (السلفية الجهادية) بسبب توافرها على البترودولار. فيما أعرب في نهاية ورقته عن تفاجئه بالشرخ الذي حدث بين الأوروبيين والأميركيين خاصة بعد حرب العراق.

أسفت جدا لبعض المغالطات التي رددها فوكوياما تجاه وطني، فبادرت من فوري وعقب انتهاء الرجل من ورقته بالإلحاح على الإخوة القائمين على الندوة بأن يرتبوا لي حوارا صحافيا معه كيما أسوق إليه اعتراضاتي وملاحظاتي الخاصة بوطني، وبادر الإخوة المشرفون مشكورين إلى تلبية طلبي، ووافق فوكوياما من جهته على الحوار مشترطا ساعة واحدة فقط.

تمنيت على أستاذنا د.عزت خطاب وهو الأكاديمي المخضرم بجامعة الملك سعود التكرم بالترجمة وحضر معنا الحوار كل من الدكتور إبراهيم البلوي والدكتور محمد الجنجار نائب أمين عام المؤسسة.

ألفيت الرجل متواضعا إلى أبسط درجات التواضع، ودودا وتلقائيا جدا في تعامله وحديثه، وكان رحب الصدر رغم بعض استفزازاتي التي أصررت على الدكتور خطاب ترجمتها حرفيا حيال إسقاطاته على بلدي أو تجاوزه بما لا يليق أبدا بباحث موضوعي عن موقف الولايات المتحدة من الظاهرة الجهادية يوم كانت تخدم استراتيجيتها في مطاردة الاتحاد السوفييتي إبان حرب أفغانستان، وكذلك ميله في كثير من الأحيان إلى تبرير ما يمارسه السياسي وانخلاعه من دوره كمثقف..

والحقيقة أن الرجل أسرني بخلقه، وكان يتقبل هذا الاستفزاز ويجيب بكل صراحة ويعترف بالأخطاء دون مراء أو جدال. وعندما تجاوزنا الوقت الذي حدده لنا ورجوته أن يكرمنا بوقت إضافي لبّى على حياء منه رغم ارتباطه بموعد مع صديق له والذي انضم إلينا في الحوار، ما جعلني أصارحه عند نهاية اللقاء بأنه غيّر كثيرا من نظرتي تجاه المثقف الأمريكي الذي ارتسم في اللاوعي لدي كأشقر متعجرف، تسكنه النظرة الفوقية ويلبسه شعور العظمة، مع أن الكثيرين قد يرونه مثقفاً يابانياً متأمركاً وليس أمريكياً أنجلوساكسونياً.

من أهم القناعات التي خرجت بها من اللقاء هي ضرورة دعوة مثل هؤلاء الباحثين لزيارتنا في المملكة، لا لرشوتهم أو شراء

أقلامهم كما تفعل بعض الأنظمة بسذاجة مع المثقفين العرب، بل ليتحاوروا معنا ويروا بأنفسهم حقيقتنا وأفكارنا بعيدا عن الأحكام المسبقة والصور النمطية التي يرسمونها لنا بتأثير انحياز الإعلام الغربي.

القناعة الأخرى هي ضرورة المشاركة والحرص على التواجد في مثل هذه المنتديات والالتقاء بشخصيات تؤثر في صنع القرار وبلورة الأفكار في الغرب عبر نماذجنا التي تمثل الإسلام في وسطيته وانفتاحه. وقد قال الرجل بأنهم اكتشفوا أنهم كانوا يحاورون من تعلم عندهم فقط.

بقي أن الرجل رحب بمداخلات المثقفين السعوديين وحرص على الاطلاع على رؤيتهم، وهي كوة فتحتها (الرسالة) بالرغم من قتامة المشهد وتأزمه بيننا وبينهم، علّ وعسى أن يصل صوتنا، وهو ما فعلناه كواجب وطني ومهني.

يبقى أن أوجّه شكري الجزيل لكل الإخوة المتداخلين الذين بادروا بالكتابة واستفزهم الحوار، ولأولئك الذين استجابوا لدعوتنا بالتعليق والمداخلة، وأخص بالذكر والدنا الجليل معالي الشيخ أحمد زكي يماني الذي تعمّدت أن أضع مداخلته في نهاية الكتاب ليكون مسك الختام لسجالنا مع فرانسيس فوكوياما، وإبحارنا في الفكر الغربي ونظرته وطريقة تعاطيه معنا، منوّها إلى أنني حاولت قدر استطاعتي نشر المداخلات في هذا الكتاب بحسب تاريخ ورودها إلينا.

مدير تحرير صحيفة (المدينة)

ومشرف ملحق (الرسالة) الإسلامي

المدينة المنورة - ١٤٢٦/٩/٩ هـ

بطاقة تعريف

الاسم: فرانسيس فوكوياما.

مواليد: ١٩٥٢/١٠/٢٧ بشيكاغو لأبوين يابانيين مهاجرين.

- حصل على درجة البكالوريوس في الآداب من جامعة كورنيل.
- حصل على درجة الدكتوراة في الفلسفة السياسية من جامعة هارفارد.
- شغل منصب عضو قسم العلوم السياسية بمؤسسة راند Rand Corporation أكبر المؤسسات البحثية العالمية في الفترة من ١٩٧٩ - ١٩٨٠، ثم من ٨٣ - ١٩٨٩، ثم من ٩٥ - ١٩٩٦ .
- اختير عضواً في مجلس إعداد السياسات في عهد إدارة الرئيس الأمريكي رونالد ريجان بعامي ٨١ - ٨٢، بصفته عضواً نظامياً متخصصاً في شؤون الشرق الأوسط.
- اختير عضواً في مجلس إعداد السياسات في عهد إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب عام ١٩٨٩ . بصفته نائب مدير الشؤون العسكرية والسياسية الأوروبية.

وفي عام ٨١ - ٨٢ كان عضواً في المفوضية الأمريكية التي شاركت في المباحثات المصرية - الإسرائيلية حول الاستقلال الفلسطيني.

- أستاذ السياسة العامة بمعهد السياسة العامة بجامعة جورج ماسون. ومدير برنامج المعهد للتجارة الدولية والسياسات المرتبطة بها.

obeikandi.com

- عضو الجمعية الأمريكية لتطوير الدراسات السلافية.
- عضو مجلس العلاقات الخارجية الأمريكي.
- تزوج من الأمريكية لاورا هولمجرين، وله منها ثلاثة أبناء.
- نشر كتاب الدكتور فوكوياما "نهاية التاريخ والرجل الأخير" في مطبعة "فري" عام ١٩٩٢، وقد ظهر في أكثر من عشرين إصداراً مختلفاً، وكان في قائمة أكثر الكتب مبيعاً، كما اكتسب شهرة عالمية واسعة. أما كتبه الأخرى فهي: "الثقة: الفضائل الاجتماعية وتحقيق الازدهار" (١٩٩٥)، و"الانشقاق الكبير: الطبيعة البشرية وإعادة بناء النظام الاجتماعي" (١٩٩٩). و"مستقبلنا بعد الحياة البشرية: نتائج الثورة البيوتكنولوجية" (٢٠٠٢).
- كتب الدكتور فوكوياما الكثير حول القضايا المتعلقة بالمسائل الخاصة بإدخال الديمقراطية والاقتصاد السياسي الدولي. وقد ركز جهوده، في السنوات الأخيرة، على دور الثقافة والرأسمال الاجتماعي في الحياة الاقتصادية الحديثة، وعلى النتائج الاجتماعية للتحول إلى اقتصاد معلوماتي. وكان قد كتب في الماضي بتوسع حول السياسة السوفييتية الخارجية في العالم الثالث.
- الدكتور فوكوياما عضو في مجلس الرئيس (في الولايات المتحدة) للأخلاقيات الحيوية (Bioethics)، وهو عضو في المجالس الاستشارية للمنح الوطنية من أجل الديمقراطية، و"المصلحة الديمقراطية"، و"مجلة الديمقراطية"، و"مؤسسة أمريكا الجديدة". كما أنه عضو في جمعية العلوم السياسية الأمريكية، ومجلس العلاقات الخارجية، والمجلس الباسيفيكي للسياسة الدولية، وشبكة جلوبال بزنس.

نهاية التاريخ بعد مرور ١٦ سنة على إعلانها(*)

هناك طرح يقول: ستكون هناك نهاية للتاريخ ولكنها ستكون على شاكلة الطوباوية الاشتراكية أو الشيوعية.

والملاحظة الأولى التي يمكن تدوينها: هو أن هذا الطرح ضعيف، فعندما نقارن بين بلدان العالم لا نرى أن هذا التطور سيحدث، وأنه كانت هناك عملية واسعة للتحديث، لكن هذا التحديث، فيما يبدو، لم يكن يؤدي إلى الطوباويات، ولكن إلى الديمقراطية البرجوازية كما كان يسميها الماركسيون، وهكذا رأينا بأن البديل لهذه الديمقراطية البرجوازية التي كانت شكلا من أشكال الحداثة الممكنة والتي كانت تجعل الناس أكثر سعادة خاصة فيما كان يحدث في أمريكا الشمالية واليابان وأوروبا وفي ديمقراطيات أخرى، ولكن هذا لا يعني أن الحياة في هذه البلدان مثالية، وليس فيها مشاكل اجتماعية وعدم مساواة وتناقضات، ولكن لم تكن هناك مؤسسات بديلة كانت تبدو متاحة كشكل من أشكال التجاوز التاريخي، كذلك خطاب ما بعد الحداثة الذي ينفي حقيقة التحديث لم يقيم على الوجه الصحيح، وأعتقد أن هذه مجرد هموم مثقفين، لأن الواقع والطموحات السياسية للشعوب

(*) ورقة ألقاها فرانسيس فوكوياما في ٩ أبريل ٢٠٠٥م بندوة مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بمدينة الدار البيضاء بالمملكة المغربية، وعقدت الندوة في ٩-٨ ابريل ٢٠٠٥م تحت عنوان (وجهة التاريخ: العقل وشروط الوجود الإنساني) بالدار البيضاء بالمملكة المغربية ونشرتها صحيفة المدينة السعودية.

عبر العالم هي أن تعيش كالشعوب في المجتمعات الحديثة وليس ما قبل الحديثة.

وهكذا فإننا نرى أشخاصا كثيرين ينتقلون إلى بلدان حديثة لأنهم يريدون التعليم والصحة ومستويات عيش مرتبطة بالتحديث وبالتالي ليس هناك عملية للعودة في الاتجاه الآخر.

والبروفيسور ماريا قد أشار إلى ثورة هايتي ونوع من أنواع الثورة الفرنسية التي بينت أن هناك أشكالا مختلفة هايتية أو قريبورية، فبعد ١٠٠ سنة في هايتي بعد تلك الثورات النتيجة كانت كارثية: هايتي من أضعف الدول وفيها أسوأ الحكومات، وأغلب سكانها انتقلوا إلى فلوريدا.

فلو كانت فتحت لهم فرصة لهاجر الكل.. وأعتقد أن هناك أزمة حقيقية في تلك الدول التي لم تتمكن من ركوب ذلك المصعد الذي يتمثل في عملية التحديث، أعتقد أن الشخص الذي دافع عن هذا الأمر بشكل قوي هو صمويل هنتغنتون أستاذي السابق، والذي قدم طرحا منتظما بشكل أكبر: ذلك أن المؤسسات والقيم المرتبطة بالتحديث، هذه المؤسسات والقيم ليست كونية، بل هي ثقافية ومنتج مشتق من الحضارة المسيحية التي هي قوية ومنتصرة ومتحكمة في زمام التاريخ، وأنا متفق مع أستاذي حول بعض عناصر تحليله مثلا: أعتقد أن الثقافة تبقى تكتسي أهمية، وأن الليبرالية والديمقراطية حتى تنجح تتطلب بعض التقاليد، والدعم غير العقلاني، وأن النظرة اللينينية للعالم تهيمن عليها العلوم

والحكمة الكونية، هذا الطرح لن يتحقق أبدا، بل سيكون هناك طرح غير عقلاني لإنجاح المؤسسات الاقتصادية والسياسية، كما أنني متفق مع القول الذي يرى بأن هناك فعلا تاريخيا، وأن الديمقراطيات خرجت من المسيحية، بحيث هناك توسع علماني لمفهوم المسيح لكرامة الإنسان وأنه ليس هناك بالضرورة ربط بين الديمقراطية الحديثة وبين المسيحية، وما يجعل نظرتي تختلف عن نظرة أستاذي أن هذه الأفكار التي خرجت من جزء من العالم، ومن ملابسات بعينها، ملابسات تاريخية قد تم اجتثاثها من جذورها تاريخيا وأخذت دلالة كونية أكبر، من الناحية العلمية فقد ظهرت في أوروبا المسيحية في فترة ما، وبعد إبداعها أصبحت بنوع ما ملكية للإنسان، وهي لا تختلف بين طوكيو ودكار وموسكو وأي قطر آخر في هذه الأرض، وهكذا فإن الأفكار التي تحيط بكرامة الإنسان وحقوق الإنسان هي أساس النظم التي تؤكد على المساواة والحرية، وإن كانت نصرا تاريخيا مختلفا، لكن ليس من الحق أن نقول بأن هناك تطبيقا عقلانيا لهذه الأفكار، هذا التطبيق يأتي كنتيجة لعملية تهدف إلى الربط بالتحديث، أعتقد أن هناك منطقا يربط العلوم الطبيعية الحديثة مع التنمية الاقتصادية وبشكل أضعف مع التنمية السياسية ومع نوع ما من التغيير الثقافي.

إنها آلة بنوع ما، لها محرك يحركها من طرق، وهو مرتبط بها بمجموعة من الموصلات، مما يأتي إلى المرحلة السياسية والثقافية وحين يصل إلى المسألة السياسية، فإن الموصلات بين المحرك وما يحدث على المستوى الثقافي يضعف ذلك الوصل.

سأحاول أن أبين هذه الروابط:

إن المحرك الأساسي الذي يدفع بهذه الآلة، والذي يمكننا من القول بأن هناك تاريخا كونيا، وفي الوقت ذاته ليس بالضرورة لا رجعة فيه يتعلق بالعلوم الطبيعية والتكنولوجيا المنبثقة من ذلك، وهكذا علينا ألا ننسى الاكتشافات العلمية، العالم قد أحدث معارفه من خلال الشراع والباخرة التي تمشي بالبخار، وأعتقد أن هناك لدينا البعد الأكثر كونية، فأسامة بن لادن لا بد أن يستعمل الإنترنت ليتواصل، لأن الإنترنت هو أحدث وسائل الاتصال حاليا، وهذا المحرك الأساسي يدفع بمكون التنمية الاقتصادية، وأعتقد بأن هذه التنمية الكونية ليست كونية لكن عملية التصنيع لا تختلف كثيرا من مستوى لآخر، فالصين تعرف تصنيعاً سريعاً جداً، وتنتج نفس الثقافة ونفس الاجتماعات ونفس المشاكل، تقريبا (تفكك الأسرة، البروليتاريا) ونفس المشاكل التي عرفتها إنجلترا في القرن ١٩ بخلاف الوتيرة التي تسرع بها الصين، وهكذا فهذه العملية لها آثار متعلقة بالتمدن، ومستويات أعلى من التعليم وظهور مجتمع مدني معقد وأكثر تطورا.

أما المجموعة الثانية من الروابط في هذه الآلة فننتقل إلى الجانب السياسي إلى المسائل الاقتصادية، وأعتقد أن هذه الروابط أضعف من بين الروابط المقبولة بشكل عام في تخصصي وهو العلوم السياسية، والعلوم السياسية ليست لها ذات الطابع كالعلوم الطبيعية، لأن القوانين السياسية ليست مقبولة كونيا لكني أعتقد أن من بين الروابط المقبولة نسيان الرابط بين مستوى معين من

التنمية واحتمال بروز ليبرالية ديمقراطية مستقرة، وأعتقد أن هذه الفكرة صمدت لمدة من الزمن، وهناك القليل من الدول الغنية التي ليس بها ديمقراطية ليبرالية، وإن كانت بعض الدول الفقيرة كالهند وكوستاريكا التي تقدم نموذجا ناجحا للديمقراطية لكن أغلب الدول التي لا تصنف ضمن الدول الغنية هي دول غير ديمقراطية، إذن هناك رابط، وأعتقد أن ٥٠٠٠ دولار كدخل لكل فرد هو الرقم السحري، إذن حينما يكون الدخل أكبر فإن الدولة تكون قد انتقلت من مجتمع إلى مجتمع صناعي مع ما يرافق هذا التحول من طلب أكثر على المشاركة وأيضا نسبة أعلى من المشاركين مما يؤدي إلى بروز طلب على نظام سياسي مختلف عما هو قائم في الدول الفقيرة جدا.

أما الفئة الأخيرة من الروابط فتتعلق بالاقتصاد والسياسة من جهة والثقافة من جهة أخرى، وأعتقد أن هناك آليات تؤطر هذه الروابط التي تبدو في هذا السياق أضعف.

حيث إن أشكال العلاقات التي تأتي كنتيجة لعملية التحديث هي أضعف وأكثر تنوعا، ويمكن أن نقول بأن هناك رأيا انتقده هنتغنتون يقول برؤية التدرج في إطار متعدد الثقافات ومتعدد اللغات، ومتسامح، وينتقد ذلك أنه نموذج التلاقي الثقافي الذي يأتي نتيجة التحديث المعولم.

وأنا أعتقد أنه على حق في ذلك، فاليابان كمثال إذ إنها نجحت وتمكنت من التحكم بالتكنولوجيا في المجتمع الحديث، فهي صاحبة الاقتصاد الثاني في العالم، لكن المجتمع الياباني، يبقى مختلفا تماما، والسياسة هي أيضا مختلفة عن السياسة الأوروبية

والأمريكية، أعتقد في هذه المسألة أننا لا نريد عالما يكون فيه تنميط ثقافي، عالماً منمطاً ثقافيا . وفي هذا الإطار تأتي الهوية الدينية، وأنا أتفق مع هنتغنتون في هذا المجال، وأنا أعتقد أن المجتمع الحداثي يتطلب نوعا من الفصل بين الديني والسياسي لدرجة معينة من الفصل، ليس ذلك الفصل العلماني في فرنسا أو على غرار ما يحدث في فرنسا، أعتقد أن تعاقد المجتمعات الحداثية تعاقد يجعل من غير الآمن أن تخلط بين الديني والسياسي، والأمر الذي لم يكن بدهيا في نهاية القرون الوسطى في أوروبا وهكذا ظهرت حروب دامية، وثلث سكان ألمانيا قتلوا بسبب الحروب الدينية خلال ثلاثين سنة، ولهذا فإن فكرة الدولة العلمانية الحديثة التي أخذت واستلهمت عناصر الأنوار جاءت نتيجة لتجربة مريرة واقعية بسبب السياسات الدينية، وأعتقد بأن الاستماتة تعلمناها والتي ينبغي أن ترافق المجتمعات التي تنتقل إلى الحداثة، أعتقد أن هذا هو التحدي المطروح على العالم الإسلامي. وهل سيصل هو بدوره إلى نفس الاستنتاجات؟!.

هناك مثلا أفكار أخرى: هناك دور النساء في المجتمعات الحديثة؟ هل النموذج الغربي لتمكين النساء وعمل النساء مع كل ما لذلك من آثار (تفكك الأسرة، مشاكل متعلقة بالتعليم والعلاقات الجديدة داخل المجموعات حتى في أكثر المجالات حميمية) هل هذا النموذج الغربي هو النموذج الحداثي الوحيد؟! هل هذا الأمر نتيجة فقط لتطبيق القيم الغربية للفردانية، أم إن الأمر يتعلق بتحديث أوسع واقتصاد أوسع؟!.

أعتقد أننا إذا أخذنا بعين الاعتبار التطورات التي حدثت في آسيا وفي اليابان وكوريا والصين، هذه المجتمعات تمر بنفس التغييرات التي عرفتها المجتمعات الغربية فيما يتعلق بأوضاع المرأة والأسرة والنسب، الأمر مهم جدا بالنسبة للصين، وبالنسبة لليابان.

أعتقد أن هذا التحدي يطرح مشكلات، هناك عامل ثقافي بالطبع لكن أنا لا أعتقد أساساً أن الأمر يعود إلى مجموع القيم الأوروبية المحورية، وأرى أن الأمر متصل أكثر بعملية التحديث، واسمحوا لي أن أصل إلى الانتقادات التي وجهت إليَّ وأبدأ بالشرق الأوسط والإسلام والديمقراطية.

- كانت هناك حالة استثنائية إسلامية مقارنة مع ما حدث في أمريكا اللاتينية وفي شرق وجنوب آسيا، السؤال هو: هل هذه الظاهرة ظاهرة تعكس دائما استماتة ثقافية لهذه المنطقة من العالم باتصالها مع الإسلام؟ أم إن الأمر يتعلق باستثناء حالة تاريخية.

ظهرت الجهادية والإسلام الراديكالي كثقافة غير أرضية، بل هي أيديولوجية معادية يصعب الجمع بينها وبين مشروع الحداثة الأوسع، في نظري إنني أشكك كثيرا. أيا كانت المشكلة متعلقة بالتحديث، في أن يكون الأمر متعلقا بالإسلام في حد ذاته، هناك العديد من الدول الإسلامية كتركيا واندونيسيا وماليزيا وغيرها، هذه الدول عرفت عملية تحديث اقتصادية جيدة وأنشأت مؤسسات ديمقراطية ناجحة نسبيا، والعديد من التأويلات والتفسيرات للإسلام موجودة في العالم الإسلامي، وأعتقد أن السؤال المهم في الثقافة نفسها وهو: كيف تعمل النظم الثقافية المعقدة؟ وكيف نفهم تأويل بعض التقاليد الثقافية؟!.

في اعتقادي الطريقة المناسبة لفهم ظاهرة مثل ظاهرة أسامة ابن لادن هو أن الأمر لا يتعلق بظاهرة السيادة بقدر ما يتعلق بأيديولوجية سياسية تستعمل الدين لأغراض سياسية.

إذا ما عدنا إلى سيد قطب أو حسن البنا أو الإخوان المسلمين إذا ما محصنا أفكار هذه الحركات والشخصيات سنجدهم يأخذون أفكارا عديدة من الأوروبيين الراديكاليين خلال العشرينيات، والثلاثينيات، في أوروبا الفاشية والراديكالية وتدويل هذه الأمور لا تبرز بشكل خاص من الإسلاميين بل هي أمور غربية، أفكار غربية، وبالتالي لدينا فكر يجمع أفكارا مختلفة من العالم ويقدم تأويلا معينا لها، لكن السؤال الذي يطرح نفسه: لماذا توجد هذه الظاهرة بقوة في الشرق الأوسط؟!.

لسنا في حاجة إلى تفسيرات عميقة للموضوع، هناك أسباب مباشرة تتعلق بدور (العربية السعودية) وتوفرها على المال لنصرة هذا النوع من الإسلام، هناك أيضا أسباب سياسية واقتصادية، إنني أتفق مع أوليفيه روا ومع الذين يقولون بأن هذا النوع من الإسلام يمثل حركة سياسية ضعيفة، والأماكن التي وصل فيها إلى السلطة في إيران، وأفغانستان وبطريقة مختلفة في السعودية لكن الأداء السياسي لم يكن أداء جيداً. وبالتالي فإن الخطر على المدى البعيد من رجوع الإسلام الراديكالي يعتبر خطرا أقل أهمية مقارنة مع الحركات الراديكالية الأخرى كالشيوعية والفاشية في بداية القرن.

الآن أصل إلى الانتقاد الثاني، فأعتقد أنه من بين المفاجآت بالنسبة إلي هو ذلك الشرخ الذي حدث بين الأوروبيين والأمريكيين

خاصة بعد حرب العراق حينما كتبت كتابي نهاية التاريخ، كنت أعتقد أنه كانت هناك مجموعة من القيم والمؤسسات المشتركة بين مناطق ما يسمى الحلف الأطلسي، وقد كان من المذهل أن نرى مدى تباعد الطرح الأوروبي والأمريكي خلال السنوات الأخيرة، ولا أتوقع أن ذلك سيؤدي إلى صدمة حضارية، ولا أعتقد أن الفرنسيين والألمان سيقررون في المستقبل محاربة أمريكا، ولكن أعتقد أن ضعف التوافق السياسي يتجاوز فقط الاختلاف حول سياسة بعينها أو حرب بعينها، وقد ظهر ذلك جليا من خلال العديد من القضايا ذكرها جاك دريدا في وثيقة في (الخلافات المتعلقة بالدولة الراعية، والسيادة، وشرعية استعمال القوة، والموقف إزاء الدين).. أعتقد أن هذا الأمر يلخص بالفعل الخلافات الموجودة بين منطق المجتمعين، فأمريكا دولة ليست بها اشتراكية تقريبا، وأوروبا دولة ليس فيها جمهوريون، وبالتالي فإن الأرضية المشتركة يكون فيها الحزب الديمقراطي في أمريكا والحزب الوسط في أوروبا.

أعتقد أن هناك قضايا نظرية تطرح على أساس الصراع بين أوروبا وأمريكا ويتعلق الأمر بالنسبة إلى الديمقراطية على المستوى الدولي أي إن نتيجة لمائة سنة من التنمية والمؤسسات منذ الثورة الفرنسية والأمريكية بدأنا نفهم بشكل جيد كيف نبني آليات للمحاسبة السياسية وللمساءلة السياسية، وكذلك المشاركة في هياكل عمودية بين الدول والأمم، ما لا نتوفر عليه هو آليات للمساءلة السياسية داخل الدولة الأم.. وهذا في حد ذاته مشكلة العولمة، فنظرا للتداخل الاقتصادي بين المجتمعات وكذلك الهيمنة

للولايات المتحدة الأمريكية نتيجة لكل هذا كان للموقع المهيمن آثار اقتصادية وآثار أخرى مما أثار الانطباع لدى غير الأمريكيين بأنه ليس هناك علاقة تبادلية حقيقية، وليس هناك تأثير متبادل، إني أقبل إلى حد ما بهذا الطرح، لكني أشكك بأننا نتوفر على المستوى الدولي على مؤسسات مناسبة لتقديم هذه المساءلة الضرورية أعتقد أن الأمم المتحدة ليست مناسبة لهذه المهمة، هناك مشروع تاريخي أمامنا، لا يمكن أن نعول فقط على الديمقراطية على مستوى الدولة الأم بل ينبغي أن نوسع الأمر إلى المستوى الدولي، كذلك المسألة الأخرى المتعلقة بالتنمية الاقتصادية في الدول الضعيفة، فقد حكيت لكم الآليات التي تربط التكنولوجيا والعلوم بالاقتصاد والسياسة وأخيرا تربطها بالثقافة.

تعمل بشكل جيد تلك الدول التي بدأت التنمية الاقتصادية ووصلت إلى وضع بدخل متوسط أو هي بسبب ركوبها لقطار التحديث مثل تايوان وكوريا الجنوبية والصين، هذه الدول دخلت في هذه الآلية وستقوم بتحديث معالمها.

المشكلة تطرح بالنسبة للدول الفقيرة، أعتقد أنه أصبح واضحا أننا بحاجة إلى نوع من السياسات لتحقيق التنمية السياسية والاقتصادية، والأحداث التي عرفتها جنوب شرق آسيا تثبت أن هناك دولا تعمل بشكل جيد قبل فترة الحداثة وأعطاها ذلك مزية مهمة بالمقارنة مع دول جنوب الصحراء، المشكلة القائمة حاليا أن هناك مجموعة من الدول لا يمكن أن تصعد السلم الحداثي ولا حتى الدرج الأول منه نظرا لمشاكل مؤسساتية قوية،

وجزء من هذه المشاكل التي يطرحها النموذج الغربي هو أننا لا يمكن أن نفهم كيف يمكن أن ننقل هذه المؤسسات، ولا أعتقد أن الأمر يتعلق فقط بالنقل، بل الأمر يتعلق بمؤسسة ينبغي أن تنمى محلياً وإلا فلن تعمل بشكل جيد.

إذن المشكلة كبيرة وتتعلق بالأرض برمتها بحيث إذا لم نتمكن من إطلاق عملية التحديث الاقتصادي، فإن العديد من الفرص الأخرى سواء كانت سياسية أو ثقافية في إطار الديمقراطية الليبرالية لن تتاح، وسيكون من الأصعب أن نضمن استدامتها.

هذه أطروحتي وهذا رأيي، وأنا سعيد بينكم.

فرانسيس فوكوياما

obeikandl.com

المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما في حواره مع (الرسالة):

على الولايات المتحدة أن تبقى بعيدة عن الإسلام وأي تغيير فيه يجب أن يتمّ عبر المسلمين فقط.

■ العيش في مجتمع ليبرالي لا يعني أنك لا ترتكب أخطاء أو تنتهك حقوق الإنسان.

■ المعركة الكبرى القائمة الآن ليست بين الغرب والإسلام ولكنها داخل الإسلام نفسه.

■ حادثة ١١ سبتمبر أفرزت كثيراً من التيارات غير المفهومة في كثير من أنحاء العالم.

■ لقد أردنا أن نخرج السوفييت من أفغانستان ولكننا بدلاً من ذلك خلقنا هناك (وحشاً).

■ لا أحمّل السعودية المسؤولية لما حصل في أفغانستان، وأعترف بأن ما حصل منا في أفغانستان خطأ كبير.

■ أنا لست متخصصا في شؤون الإسلام أو السعودية أو الشرق الأوسط ولذلك لا تأخذوا مستوى معرفتي بهذه الأشياء كمؤشر صحيح.

■ اكتشفنا بعد ١١سبتمبر أننا كنا نتعامل كأمريكيين مع المثقفين السعوديين الذين تعلموا لدينا فقط.

(*) نشر الحوار بملحق (الرسالة) بصحيفة المدينة السعودية بتاريخ ١٤٢٦/٣/١٣هـ الموافق ٢٢ ابريل ٢٠٠٥ م.

■ إذا لم تكن لديك الحرية السياسية فلن تكون لديك الحرية الثقافية ولا الحرية الاقتصادية.

■ لا أجد أي بدائل قوية للديمقراطية الليبرالية في المجتمعات الحديثة على الأقل.

■ الجميع يعرف أن الحكومة السعودية لا تمول أو تدعم الإرهاب.

■ المجتمع السعودي مجتمع سهل وغير مغلق.

■ شاركت في الرد على وثيقة المثقفين السعوديين.

■ الولايات المتحدة تفقد مصداقيتها بما تفعله في جوانتانمو.

■ اليابانيون يؤيدون الاستفادة من التقنيات الغربية لكنهم يحافظون على قيمهم وعاداتهم.

■ أنا لست من أنصار القوة المفرطة لفرض الديموقراطية.

■ لم نستطع أن نفعل شيئا لفرض قيمنا وخياراتنا في الصين.

- أجرى الحوار: **عبدالعزيز قاسم** مدير تحرير صحيفة (المدينة) السعودية.
- وقام بالترجمة: **د.عزت خطاب** أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة الملك سعود.

في حوار خاص على هامش ندوة مؤسسة الملك عبدالعزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء والتي أقيمت في الفترة من ٨-٩ ابريل ٢٠٠٥م، التقت (الرسالة) مع المفكر الأميركي الشهير فرانسيس فوكوياما عقب إلقائه ورقة في الندوة كانت بعنوان (نهاية التاريخ بعد مرور ١٦ سنة على إعلانها) وتحدث فيه عن دور السعودية في دعم الإسلام الراديكالي بزعمه، ما جعلنا نطلب من الأخوة المسؤولين عن الندوة الالتقاء والحوار معه، محاولة منا لتصحيح بعض الصورة النمطية لديه عن الإسلام والسعودية وإسماعه ما لدينا تجاه الأفكار الخطيرة التي طرحها عنهما. الحوار حضره الدكتور عزت خطاب أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة الملك سعود والذي قام مشكورا بالترجمة، وكذلك الدكتور إبراهيم البلوي الأكاديمي بنفس الجامعة والدكتور محمد الصغير جنجار نائب الأمين العام لمؤسسة الملك عبدالعزيز. وقد حفل الحوار ببعض الأسئلة من الدكتورين الفاضلين، وفيما يلي نص الحوار:

✍ ***لنبدأ حوارنا بالحديث عن موقف المثقفين الأمريكيين ورؤيتهم للإسلام. نحن نعاني كثيرا مع الغرب في ازدواجية الرؤية هذه، فثمة تنميط ومحاولة متواصلة من السياسي والإعلامي الغربي لترسيخ صو٦٧لام (ابن لادن) على حساب إسلام متسامح ومعتدل يدين به معظم المسلمين. بودي استشراف رؤيتكم وكيف تنظرون إلى الإسلام وموقفكم منه؟***

– أنا أنظر للإسلام كأي نظام ثقافي معقد في أنه يملك تاريخا طويلا جدا، وله الكثير من الطبقات والمستويات المختلفة من

الأفكار، وأعتقد أنه كأي نظام ثقافي قابل لأن يفسر بطرائق متنوعة تماما، ورأيي أن الأيديولوجية الجهادية التي يروج لها ابن لادن هي أيديولوجية سياسية في الأساس، وأن ابن لادن يمثل مجموعة صغيرة نسبيا. يبدو لي أن في السعودية دائرة واسعة من الناس الذين يشتركون في خيار متطرف من عدم التسامح وهذه مشكلة. بعضها ليست أيديولوجية ابن لادن لكنها تمثل شكلا من أشكال (عدم التسامح في الإسلام)، وأنا أعلم أن كثيرا من السعوديين لا يشاركون في هذا الخيار، لكن المجتمع السعودي منقسم على نفسه في جوانب أساسية. وإذا تجاوزت السعودية فستجد طرائق مختلفة كثيرة في تفسير نفس النصوص القرآنية، لذلك لا أرى مبررا لجعل التعاليم الإسلامية مختلفة عن النظم الثقافية الأخرى التي تتعرض للتغيير بتغير الأحداث. هناك مثل ضربته في محاضرتي اليوم مثلاً عن العلاقة بين الدولة والكنيسة في العالم المسيحي، فهي ليست من الأمور المسلمة، فالأوروبيون اليوم يقولون إن هناك انفصالا تاما بين الدولة وبين الكنيسة وهذا غير صحيح، فمنذ نهاية العصور الوسطى استغرق إقناع الأوروبيين بالفصل بين الدول والكنيسة استغرق فترة طويلة امتدت طيلة القرون الوسطى لإقناع الأوربيين بأن هذا الفصل يجب أن يتم. كثير من هذه الأشياء والاعتقادات أمور غير ثابتة بحيث لا تتغير داخل المناقشات الدينية.

✍ ***وإذن سيد فوكوياما، ما الذي يمكن أن تقترحه لنا لتصحيح صورة الإسلام لديكم في الغرب، وطالما، باعترافك، أن المقتنعين بإسلام (ابن لادن) هم قلة؟***

- حسناً أولاً وقبل كل شيء لا أعتقد أن هذه مسألة تتعلق بنا في الغرب أو بالعلاقات العامة، لا أعتقد أنها مسألة تتعلق بمحاولة تسويق المملكة العربية السعودية إلى الجمهور الغربي. حاولنا أن نفعل ذلك في سياساتنا في الشرق الأوسط ولم ينجح مسعانا كما ينبغي. أعتقد أن أكبر معركة قائمة الآن حقيقة هي ليست بين الغرب والإسلام، ولكنها معركة داخل الإسلام حول طرق تفسير التقاليد الدينية وأعتقد أن أكثر الأشياء إقناعاً والتي يمكن أن تقوموا بها في مواجهة الجمهور الغربي هو أن تدخلوا في تلك المعركة، وأعني أن يكون التفسير قائماً على التنافس والانفتاح لأنني أعتقد أن واحداً من الأشياء التي تقلق العديد من الأشخاص في الغرب أنه في وجه التحدي الجهادي لم يكن هناك أعداد كافية من الناس داخل المملكة العربية السعودية وداخل الدول الإسلامية الأخرى ممن يعترضون حقيقة على ذلك، ويدخلون في معركة أيديولوجية.

ويبدو أنهم يتخوفون وبصورة ما من أنهم يسايرون الموقف الغربي. لكن أعتقد أن ذلك سيكون من أكثر الأمور إقناعاً وأنه حقاً يمكن القيام به في المجتمع السعودي.

د. خطاب: ولكن سيد فوكوياما، لا بد أنك لا تعلم بأن بعض الغلاة في التيار الديني لدينا في السعودية حجّموا إلى حد كبير. في هذا الإطار يبدو أن الغرب لا يدري بما يحصل داخل السعودية.

- ربما يكون هذا صحيحاً.

✍ **د. خطاب: دعني أضرب لك مثلاً، بأن هذا اللقاء الذي يجريه الزميل قاسم ربما لم يكن في الإمكان نشره قبل بضع سنوات، ولكن الآن يستطيع نشر حديثك بكل يسر وبدون خوف. التجاذبات قائمة.**

- لكننا لا نسمع عنها شيئاً.

✍ **قاسم: لهذا أتمنى عليك سيد فوكوياما زيارة السعودية كي يكون حديثك أكثر موضوعية وعلمية. فضلا عن أن التقاءك بالنخب الثقافية السعودية سيغير كثيرا من الصورة النمطية لديك عن وطني بصورة أكثر توازنا وموضوعية.**

- بالطبع ما قلته صحيح وأنا أرحب بهذه الدعوة، ولكني لمشاغلي الكثيرة لا أستطيع أن أعد أو أحدد موعداً من الآن لهذه الزيارة، ولكني أرحب جداً بالدعوة.

✍ **د.خطاب: أناس بحجمك وفكرك عندما يأتون إلينا، فإنهم حتما سيرون السعودية على حقيقتها. نتمنى أن مجموعة كبيرة من ذوي التأثير في الفكر الغربي والسياسي أن يأتوا لزيارة المملكة، ونحن نتذكر صموئيل هنتنجتون الذي زار السعودية قبل سنوات في مهرجان الجنادرية، وكثير من هؤلاء كانوا ينتقدون السعودية ولكن عندما أتوا ورأوا الحقيقة بأنفسهم تغير كثير من انطباعاتهم المسبقة.**

- أنا أتمنى الذهاب للسعودية وأرى بنفسي. أعتقد بأن حادثة ١١ سبتمبر أفرزت كثيرا من التيارات غير المفهومة في كثير من أنحاء العالم، من الأهمية بمكان أن يكون للإنسان تجربة مباشرة في هذا الموضوع.

• السعودية والسلفية الجهادية

✍ ***قاسم: أستأذنك بالعودة لأسئلة الحوار، فقد سمعتك اليوم تشير في محاضرتك بمؤسسة الملك عبدالعزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، بطرف خفي لدور السعودية في خلق وترويج السلفية الجهادية. بودي هنا تسجيل رؤيتك بشكل صريح؟***

- في ما يتعلق ببلدي الولايات المتحدة، فإننا اكتشفنا أن كثيرا من الوزارات والبعثات الدعوية السعودية تعمل داخل الولايات المتحدة، ومن الأشياء التي اكتشفناها مثلاً وجود جهد سعودي كبير لتمويل كثير من رجال الدين الذين هم في السجون الآن، وهم من الأمريكيين ذوي الأصول الإفريقية الذين اعتنقوا الإسلام، وبعض هذه الجهود مقلقة لأن نوع الإسلام الذي اعتنقه هؤلاء بواسطة البعثات ليس معاصراً لكنه نسخة متطرفة. في المقابل أنا أعلم أن السعوديين يموّلون كثيرا من المشاريع الايجابية في كثير من أنحاء العالم وكمثال على ذلك هذه المؤسسة هنا في المغرب التي لا يمكن أن نصفها بأنها غير متسامحة وهذه أعتقد ليست تجربة موجودة في كثير من أنحاء العالم.

✍ ***أليس من المغالطة العلمية أو أبعد من ذلك.. نفاق المثقف، واعذرني على هذا التصوير، غضّ الطرف عن الدور الأمريكي في أفغانستان ودور المخابرات المركزية الأمريكية (السي أي أيه) في تخليق هذه السلفية الجهادية، التي اتهمت فيها بلادي اليوم في محاضرتك، عبر دعمها ابن لادن في أفغانستان؟***

- كثيرون من الأمريكيين يعتقدون بأننا ارتكبنا خطأ كبيرا في أفغانستان. لقد أردنا أن نخرج السوفييت من أفغانستان ولكننا بدلا من ذلك خلقنا هناك وحشاً، والآن هناك اعتقاد بأنه لو أننا نبدأ التجربة من جديد لاستخدمنا تكتيكاً مغايراً في ذلك الصراع، وأنا لا أحمّل المملكة العربية السعودية المسؤولية لما حصل في أفغانستان ولا أعتقد أن كثيرين من السعودية يتوقعون هذه النتيجة التي أدت إلى ظهور الايديولوجية المتطرفة الجهادية ويجب عليّ وبكل أمانة أن أعترف بأن ما حصل في أفغانستان خطأ كبير وتكرر الولايات المتحدة نفس الخطأ في العراق حيث تساهم في خلق إرهابيين جدد، أعتقد أن هذا خطأ أيضاً أنا شخصياً لم أكن أحبذ الحرب لأنه وبمجرد أن تبدأ الحروب يكون لها دائما نتائج غير متوقعة لا نراها في البداية، وأعتقد أن الإدارة الأمريكية وهي تسعى لوأد الإرهاب في العراق قد أنشأت في واقع الأمر إرهاباً أكبر. لقد ارتكبنا أخطاء بالفعل وعلينا تداركها وتصحيحها.

✍ ***أنتم المحتم في محاضرتكم اليوم إلى علاقة بين المملكة وظاهرة الإرهاب الموجودة الآن. لا أدري يا سيد فوكوياما كيف تفسرون وجود حركات إرهابية في الداخل السعودي تستهدف السعودية ذاتها.. هل أنتجت السعودية الظاهرة لتحارب بها نفسها.. هل يستقيم هذا التحليل منطقيا؟***

- عندما يتهم الناس المملكة بتمويل الإرهاب فإنهم لا يتهمون الحكومة السعودية، فالكل يدرك أن الحكومة بالطبع لا تريد

دعم أو تمويل الإرهاب، ويبـــدو أن ابن لادن يكره الحكومـــة السعودية والعائلة المالكة أكثر من الأمريكيين، حتى أعتقد أن الجميع يدركون ذلك، ولكن المشكلة أنه في السعودية يوجد أناس يريدون تمويل الإرهاب والحكومة لا تستطيع السيطرة عليهم.. هذا ما نفهمه في الولايات المتحدة ولذلك سؤالنا هو ما الذي سيحدث في المستقبل. هل هذه مشكلة يمكن حلها دون خلق أزمات داخل المجتمع السعودي؟ نعلم أن أنصار التطرف نسبياً يملكون قوة وليس من السهولة درؤهم.

✍ ***أستشرف هنا نظرتك كمثقف أميركي تجاه التيار الإسلامي في السعودية. هل هم في نظركم جميعا في سلة واحدة أم ثمة فرز لديكم تجاههم؟***

– بداية أنا لست متخصصا في شؤون الإسلام أو الشرق الأوسط السعودية، ولذلك لا تأخذ مستوى معرفتي بهذه الأشياء كمؤشر صحيح. بصفة عامة أعتقد أن من المشكلات التي تواجه الولايات المتحدة هو عدم وجود خبراء في هذا المجال والموجودون منهم ليسوا أكفاء بالدرجة المطلوبة.. صانعو القرار في الولايات المتحدة ينظرون للسعودية كصندوق أسود.. لا نفهم في الحقيقة المدارس والانقسامات والتفسيرات والاختلافات المتعددة عندكم، ولا نفهم التغيرات المختلفة للإسلام في السعودية.. هذه مشكلة يجب حلها. شخصيا أعتقد بأن المجتمع السعودي هو من أسهل المجتمعات التي تسمح بالدخول إليها والتعرف عليها وليس بمجتمع مغلق.

obeikandi.com

أولا أشكر لك هذه الروح العلمية في اعترافك بعدم التخصص، وأستتبع شكري بسؤالك عن مدى اطلاعك على كتب أو أفكار لمثقفين سعوديين أو شيء من أعمالهم؟

- كان لنا حوار مع المثقفين السعوديين في ذلك الخطاب الذي كتبوه ورددنا عليه بعد أحداث ١١ سبتمبر وقد شاركت في كتابة الرد على ذلك الخطاب. وتلك كانت وثيقة تاريخية. ولكن دعني، أقل شيئاً آخر، إحدى المشكلات في الطريقة التي تعاملت بها الولايات المتحدة مع السعودية هو اعتقاد الأمريكيين بأنهم يعرفون المملكة ولكنهم كانوا يتعاملون فقط مع المثقفين السعوديين الذين تعلموا في الولايات المتحدة والذين يتقنون اللغة الإنجليزية وهم النخبة الذين يعملون في صناعة البترول وفي القوات المسلحة وفي السياسة. وهذا هو الاحتكاك الوحيد بين الولايات المتحدة والسعودية وهناك قلة قليلة من الأمريكيين الذين استطاعوا أن يخترقوا المجتمع السعودي. والسبب هو أن الأمريكيين لا يتحدثون اللغة العربية بشكل كاف حتى يستطيعوا أن يقوموا بذلك الاختراق للأطياف المختلفة من المجتمع السعودي بسهولة. ولذلك أرجو ألا تأخذ مرة أخرى ما أعرفه عن المملكة كمؤشر على أي شيء. والآن نحن لدينا مشكلة أعمق فليس لدينا خبراء يعرفون ما يحصل في المجتمع السعودي عن طريق اتصالاتهم به.

obeikandl.com

● صورة تفتقد العلمية

✍ ***د. البلوي: بعض الناس ممن يأتون إلى المملكة يؤلفون كتبا عنها ويتحدثون كخبراء رغم أنهم لم يمكثوا فيها إلا أسبوعا أو أياما قليلة.. هؤلاء ينقلون صورا نمطية ومغلوطة عن المملكة فلماذا في رأيكم تحدث هذه المؤلفات ذلك التأثير الكبير في الأوساط الغربية؟***

- نحن لدينا سوق حر مفتوح للأفكار. دعني أضرب لك مثالاً، لدي طالب في جامعتي انتهى لتوه من كتابة أطروحته للدكتوراة وهو متخصص في الصين وكتب أطروحة مهمة عن مقارنة التعليم الخاص بين إحدى أغنى المناطق في الصين وبين إحدى أفقر المناطق الصينية الداخلية وحتى يقوم بأبحاثه عاش لفترة سنتين في واحدة من أفقر المناطق الصينية، وكان يجيد اللغة الصينية وعاش مع عائلة صينية وتعرّف على كثير من المسؤولين المحليين، وأنا لا أعلم عن أي أمريكي عاش في ظروف مماثلة داخل المجتمع السعودي، حتى يتعرف على المجتمع السعودي من داخله. ويستطيع أن يطور هذا النوع من الخبرة. أنت على حق، ما يعرفه الأمريكي العادي عن السعودية من الكتب التي يؤلفها أناس ذهبوا للمملكة لبضعة أيام هي معرفة خاطئة.

✍ ***د. البلوي: أشرتم في كتابكم عن الوهابية وحركات الجهاد، ولكن هل كان لديكم المعرفة الكافية للكتابة عن هذه الأمور؟***

- لم أتعرض لذلك في كتابي، ولكن أشرت للوهابية وحركات الجهاد في محاضرتي لقد بذلت مجهودا كبيرا للقراءة والتعرف

على هذه الأمور، وسأواصل ذلك بالإنجليزية طبعاً لأنني لا أتحدث العربية، فمثلاً أعمال سيد قطب ترجمت للإنجليزية ومؤخراً فيما هو واضح أعمال أشخاص مثل الخميني رغم أن هذا تيار آخر مختلف وأنا لست متخصصاً في هذه الدراسات.

واعتمدت على دراسات عدد من المثقفين والأكاديميين اللامعين في هذه المسائل مثل مفسري الإسلام من الخبراء الفرنسيين وغيرهم.

✍ ***د.خطاب: هل قرأتم لإدوارد سعيد؟ وهل أحدثت هذه القراءة تغييرا في أفكاركم عن الإسلام؟***

- أعتقد أن كتابات إدوارد سعيد كانت تهدف لنشر "أجندة سياسية" بصورة خفية تدل كتاباته على أنه غاضب بشدة من الطريقة التي ينظر بها الغرب للتقاليد الشرقية.. أنا أحترم ذلك ولكنني أعتقد أنه بالغ فيها قليلا.

● الليبرالية الجديدة وانحراف الرؤية

✍ ***قاسم: تعددت تعريفات الليبرالية ونحن الآن أمام مصطلح (الليبرالية الجديدة).. هل تعتقدون بتطور مفهوم الليبرالية التي تكاد أن تنخلع من أصولها وأسسها التي انطلقت منها؟***

- قدمت اليوم في المؤتمر الباحثة الألمانية زيميلين بحثا وحديثاً طيباً. هناك ليبرالية اقتصادية وأخرى سياسية، ومن الواضح أنه ليس من الضروري أن يواكب واحد الآخر. الليبرالية السياسية

ليست ضد الدولة ونشاطها ولكنها تعتمد على قيم تحد من قوة الدولة وتأثيرها على اختيارات الأفراد التي عبروا عنها.. هناك العديد من المعارك داخل الليبرالية ذاتها واحدة منها تخص حدود خيارات الأفراد وأخرى حول حدود المجتمع، وهي منتشرة في أوروبا وهي كيفية التعامل مع الأفراد، هل يتم هذا التعامل لكونهم أفرادا مستقلين بحق أم كأفراد من المجتمع، وهل الحرية تعني حرية المجتمعات أم حرية الأفراد؟ هذه هي القضايا النظرية التي يتم التركيز فيها.

✍ ***ولكن سيد فوكوياما واقع الليبرالية الآن وتطبيقاتها وخاصة السياسية يشير إلى بؤسها في مجالها الحيوي وهو الحرية وحقوق الإنسان.. ما رأيكم؟***

- لا أفهم ماذا تقصدون بخصوص عدم احترام الحرية وحقوق الإنسان.

✍ ***في فلسطين والعراق مثلاً..***

- لنأخذ حالة العراق.. تعتبر أعمال التعذيب والانتهاكات التي وقعت هناك فظيعة مرعبة، ولكن أحد الأشياء التي ينبغي معرفتها هو أن معظم الأمريكيين يرونها بالفعل مرعبة وكل الجهات القضائية هناك في أمريكا ضد هؤلاء الناس الذين ارتكبوا أعمال التعذيب.. إنك تقول أنك تعيش في مجتمع ليبرالي لا يعني أنك لا ترتكب أخطاء أو تنتهك حقوق الإنسان أبداً ولكن السؤال من هو: هل لديك مجموعة من الإجراءات

المؤسسية التي نطلق عليها سيادة القانون تأخذ على عاتقها آلية التصحيح عندما تحدث مثل هذه التجاوزات أم لا؟ وأعتقد أن هذه الآلية موجودة.

✍ ***د.خطاب: ولكن لماذا تستثنى أو تحاول أمريكا أن تستثني جنودها الذين ارتكبوا جرائم حرب مثلاً من المحاكمة؟***

- لا أعتقد ذلك.. الكثير من الجنود الأمريكيين مثلوا أمام محاكم عسكرية..

✍ ***د. في داخل الولايات المتحدة وليس خارجها.***

- لا.. لقد مثلوا أمام محاكم خارج الولايات المتحدة أيضاً.. منذ أسابيع قليلة اتهم جندي أمريكي بقتل سجين عراقي ومثل أمام محكمة بالعراق.

✍ ***المطالبة بضرورة تقديم الجنود الأمريكيين المتهمين للمحاكمة الجنائية الدولية؟***

- هذا موضوع آخر.. الولايات المتحدة تخشى أن يستغل من الأوروبيين هذه المحكمة لمحاكمة حالات القتل الحقيقية وهو هدف هذه المحكمة الحقيقي ولكن محاكمة الجنود الأمريكيين المتهمين كورقة ضغط سياسية تستهدف السياسة الأمريكية ذاتها. والولايات المتحدة ضالعة في مسائل أمنية في العديد من البلدان حول العالم، والأوربيون لا يقومون بذلك ولهذا السبب يعارضون المحكمة الجنائية الدولية.

obeikandl.com

• تبرير المثقف للسياسي

✍ قاسم: ذكرت في محاضرتك أنه لا بد أحياناً من طرح غير عقلاني لكي تنجح المؤسسات السياسية لفرض القيم الليبرالية.. هل أفهم أنكم تبررون للسياسي ديكتاتوريته؟.. وأيضاً أليس هذا نوعاً من الردة لدورك كمثقف يفترض به الوقوف مع الحرية والمبادئ والقيم؟

- لا، هناك سوء فهم أيضا. الفكرة هي أن الديموقراطية الليبرالية الناجحة تتطلب عادات ثقافية معينة مثل الرغبة في التوصل لحلول وسط والرغبة في مناقشة الأمور بدلاً من اللجوء للعنف.. هذه أشياء مطلوبة وضرورية لخلق مجتمعات ديموقراطية، ولكن الأمر الذي يدفع الناس للتصرف بهذا الشكل ليس حسابات علمية منطقية لمصالحهم الشخصية، وإنما يعتمد ذلك على تفسيرات الدين أحياناً وعلى العادات التاريخية أحياناً أخرى وكذلك على أمور مثل الاعتزاز بالوطن.. وكل ذلك ليس بالضرورة أن يكون منطقياً وعقلانياً تماماً.

✍ د.البلوي: في حديثكم عن الديموقراطية حاولتم إرجاع أصولها إلى المسيحية فقط والحضارة المسيحية وسلب منها حقها التاريخي في أصولها الإغريقية وكذلك في الحضارة الإسلامية.

- في حديثي عن الديموقراطية كنت أشير إلى التطور التاريخي للنظرية الديموقراطية وأعتقد أن هناك علاقة بين التعاليم المسيحية القائلة بالمساواة الشاملة بين البشر والتي أخذت شكلاً علمانياً في وقت ما في التاريخ الأوروبي والديموقراطية.. أعتقد

أنه في الإسلام لديكم تعاليم مشابهة، فالإسلام ديانة شاملة فيه المساواة بين كل البشر أمام الله وفي هذا الخصوص لا أرى أي اختلاف بين المسيحية والإسلام.. وإنما فقط التحول من التعاليم الدينية إلى العلمانية ذي التأثير أو الصبغة السياسية حدث في أوروبا ولم يحدث بنفس القدر في العالم الإسلامي.

✍ ***قاسم: هل توافق كمثقف أمريكي على أن تعمم الولايات المتحدة إسلاما بمقاييسها منبثقاً من قيمها لتطبيقها قسراً على الدول الإسلامية؟***

- لا أعتقد أن باستطاعة الولايات المتحدة أن تقول أي شيء عن الإسلام، وأعتقد أن أي تغيير في الإسلام يتبغي أن يحدث من المسلمين أنفسهم، وكما قلت في البداية الصراع الداخلي في الإسلام هو الصراع الأكبر وعلى الولايات المتحدة أن تبقى بعيدة لأنه ليس من سلطتها التحدث باسم العقيدة الإسلامية.

✍ ***قاسم: ولكن التصريحات المتواصلة للمسؤولين الأمريكيين وعلى رأسهم وزيرة الخارجية كونداليزا رايس بضرورة الالتزام بالنهج الأمريكي أو ما نسميه بالأمركة القسرية من فرض قيم الأميركي على الجميع. الا يعتبر ذلك أمراً يناقض قيم الليبرالية التي تنادي وتدعو للحريات؟***

- إذا كانت القيم الأمريكية قد سادت في مكان ما فلا يعني ذلك أن أمريكا قد أجبرت الناس عليها، وإنما لأن هناك جوانب تمثل الثقافة الأمريكية لهذه القيم.. عندما خرجنا اليوم وجدنا مطعماً

كبيراً من سلسلة مطاعم ماكدونالدز الأمريكية.. لماذا يوجد هنا؟ هل لأن السفير الأمريكي أمر بإنشائه؟ لا، ولكن لأن المغاربة يحبون أن يتناولوا طعامهم فيه.. أنا لست فخوراً بذلك كرمز للثقافة الأمريكية ولكنه شيء أمريكي يحبه الناس، أعتقد أن هذا يشير إلى انفعال الناس في الشرق الأوسط بهذه الثقافة بدلاً عن الحديث عمن أجبرهم ليفعلوا ذلك.

✍ ***د.خطاب: ما يقلقنا في المنطقة هو رؤية المسؤولين في الإدارة الأمريكية ومنهم دونالد رامسفيلد وزير الدفاع وحتى الرئيس بوش نفسه لكل شيء من المنظور الأمريكي وليس من منظور الشعوب الأخرى.***

- أنا لست من أنصار استخدام القوة المفرطة لنشر الديمقراطية، في الواقع إن مفهوم الديمقراطية نفسه ينبئ بعدم قدرة أحد على فرضه على مجتمع آخر، فالديمقراطية تعني الاختيار الشعبي، وإذا لم يرغب الناس في المجتمع في الديمقراطية فلن تحدث. ولذلك لا أعتقد أن هذا موضوع يسبب لكم القلق. والولايات المتحدة ليس لديها القوة الكافية لفعل ذلك.. إذا كان هناك نشر للديمقراطية فسيكون ذلك لأن الناس في المجتمعات المختلفة يريدون الديمقراطية ويريدون لها أن تنجح.. وإذا لم يكونوا راغبين فيها فالولايات المتحدة لا تستطيع خلقها، ذلك هو الواقع في المجتمعات المختلفة وفي العراق أيضاً. فإذا لم يكن الشعب العراقي يرغب في الديمقراطية على النموذج الغربي كلية فلا تستطيع الولايات المتحدة فرضها عليهم.

د.خطاب: واستعراضكم للعضلات والقوة الاقتصادية مع الصين لانتقادكم لحقوق الإنسان داخلها؟

- لم نستطع أن نفعل شيئاً.

د.خطاب: ولكنكم فعلتم ذلك مع كوبا؟

- كوبا قصة مختلفة.. فهي حليف عسكري كان وثيق الصلة بالاتحاد السوفييتي السابق، ولذلك فالتعامل مع كوبا له وضعية خاصة. نحن لم نجبر الصين لمراعاة حقوق الإنسان، صحيح أن لدينا شكاوى ضد العديد من الدول في الكثير من الأوقات. لكن أعتقد أنه ما لم يقم الناس بأنفسهم بتغيير هذا في مجتمعاتهم فلن يحدث شيء.

• الإسلام والحداثة

قاسم: ذكرت في محاضرتك صعوبة الجمع بين مشروع الحداثة والإسلام الراديكالي بتعبيرك. ما هو النموذج الذي ترونه مناسباً للانسجام مع مشروع الحداثة الذي تنادون به؟

- أنا لا أملك بدائل للحداثة لأنني أفضل وأحب هذا المشروع ولكن المشكلة أن الحداثة في رأيي تعتمد على التنوع والحرية، فإذا نظرنا للإنجازات التقنية فسنجدها مبنية على جهود العلماء الذين كانت لهم كامل الحرية في استكشاف الجديد والتفكير حتى ولو كانوا يهددون تعاليم دينية.. مثلاً في الولايات المتحدة الآن هناك جدل واسع حول خلايا الخلايا الجذعية لأنه فرع من

الأحياء يدمر الأجنة ويثير ذلك غضب المتدينين.. ولكنني أعتقد أن في المجتمعات الحديثة أن طرق الحرية المختلفة يجب أن تساير بعضها بعضا .. فإذا لم تكن لديك الحرية السياسية فلن تكون لديك الحرية الفكرية ولا الحرية الاقتصادية أيضاً. فإن إنتاج العلوم الحديثة والازدهار سيتضرر وفقاً لذلك.

✍ ***ذكرتم أيضاً في محاضرتكم التخوف من الإسلام الراديكالي ولمحتم إلى أنه أكثر خطورة من الشيوعية..***

- لا، حدث سوء فهم. أعتقد أن الإسلام المتطرف أقل خطراً من الشيوعية لأن الشيوعية كانت تجذب أناساً في العالم كله، ولكن الإسلام المتطرف يجذب فئة من المسلمين، وأعتقد أنه في المستقبل لن تنجح هذه الفئة في إنشاء أوضاع سياسية مستقرة.. في الولايات المتحدة هناك تخوف من العلاقة بين الإسلام المتطرف وأسلحة الدمار الشامل.. فإذا وصلت هذه الأسلحة لابن لادن فسيسبب ذلك دماراً كبيراً.. ولكن في كل الأحوال ظلت الشيوعية تمثل خطراً أكبر كأيديولوجية وحركة سياسية.

✍ ***هل ترون محاربة الإسلام الراديكالي بالقمع والتهديد بجوانتنامو وتأليب الحكومات على المتطرفين.. أم ما هو الحل في رأيكم؟ هل توافقون على ما تفعله الولايات المتحدة من تلك الأعمال؟***

- لا.. أعتقد أن ما يحدث في جوانتنامو نوع من رد الفعل المبالغ فيه، قامت به الولايات المتحدة، وفقدت الولايات المتحدة الكثير من مصداقيتها السياسية بمعاملة المسجونين بهذا النحو.. فهذه

المعاملة لا تستحق أي مكاسب تحققها الإدارة بانتهاجها هذا الأسلوب.. هذا خطأ في السياسة، وأعتقد أن النظام القضائي العادل في أمريكا هو الكفيل بحل هذه المشكلات.. هناك نظام موجود ولا يستطيع أن يقف رئيس الولايات المتحدة ويقرر بمفرده طرق معاملة المسجونين.. ومنذ شهر قريبة قررت المحكمة الدستورية بعدم قانونية احتجاز بعض الأشخاص.

• نظرية نهاية التأريخ

✍ ***كثير من الباحثين يرون أن نظريتكم نهاية التاريخ ما هي إلا أصداء لكتابات أستاذكم صمويل هنتنجتون في صدام الحضارات.. كيف تعلقون على ذلك؟***

- لا، أعتقد أن الأمر مختلف تماماً لأن هنتنجتون لا يؤمن بوجود قيم كلية شاملة أو أفكار سياسية كلية وأنا أجزم بوجودها. أفكار الديمقراطية والديمقراطية الليبرالية ليست عالمية الآن ولكن أعتقد أن هذه الأفكار كعملية سيرورة والناتج عنها في المجتمعات الحديثة سيتم قبولها، وهنتنجتون لا يؤمن بذلك. أعتقد أن كل المجتمعات غير الغربية عندما تواجه القوة الغربية فإنها سيكون لديها نفس المشاكل التي يعاني منها العرب والمسلمون وسيكون لديها ميل لرفض الأفكار الغربية وذلك موجود في الصين واليابان وأدى لصراعات داخلية.. ففي اليابان على سبيل المثال يؤيد اليابانيون الاستفادة من التقنيات الغربية والأمريكية ولكنهم يحافظون على القيم والعادات اليابانية.

وهذا الاتجاه وهذه النزعة موجودة هناك ويحاولون إنشاء نظام سياسي في الشرق الأقصى يستند على القيم اليابانية وقد هزموا في ذلك لكنهم عندما هزموا لم يستمروا في المقاومة بل بدأوا بالمنافسة اقتصادياً وليس عسكرياً.

✍ تعرضت نظريتكم لانتقادات حادة وخصوصاً أنكم لا تفسرون التاريخ بقدر ما توجهونه في مسار معين، وكأن الايديولوجية لديكم قد غلبت على العلمي المحايد.. ما تعليقكم؟

– لا أعتقد أنني أفعل ذلك. ليست لدي نظرية تاريخية قوية كالتي قدمها ماركس على سبيل المثال ولكن لدي قناعات علمية تؤيد نظريتي بمسيرة التاريخ نحو اتجاه معين.. ومقالتي عن نهاية التاريخ اختتمتها بتساؤل ينبغي على الجميع مناقشته لأنني وعندما أنظر حولي بالعالم لا أجد بدائل قوية للديمقراطية الليبرالية في المجتمعات الحديثة على الأقل.. وإذا أخبرني أحد بوجود ما يثبت عكس ذلك فسأكون سعيداً وسأقول إنني مخطئ في نظريتي.

✍ ولكن هل يمكن إلغاء الخصوصيات الثقافية.. أليست هذه مثالية في رؤيتكم؟

– لا.. لا أعتقد أنه في النهاية سيكون هناك تجمع ثقافي واحد.. الثقافة ليست وسيلة لتحقيق غاية ولكنها غاية في حد ذاتها والناس تود أن تبقى ثقافاتها وتحافظ على طرق حياتها.. لذلك فهي لن تختفي ولا أعتقد أنه أمر جيد أن تختفي.. لا أحب

obeikandi.com

أن أرى نفس السلوك في كل مكان أذهب إليـه لأن الاخـتـلاف هو الذي يجعل للحياة قيمة ومتعة.

✍ ***مـا زالت لدي مـجـمـوعـة من الأسـئلة ولكن الزمن والزمن الإضـافي الذي أكـرمـتـني به انتـهى. شكرا لك بروفـيـسـور فوكوياما على تواضعك وسماحتك.***

- شكرا لكم.

openeikandl.com

obeikandl.com

فرانسيس فوكوياما(*)

الخطر الإسلامي في أوروبا أكبر من مثيله في الولايات المتحدة

✍ ***عقب هجمات ١١ سبتمبر ٢٠٠١ على الولايات المتحدة، قيل إن العالم تغير في ليلة واحدة! ومنذ عدة سنوات كتبت كتابا بعنوان "نهاية التاريخ" وفيه أشرت إلى أن نموذج الديمقراطية الرأسمالية الليبرالية هي محطة النهاية في حركة التاريخ الإنساني. هل الليبرالية الغربية الآن في مرحلة صدام مع الإسلام الراديكالي؟***

– نحن في مرحلة حرجة الآن من التاريخ الإنساني، من معالمها انتشار الديمقراطية والأفكار الليبرالية بصورة غير مسبوقة. ولكنها في نفس الوقت تتعرض ومنذ التسعينات وحتى الآن تتعرض لهجوم في مناطق عدة. الإسلام الراديكالي يمثل فقط أحد صور هذا الهجوم، وهناك جبهات صراع أخرى ضد الليبرالية في روسيا وبعض أمريكا اللاتينية. ورغم وجود المشاكل التي تتعرض لها الليبرالية، فإنني أعتقد أن نظريتي مازالت صحيحة. فإذا أردت أن تكون مجتمعاً حديثاً، فليس هناك من البدائل سوى اقتصاد السوق، والديمقراطية السياسية. وأعتقد أن التهديد

(*) نص مقابلة أجراها (تقرير واشنطن) مع المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما لمعرفة رأيه في الصدام بين الإسلام والغرب ونشرها ملحق(الرسالة) بصحيفة المدينة السعودية بتاريخ ١٣/٣/١٤٢٦هـ الموافق ٢٢ ابريل ٢٠٠٥ م

obeikandi.com

الإسلامي هو تهديد حقيقي من ناحيتين (ليس منها أن الإسلام يقدم بديلاً حضارياً مقبولاً يجذب مجتمعات إنسانية متقدمة لتبني أسلوب حياته أو العيش فيه)، فلا يريد أحد أن يعيش في أفغانستان تحت نظام الطالبان، ولا في (دولة خليجية)... فهم ليسوا روس ولا هم أمريكيون ولا يابانيون من يقبلون بهذا النوع من نظم الحكم، لكن الخطر الحقيقي المستقبلي من الإسلام يتمثل في جانبين أساسيين:

الأول: أسلحة الدمار الشامل وإمكانية وقوعها في يد جماعات صغيرة تستطيع من خلالها تحقيق دمار كبير للقوى الكبرى.

الثاني: وجود أقليات إسلامية ضخمة في أوروبا وروسيا وليس بالصورة نفسها في الولايات المتحدة، والتي يبدو من الصعوبة بمكان تأقلمها مع نمط الحياة في المجتمعات الغربية الليبرالية. وأؤكد أن نموذج المجتمعات الليبرالية هو البديل الأفضل... ونحن نعيش جميعا في مجتمعات متعددة ثقافيا، والعولمة بمعناها الجديد تزيد من مستوى التفاعلات الثقافية، ومعها لا أرى أنه بإمكان هذه الجماعات المختلفة ثقافيا يمكن أن تتعايش بسلام في أي مجتمع إلا وأن يكون مجتمعاً ليبرالياً ومتسامحاً.

✍ ***يرى الكثيرون أن المجتمعات الليبرالية الغربية مجتمعات غير إنسانية، فهناك نسبة ضئيلة من المواليد، وكذلك نسبة كبيرة من الشاذين جنسيا Homosexual وانتشار مرض الإيدز. في***

obeikandl.com

الناحية الأخرى، تتمتع الدول الإسلامية بمجتمعات شبه خالية من هذه الأمراض، يصاحبها ارتفاع نسبة المواليد. وبهذه الصورة يبدو الإسلام هو المستقبل لأن الديمقراطية الليبرالية ستقتل نفسها خلال ٢٠٠ أو ٣٠٠ سنة، ما هو رأيك في وجهة النظر هذه؟

- ما تم ذكره هو معايير مختارة بعناية، لكن هي معايير غير معبرة عن حقائق كثيرة في المجتمعات العربية، فالدول العربية يمكن أن تنتج الكثير من الأطفال!! لكن من ناحية إجمالي الناتج القومي الإجمالي GDP فلا تنتج الدول العربية مجتمعة مثلا ما تنتجه دوله بحجم أسبانيا. والدول العربية لا تستمتع بحياة سياسية سعيدة، وكل الدول العربية تقبع تحت نظم الحكم الاستبدادي. ولا يوجد هناك فرص للمشاركة السياسية، وكل المجتمعات منغلقة في مختلف أوجه الحياة السياسية. وإذا كان معيار عدد المواليد هو المعيار وليس ديناميكية الحياة نفسها، ولا مستوى التطور التكنولوجي، أو ارتفاع مستوى الإنتاجية، فإذا كانت هذه معايير غير مهمة، فأنت محق، والمجتمعات الإسلامية ناجحة بدرجة كبيرة!! لكن أنا أعتقد وسيوافقني كل المحللين في أنه بمعايير النجاح المتفق عليها عالميا فإن المجتمعات الإسلامية في معظمها مجتمعات متأخرة. كذلك يبين اتجاه (تصويت الناس بأقدامهم!) فاتجاهات الهجرة الدولية تعكس رغبة مواطني الدول الإسلامية في الانتقال للدول الليبرالية الديمقراطية والعيش فيها. وهو دليل على رغبة المواطنين في العيش في المجتمعات الحرة رغم ضعف نسبة المواليد فيها.

✍ ***خلال آخر عدة سنوات، ما هو الحدث الأهم الذي سبب صدمة ومفاجأة لك كفيلسوف ومفكر وأكاديمي؟***

- الحدث الأهم بالنسبة لي كان ١١ سبتمبر ٢٠٠١، كما كان بالنسبة للكثير من الناس. أتذكر حضوري في صباح هذا اليوم إلى مكتبي في واشنطن، وكنت أرى من نافذتي الدخان يتصاعد من مبنى وزارة الدفاع (البنتاجون). وهو ما لم يتوقع أحد أن يراه. والواقع أن هذا الحدث غيّر طبيعة السياسات الدولية في صور عديدة. المفاجأة والصدفة الأخرى هي الفجوة التي وجدت بين الولايات المتحدة ودول أوروبا بخصوص الحرب في العراق. ولم أتوقع أن تكون هذه الفجوة بهذا العمق، وسيتم أخذ وقت طويل قبل أن يتم ردمها.

✍ ***لماذا تعتقد بعمق وبهوة الفجوة بين الولايات المتحدة وغرب أوروبا؟***

- أعتقد أن هناك فارقاً كبيراً بين قيم وأفكار الولايات المتحدة ودول غرب أوروبا. فأوروبا تضع قيم العدالة والتضامن الاجتماعي في مكانة أعلى من الحرية، وعلى العكس من الأمريكيين، لدى الأوروبيين فكرة مختلفة عن السيادة. (الاتحاد الأوربي نفسه يقوم الآن بعملية تغيير في مفهوم السيادة لكل دولة من دول الاتحاد). وهناك انقسام كبير بخصوص قضايا هامة اجتماعية مثل عقوبة الإعدام، وقضايا استراتيجية أكثر أهمية مثل قبول استخدام القوة العسكرية كوسيلة لتفيد السياسة الخارجية. الأمريكيون يؤمنون بأن القوة العسكرية

يمكن استخدامها لغايات خيرة ومقبولة، في حين لا يرى الأوربيون إمكان استخدام القوة العسكرية لأغراض نبيلة. وهذا الانقسام كان موجوداً أيضا خلال حقبة الحرب الباردة، لكن بسبب طبيعتها التي قسمت العالم لمعسكرين لم يظهر الخلاف كثيرا على السطح، ولكن هذا الانقسام بين الولايات المتحدة ودول أوروبا الموجود الآن سيستمر لفترات طويلة.

---

obeikandl.com

obeikandl.com

د. سلمان العودة(*)

في تعليقه على حوار فوكوياما:

نهاية التاريخ أم نهاية المثقف؟

المشكل في العقلية الغربية أنها عقلية ذاتية مطالبة من الصعب أن تستوعب خيارات الآخرين ومطالبهم والغرب يكره القوى الحضارية المنافسة له.

إن الغرب حين يتصرف كقوي مستبد فإنه يقول للآخرين: يجب أن تتصرفوا كمستبدين أقوياء وهذه مصادرة لمنطق الفضيلة والعقل.

إننا نتطلع من وحي رسالة الإسلام أن نساعد الغرب في قراءة مشكلته والبحث معه عن الحل الذي يتسم بالعدل والعقلانية.

١/ مثقف أم كاتب بلاط؟

لم أستطع أن أمسك خيطاً واضحاً في مجموع أطروحات الكاتب الأمريكي (فرنسيس فوكوياما) سوى خيط الولاء للإدارة الأمريكية.

فأطروحته الشهيرة في تمجيد الديموقراطية الغربية، وأنها نهاية التاريخ تعني: توقف الحياة والإبداع والأشواق الإنسانية للمعرفة والترقي والطموح.

وإذا كان فوكوياما يقول بتواضع: بأنه لا يملك نظرية كنظرية ماركس في التاريخ فلقد صدق، وكان تواضعه في محلّه، فمدار نظريته على إطراء النتائج المشهودة لتطورات السياسة الغربية.

ولا خلاف على جوانب من إنجازات النظم الديموقراطية، بيد أن هذا لا يعني أنها نهاية التاريخ.

وهجومه غير الموضوعي على الإسلام واعتباره (فاشية القرن الحادي والعشرين) كما في نيوزويك (السبت ٥ يناير ٢٠٠٢) يكشف عن تطابقه مع رؤية الإدارة الأمريكية في صناعة الإسلام وترسيمه عدواً للحضارة والحرية.

وهجومه على المجتمع السعودي الموصوف لديه بالتطرف، في الوقت الذي يعترف فيه بضعف وضحالة معلوماته عن هذا المجتمع... ليس سوى صدى باهت للحملة الإعلامية الرسمية، وشبه الرسمية على السعودية والعروبة والإسلام.

وتصويره بأن مشكلة الإسلام هي في التباسه مع السياسة، وحاجته إلى فصل الدين عن السياسة على غرار ما حدث في أوربا هو ما تنادي به الإدارة الأمريكية من تفريغ الإسلام من محتواه السياسي.

وكنت أشعر بإشفاق حين أراه يقول: إن المشكلة لا ترتبط بعلاقة الإسلام بالغرب، بل بالمعركة داخل الإسلام نفسه...

بينما التقرير الذي نشرته مؤسسة (راند) والتي كان فوكوياما أحد أعضائها يوماً ما يؤسس لافتعال صراعات بينية داخل القوى

الإسلامية، ومحاولته دعم أطراف على أخرى بحجة دعم الاعتدال والعصرنة.

ولست أدري إلى متى هذه الثقة لدى مثقف بأن الإدارة الأمريكية تمثل الشفافية والصدق والخير في مقابل محاور الشر العالمية؟!

وإلى متى تظل الجهود الجبارة لمقاومة الغلو إسلامياً، غير ذات جدوى ما دامت لا تتطابق مع الأجندة الأمريكية؟!

ولماذا في الوقت الذي يعلن فيه فوكوياما رفضه للتدخل الأمريكي في صياغة الإسلام، ينجرّ (ضمن حديثه للأستاذ قاسم) إلى تصنيف المسلمين الأمريكيين إلى مسلمين متطرفين تدعمهم السعودية، وهم من ذوي الأصول الأفريقية، وهذه عنصرية بغيضة، واتهام لأبناء بلده...

وكان يمكن أن يتهم الإدارة بتصعيد الخلاف الفكري وتحويله إلى تهم قانونية وهذا مؤكد في حالات عديدة.

بينما يطالب بنسخة معاصرة...

ما هي مقاييس الخطأ لدى (فوكوياما) في تدخل الإدارة الأمريكية في أفغانستان؟ ثم في العراق؟

هنا لم يأت الحديث قط عن حقوق الإنسان ولا عن حريات الشعوب، وإنما كان الخطأ وفق معيارية مرتبطة بالسياسة الأمريكية ذاتها ومصالحها.

obeikandi.com

لماذا الحديث عن التدخل الأمريكي في مناطق مختلفة من العالم على أنه (ضلوع في مسألة أمنية) وأن هذا يبرر استثناء الجنود الأمريكان من المحاكمة الدولية؟

لم نفترض أن الأمن القومي الأمريكي هو المحور الوحيد الذي يرسم السياسة، وأنه يمر عبر عواصم العالم؟

ولم نفترض أن السياسة هنا هي التدخل.. بينما ـ ل فوكوياما: إنه ضد استخدام القوة؟؟!!

٢/ حرب الإرهاب أم حرب الإسلام؟

إن دوائر كثيرة في الغرب بعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر تتجه إلى خلق صورة من الصراع مع العالم الإسلامي، خاصة دول الارتكاز، ومن المؤكد أن الغرب يعي هذا الانتقاء ومَن وراءه.

لقد بدأ الغرب بملاحقة ما يسميه بالإرهاب في أفغانستان ثم العراق، ثم وسع الدائرة إلى رسم مستقبل معاقبة لمجموعة من الدول الإسلامية، ثم بدأت الرؤية الغربية - بشكل كبير - تتجه إلى شمولية الصراع، وملاحقة الرؤية الإسلامية التي سجلت في أحداث الحادي عشر من سبتمبر رفضها لهذا العمل تحت مفهوم ينطلق من مبدئية ومصلحية الإسلام.

هذا التحضير لشمولية الصراع مع مجموعة القوى الحضارية الإسلامية الثقافية والاقتصادية والاجتماعية تحاول دوائر في الغرب سياسية وإعلامية وثقافية واقتصادية أن تبحث عن مسوغ يمكن أن يستوعبه عقل الفرد الغربي.

obeikandi.com

وهنا تحاول هذه الدوائر أن تقدم صياغةً مناسبةً عن المفهوم والفكرة الإسلامية لتعبئة العقلية الفردية في الغرب؛ لتقبُّل هذا الصراع الذي من المؤكد أنه يتجه لغير صالح الغرب، والذي سيكون مسئولاً عن مستقبل أكثر مرارة ومفاجئة من تصرف خاص وقع في الحادي عشر من سبتمبر.

إن استدعاء صراع القوى الحضارية بين العالم الإسلامي والغرب يعني تعقيد المشكلة الغربية التي يصعب عليها أن تستوعب مرارة المواصلة في مرحلة ربما تكون الخيارات الإسلامية أكثر تأثيراً فيها!!

ومع هذا فإننا ندرك أن هذا الصراع لا يصنع الأفضل لكل الأطراف.

إننا هنا يجب أن نحترم أمانة التاريخ، وأن نقرأ الأمور بجدية أكثر، وربما كانت مجموعة القوى الغربية المفضلة لهذا الخيار تركض وراء الوهم، أو تفضل مشاهدة نشوة الغرور.

إن الغرب حين يتصرف كقوي مستبد، فإنه يقول للآخرين: يجب أن تتصرفوا كمستبدين أقوياء، وهذه مصادرة لمنطق الفضيلة والعقل.

لقد استعملت دوائر إعلامية وثقافية في الغرب تبرير هذا الخيار في عقلية الفرد الغربي بأن الأزمة التي بدأ الغرب يواجهها إنتاج للصناعة الثقافية والاقتصادية الإسلامية المتداولة في دول الارتكاز الإسلامي المهدِدة لوجود الغرب وحضارته حسب نظر هذه الرؤية الصاعدة في الغرب.

Obeikandi.com

ونحن نفضل - اهتداءً بهدي سائر أنبياء الله - ألاّ يكون هذا خيارنا الأول، بل أن يكون هناك حرية لإعطاء الفرد الغربي مساحة من الحياد والهدوء يحاول أن يعرف بها الإسلام.

٣/ حقيقة عادلة:

لا شك أن واقع المسلمين اليوم ليس هو المفهوم الذي رسمه الإسلام تماماً، وأن الإسلام رسالة متعالية عن الازدراء، والظلم، وصناعة الشر، وهذا معنى شمولي يفترض أن يسمح لكل فرد في الغرب أن يتعرف عليه.

ومع هذا فإننا نعي أن واقع المسلمين وإن لم يكن تماماً هو الإسلام فمن المؤكد أن الإسلام مطبق في واقع المسلمين في شريحة لا تحدها دولة أو لغة، بل هي معتبرة بمفهوم الإسلام الصحيح الوسطي الخالد.

ومن الأمانة والعقل أن نعترف بمظاهر كثيرة من الخطأ في الواقع الإسلامي، لكنها بكل تأكيد لا تمثل كل هذا الواقع، وأيضاً فهي قابلة للمعالجة والتصحيح، والغرب حين يتحدث عن مفهوم سيئ في واقع المسلمين يجب أن يدرك أنه ربما يتحدث عن أنموذج مختار يناسبه، أو يمارس نوعاً من التحريف للحقيقة، والمزايدة على الوهم حين يتحدث عن أنموذج فاضل، لكنه لا يعترف له بذلك، ومن المهم هنا أن يتأكد الغرب أنه ليس يصنع شيئاً لصالحه.

إن مفهوم التعامل الإسلامي مع الغرب يجتمع في آيتين من كتاب الله يدرك حقيقتهما أصحاب العلم، والوسطية في العالم

الإسلامي، هما قوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الممتحنة: ٨-٩).

هذا المفهوم هو الحقيقة العادلة التي رسمها القرآن الذي يؤمن به جميع المسلمين وإن كان بعضهم قد يخطئ في فهمه، لكن من المهم ألا نصنع الجو المناسب لهذا الخطأ.

إن منطق العقل يقف ضرورةً لاحترام هذا المفهوم العدلي في التعامل، ومن المؤكد أن الغرب على مستوى القرار لا يمتلك ولو مجرد رؤية معتدلة في التعامل مع العالم الإسلامي.

من الأفضل أن يعي الغرب أن مظاهر الخطأ التي تقع في العالم الإسلامي وإن كانت تتمتع بأسباب بيئية خاصة إلا أنه من المُدرك حتى للفرد العادي أن الغرب من صناع هذا الانحراف الذي قد يكون أزمة تواجه الغرب نفسه، بل هذه حتمية قادمة في ظل هذه الممارسة الغربية لورقة الصراع، وهنا يجب أن يدرك الغرب أن المجتمعات الإسلامية ستكون متسامحة بشكل عفوي، وربما متعاطفة مع كل أشكال المواجهة والعداء للغرب دون امتلاك فرصة كافية لقراءة التصرفات وصوابيتها.

٤/ كهنوت السياسة والاقتصاد:

الدور البائس الذي لعبه رجال الكنيسة ضد الفرد في المجتمعات الغربية في القرون الوسطى يلعبه اليوم بشكل أكثر سحقاً للفرد الغربي مجموعة من رجال السياسة، وبعض الفصائل الفكرية الغربية، وكثير من مؤسسات المال والاقتصاد والإعلام التي لا تمتلك معرفة كافية بقوانين الوجود، وحركة النظام الكوني، بل تتصرف تحت رؤية خيالية أشد وهماً من تلك المواعدات التي رسمها رجال الكنيسة والبابوات.

الحرية الغربية يشكلها الأقوياء فقط في الغرب، والذين يولودون متجهين نحو الأقوى في التأثير، ومن المؤكد أن هؤلاء لا يمتلكون خيارات كافية، ومن المؤكد أن الأقوى ليس بالضرورة هو الأفضل.

لقد أنتجت الحضارة الغربية المعاصرة ليس للفرد الغربي فحسب، بل لقطاع عريض في العالم مجموعة من الإيجابيات في حركة التطور والصناعة والتقنية والتقدم العلمي في علوم الطبيعة والتجربة والتخطيط، وإن كانت كثير من دوائر القوة والسيطرة في الغرب تحاول المحافظة على التخلف الذي تعيشه دول العالم الإسلامي في هذه المفاهيم وما شاكلها، وتطلب ثمناً باهضاً لتقديم اليسير لدول العالم الإسلامي، ومع هذا التقدم فقد أبقت الحضارة الغربية فراغاً واسعاً في مفاهيم كثيرة ضرورية لحفظ الفضيلة والعدل حاول الفلاسفة الغربيون في عصر التنوير أن يشككوا في مصداقيتها، وجاء الواقع الغربي اليوم نتيجة لهذه الفلسفة التي تعالج

هذه الفراغات بتهمة وهميتها، وعدم التأكد من ضرورة وجودها، وكان أخص هذه المفاهيم قانون الثقافة والتفكير، ونظام المجتمع التي عالجها الغرب بفلسفة (الحرية) تحت سلطة (العلمانية).

إن العلمانية تستعمل في الغرب سلطة وليست مفهوماً معالجاً، وهكذا هي في الرسم الفلسفي لها، لكن كثيراً من المجموعات الغربية ولاسيما الثقافية تريد أن تتحدث عن العلمانية كمفهوم راقٍ، مؤهل لحل مشاكل العالم كله، وأن على المسلمين أن يستوعبوا هذا الحل ويؤمنوا به كضمان لتطورهم، وصلاحيتهم للبقاء كما يفترض فرانسيس فوكوياما، وكأنه نسي أن الغرب حين صدّر العلمانية أو فرضها في بعض الدول الإسلامية خلق أزمات من الارتكاس والتخلف، ولم يستنكر الغرب الاستفادة التي اقتبستها العلمانية في بعض البلاد الإسلامية من العقلية الشيوعية في فرض الذات والاستبداد والدكتاتورية، وربما كان هذا شكلاً من العلاقة معقولاً في فلسفة الغرب!!

وإن كنا ندرك أن العالم الإسلامي ليس أرضاً صالحة للعلمانية مهما كانت الظروف؛ لأنه لا يعاني مشكلة مع الدِّين كما يعاني الغرب.

صحيح أن هناك مشاكل نسبية مصدَّرة إلى الغرب، لكن بكل تأكيد فإن الغرب يصدر للعالم الإسلامي مشاكل أكثر عمقاً، وأيضاً فإن من السذاجة والوهم أن يفترض أن المشاكل الملحة في الغرب مصدرة من العالم الإسلامي.

إن أحداث الحادي عشر من سبتمبر يجب ألاّ تتحول إلى سلطة تحاصر التفكير والعقلانية في قراءة المشكلة التي تواجه الغرب.

يقول أحد فلاسفة الغرب: إن كل إنسان يمكن أن يكون مفكراً حراً.

وربما كان يتحدث عن حقيقة مهمة: أن كل إنسان يمكن أن يتعرف على الحقيقة.

دون شك فالمجتمع الأمريكي يشكل سوقاً مفتوحة للأفكار كما يقول فوكوياما، ولكن الأقوى من الفكر هي مؤسسات الضغط، والتأميم الغربية السياسية والاقتصادية والثقافية والإعلامية، التي تتمتع بتقاطع في المصالح خاصة في حركتها داخل المجتمع الغربي المستهلك، وإن كانت قد تكون قادرة على التوحّد في الحركة الخارجية إلى حد ما.

إن الفرد الغربي هنا يعيش تحت سلطة هذه المجموعة الساحقة لخياراته الخاصة.

صحيح أن الفرد في الغرب يشعر بنوع من التعددية في الاختيار، لكنها خيارات محدودة فرضها تصارع القوى المنتجة داخل المجتمع الغربي، وفي دائرة اللاوعي فإن الفرد الغربي لا يتمتع بحرية خاصة، بل يبقى أن الخيارات الثقافية والاجتماعية مفروضة عليه باسم الحرية، والحقيقة أنها مجموعة من السلطات المتعددة المستبدة، وربما كانت الكنيسة أكثر هدوءاً وعفوية في استهلاك الفرد لصالحها.

٥/ غطرسة القوة والشر

إن الغـرب يعـيش مـشكلة ملحّـة في داخله هـو عـاجـز عن قـراءتهـا، وهنـا من الأفـضل أن يصـرف جـهوده المزعـومة لمعـالجـة مشكلة العـالم الإسـلامي إلى قـراءة مـشكلته الخـاصـة التي لم يكن العالم الإسلامي يوماً طرفاً فيها بإقرار الغرب نفسه.

إن الغـرب عـاجـز عن استيـعـاب ذاته، كمـا هو عـاجـز عن استيعاب الآخرين.

حينما يفترض الغرب أن شـرط صـلاحياتك للبقـاء ألا تكره الغرب ومفاهيمه الخاصة التي تتجه لسحق الآخرين، في حين أنه يمارس صناعة الأزمة المصعِّدة لمفهوم العداء ليس عند المسلمين فقط، بل هذه ظاهرة مشاهدة في القوى العالمية القائمة، فهو يطرح معادلة من الصعب على كل قوانين العلم والعقل أن تستوعبها أو تحترمها.

إن كـراهيـة الغـرب ليست أزمـة صنعـهـا المسلمـون، بل ثمت مؤثرات متعددة في هذا الواقع.

وكثيـر من المجتمعـات والشعـوب في العـالم كله تكره الغـرب، وحتى تلك الدول التي قد تتأثر ببعض الأنماط السلوكية الغربية تبقى على تقاطع مع الغرب في مفاصل أكثر أهمية.

ومن المهم أن يدرك المفكرون هنـاك أن شـيـئـاً من مظـاهـر الإعـجاب بالغرب لا تعني الإيمان به بكل تأكيد، وأن وجـود مطاعم (موكدونالد) التي لفتت نظر فوكوياما في المغرب لا تعني الكثير!

العالم بشتى دياناته يعيش ظاهرة عامة من الكراهية للغرب وحتى التجمعات اللادينية تراهن على هذا الخيار، ومن المفضّل أن نحافظ على تذكر تجربة الغرب مع الاتحاد السوفيتي الذي لم يكن يشكل مفهوماً دينياً.

والغرب يرى لنفسه حق كراهية الآخرين، ووصفهم بالشر، وصناعة مشاريع للصراع معهم، لكنه يختار أن تبادل الشعور بينه وبينهم يعد جريمة من الضروري أن يصدق عليها كل العالم تحت قانون "إن لم تكن معي فأنت ضدي"، وهذا القانون يفترض أن يؤمن به الغرب نفسه حين يُقدمه له العالم الإسلامي أو غيره من القوى الحضارية التي تفضّل إلى حد الآن أن تتمتع بوجودها وسيادتها فقط، لكن الغرب في صراعه يتحرك تحت مفهوم تعطيل حركة الوجود لهذه القوى أياً كانت آلية الوصول إلى هذا الهدف ودرجتها الأخلاقية.

ربما من المشكل في العقلية الغربية أنها عقلية ذاتية مطالِبة، من الصعب أن تستوعب خيارات الآخرين ومطالبهم، وليس سراً أن الغرب يكره القوى الحضارية المنافسة له، وفي مقدمتها العالم الإسلامي الذي قد تكون خطواته أكثر سرعة في ممارسة تعويق الاستبداد الغربي.

إننا لم نطالب الغرب يوماً ما ألا يكرهنا إذا كان يفضل ذلك، ونفضل أن نتركه يمارس خياراته، لكننا نطالب أن يكون هناك قدر من الأدب الأخلاقي.

والإسلام يستوعب التعامل مع الغرب، لكن المشكل أن مفهوم الحرية في الغرب لا يستطيع أن يستوعب التعامل مع الإسلام؛ لأن العلمانية تمارس سلطة يرسمها الأقوياء فقط في الغرب، ويصعدون لها ويحاولون إقناع العقلية الفردية في الغرب بها، تحت مواعدة قادمة في تصفية قوى الشر والإرهاب، كما يردد الساسة وكثير من رجال الثقافة والفكر والإعلام هناك، لكن من المهم أن نؤكد للغرب في شتى طبقاته ومستوياته أننا قد نبدو بسطاء، لكن من الجيد أن يفهم الغرب أننا لسنا كذلك، وأننا نتمتع بدرجة كافية من الذكاء، إن الغرب قد يصنع للعالم الإسلامي من حيث لا يريد ما عجز عن الوصول إليه.

وإذا كان الغرب يعتقد أنه خرج من عصر الظلمات من قرون قريبة، فإننا تجاوزنا عصر الظلمات منذ أكثر من أربعة عشر قرناً، وإننا في الوقت نفسه نفضل خيار التعامل بالعدل، والاتجاه للإصلاح البشري، ومعالجة الفساد والشر بشرط أن يكون لدى الغرب استعداد للاستماع إلى الحل الإسلامي المعتدل الذي هو رسالة الخير التي نحبها لكل الناس في العالم، ونبي الإسلام أرسل رحمة للعالمين، ويقول كما في الرواية الواردة عنه في كتب السنة الصحيحة: (من قتل معاهداً لم يرح رائحة الجنة) أي ضمان يمكن أن تقدمه رسالة للآخرين أرقى من هذا المفهوم.

ومن الأفضل هنا أن يراجع الغرب موقفه في أخلاقيات التعامل مع القضايا الإسلامية.

من وجهة نظرنا هذا هو الحل ويبدو أنه حل يتسم بالاعتدال والعقلانية، ومن الأفضل أن نحترمه جميعاً، وأن نتجاوز المزايدة على الإسلام والمجتمعات الإسلامية لصناعة الصراع؛ لأن الغرب هنا بكل تأكيد يتصرف بغباء.

إن قراء الفلسفة الغربية يدركون أن ثمّة مشكلة كامنة في العقلية الغربية وهي سيطرة عقلية الصراع، وفرضها على الفرد الغربي للمشاركة والتفاعل معها، لكن من المهم أن يدرك الغرب أن الصراع يقود إلى النهاية الحتمية، وهذا بكل تأكيد لا يستطيع الغرب التعامل معه واستيعابه.

إن من أهم أسس الحضارة السماح للفرد فضلاً عن المجتمع بممارسة الخيارات الثقافية والاجتماعية، لكن الدوائر المتسلطة في الغرب غير مستعدة أن تمنح المسلمين هذا الحق حتى في تفسير الإسلام، فهي تريد أن تملي صياغة خاصة في مفهوم الإسلام، من أهم أسسه[1] لمحافظة على سيادة الغرب، وتسخير العالم الإسلامي حتى على مستوى العواطف والولاء له.

هذه سطحية في قراءة الغرب لمشكلته وأزمته ونمط علاجها، ومن المهم أن يُدرك أنه يفكر ويتصرف بغباء، ويتحرك إلى مصير مجهول.

إننا نتطلع من وحي رسالة الإسلام أن نساعد الغرب في قراءة مشكلته والبحث معه عن الحل الذي يتسم بالعدل والعقلانية، لكن نبدو غير متشائمين حين يختار الغرب الخيار

الثـاني الذي لن يكون المسلمـون مؤهلين لصناعتـه، لكنهم مـؤهلون للتعامل معه.

داعية إسلامي سعودي

(*) نشرت المداخلة بملحق (الرسالة) بصحيفة المدينة السعودية بتاريخ ١٤٢٦/٤/٥هـ الموافق ١٣ مايو ٢٠٠٥ م

---

obeikandi.com

obeikandl.com

د.عزيزة المانع(*):

أي أنواع الديموقراطية ينتظر منا فوكوياما أن نعتنق؟

● هناك عدم صدق ولجوء للمراوغة في إجابات فوكوياما إذا تعلق السؤال بالسياسة الأمريكية.

نشر خلال الأسبوع الماضي ضمن ملحق (الرسالة) في هذه الصحيفة لقاء مطول أجراه الأستاذ عبدالعزيز قاسم مع المفكر الأمريكي المشهور فرانسيس فوكوياما، وذلك إثر إلقائه محاضرة موضوعها " نهاية التاريخ بعد مرور ١٦ عاما على إعلانها "، في الندوة العلمية التي عقدت في مؤسسة الملك عبدالعزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء.

من خلال التأمل فيما جاء في هذا الحوار من أفكار تعبّر عن رؤية هذا المفكر الأمريكي الشهير، حول طبيعة العلاقة القائمة بين المسلمين والغرب، يمكن القول إنه بدا واضحا أن الرجل غير مطلع بالقدر الكافي على حقيقة الرؤية الإسلامية للحياة الاجتماعية والسياسية، وأنه يحاكم الإسلام وينتقد أنظمته من خلال ما يراه ويلمسه عبر الأنظمة القائمة في المجتمعات الإسلامية المعاصرة، وليس من خلال النظام الإسلامي نفسه كما جاء في الأصل، وقد أدى به ذلك إلى أن يصدر أحكاما خاطئة ضد الإسلام مثل قوله: "إن الصلاح والإصلاح لا يأتي إلا عند الخروج من التعاليم الدينية إلى التعاليم العلمانية". أو قوله: "إن الإسلام ينبغي أن يتغير ليلائم العصر".

من يستمع إلى مثل هذه الآراء عن النظام الإسلامي يعتريه شك في أن يكون هذا المفكر قد اطلع على القرآن الكريم والسنة النبوية، وهما المرجعان الصحيحان اللذان يتضمنان حقيقة الإسلام وما جاء به من أنظمة لخير الحياة الإنسانية، فالإسلام في شكله الذي نزل به نراه نحن أفضل النظم الاجتماعية على الإطلاق ولا يمكن أن يقارن بنظم أخرى من وضع البشر. إلا أن المسلمين المعاصرين لم يحسنوا الاستفادة من هذا النظام فطبقوه بصورة مشوهة لا تمثل شكله الحقيقي، فظهر للعين غير الخبيرة بالإسلام ناقصا غير صالح.

ثانيا- يرى السيد فوكوياما، أن لا نظام صالحا للحياة سوى النظام الديموقراطي الرأسمالي الغربي الذي يعرفه ولا يعرف ما هو أفضل منه، وهو يبدو متحمسا لنشر القيم الديموقراطية الغربية على أنها هي البديل الأفضل الذي ينبغي تعميم اعتناقه في العالم، لكنه وهو ينادي بتبني القيم الديموقراطية الغربية يتجاهل ما يوجد من فروق بين الديموقراطية كما ينادي بها في شكلها النظري وما هو قائم على أرض الواقع من نماذج للديموقراطية. فما يراه متوفرا في النظام الديموقراطي من قيم إنسانية، هو في واقع الأمر مقتصر على المستوى النظري غالبا، أما على المستوى الفعلي فالأمر يختلف. ولعل ما تطبقه الولايات المتحدة من أنظمة الديموقراطية خير مثال على ما نقول. فبينما يرى فوكوياما، على المستوى النظري، أن الديموقراطية الناجحة هي التي تتبنى بث قيم

ثقافية لحل النزاع عن طريق التسوية السلمية بدلا من اللجوء إلى العنف، الذي يرى أنه غالبا يبادر إليه كثير من الناس بدافع من تفسيرات الدين أو العادات التاريخية أو مفاهيم الاعتزاز بالوطن. نجد على المستوى الفعلي الذي تطبقه الولايات المتحدة الاميركية، أن الديموقراطية تتخذ مسارا مغايرا، فهي تلجأ إلى أسلوب العنف بدلا من التسوية السلمية عندما يظهر النزاع بين المسلمين وأمريكا.

فأي أنواع الديموقراطية ينتظر منا فوكوياما أن نعتنق، ديموقراطيته في شكلها المثالي النظري، أم ديموقراطية الواقع التي تمارسها الحكومة الامريكية؟

ثالثا- إن القارئ للحوار يصدمه ما يظهر أحيانا من عدم الصدق أو اللجوء إلى المراوغة عندما يتعلق الأمر بالسياسة الأمريكية، مثلا عندما سئل فوكوياما عن رأيه في التصريحات المتكررة لبعض المسئولين الأمريكين عن عزمهم على فرض النهج الثقافي الأمريكي في الحياة على شعوب العالم، وفيم إن كان يرى ذلك يناقض قيم الليبرالية؟ جاء رده بعيدا عن السؤال مكتفيا بالقول إن الثقافة الأمريكية تنتشر في العالم لأن الناس يحبونها وليست مفروضة عليهم.

وعندما سئل عن رأيه في تداعي البناء الديموقراطي من خلال ما يحدث في العراق وأفغانستان من انتهاكات فظيعة

للحريات ولحقوق الإنسان في إطار الاحتلال الأمريكي وتحت سمع وبصر الحكومة الأمريكية. اكتفى بالقول بأن هناك أخطاء وأن الأخطاء يمكن أن تقع في أي مجتمع مهما كان نظامه أو أيديولوجيته التي يعتنقها وأن الحكومة الامريكية لديها آلية تتبعها لتصحيح تلك الأخطاء والتجاوزات. لكنه حين يتحدث عما يسميه الإسلام الراديكالي ويشير إلى ما نتج عنه من أحداث العنف، لا ينظر إلى ذلك على أنه مجرد أخطاء حدثت وأنها قابلة لأن تقع في أي مجتمع وتحت أي أيديولوجية، أو أن هناك آلية اتخذت في المملكة لتصحيح ما وقع من تلك الأخطاء والتجاوزات.

وما يستشف من حديث السيد فوكوياما هو اقتناعه بأن المسلمين معادون للغرب بسبب اعتناقهم قيم الدين الإسلامي، وأن عدم ظهور عدد كاف منهم يعارض أو يقف في وجه ما سماه (التحدي الجهادي) يقف حائلا دون إقناع الغرب أن المسلمين غير معادين له. أي إن السيد فوكوياما ينتظر من المسلمين أن يسلموا بأن الغرب عادل وإنساني في تعامله معهم، وأنهم هم بما يعتنقونه من روح عدائية يلاحقون الغرب لإيقاع الشرور به.

أما السلوك الغربي الاستفزازي للمسلمين وما حدث ويحدث من أمريكا وحلفائها ضد المسلمين في أفغانستان وفي العراق من مذابح القصف الأمريكي المتوحش، فإنها أحداث لا ينبغي أن ينظر إليها على أنها عداء وكراهية من الغرب للمسلمين، هي أحداث ينبغي أن ينظر إليها على أن لها غايات (سامية) تتضمن إصلاح وتقويم حال المسلمين.

من الحق القول إن معظم العالم تعاطف مع ضحايا ١١سبتمبر، لكن من العدل أن لا يدفع هذا التعاطف بالعالم إلى أن يغمض عينه عن البغي الذي تمارسه أمريكا ضد الشعوب الآمنة بحجة نشر الديموقراطية، ولا ينبغي أن يكون ذلك سببا في تبرير الانتهاكات الأمريكية للقيم الإنسانية في العالم. إن انتهاكات أمريكا للعدالة وتعديها على حقوق الإنسان في العراق أو افغانستان لا تقتصر على جرائم أبو غريب أو جوانتنامو، هي أكبر من هذا بكثير، هي تشمل شن الحرب نفسها على شعب ضعيف أعزل. إن مجرد شن الحرب بتلك الصورة البشعة هو انتهاك للديموقراطية وللحرية ولحق الشعوب في أن تعيش حياة آمنة مسالمة، وهو يتنافى مع رؤية فوكوياما للديموقراطية الناجحة التي لا تلجأ إلى العنف في حل النزاع.

(*) أكاديمية وكاتبة سعودية

(*) نشرت المداخلة بملحق (الرسالة) بصحيفة المدينة السعودية بتاريخ ١٤٢٦/٣/٢٠هـ الموافق ٢٩ أبريل ٢٠٠٥ م

obeikandi.com

obeikandl.com

د.محسن العواجي(*)

يؤخذ على فوكوياما تحامله المتكرر على الإسلام في أغلب مقالاته ومحاضراته واتهامه بالقصور الحضاري

مكاشفات الأستاذ عبد العزيز قاسم أصبحت من العلامات الفارقة لجريدة المدينة، ويحفظ للأستاذ محاولته التنقل بين كل أطياف الفكر المحلي، وما إن فاجأنا الشيخ صالح الفوزان باعتذاره الغريب عن مواصلة مكاشفاته حتى فاجأنا الأخ قاسم بنقلة نوعية في اختيار الضيف، هذه المرة تجاوزت حدود الجغرافيا والفكر والحضارة ولعلها إيجابية قدرية لم يقصدها الشيخ الفوزان الذي باعتذاره المفاجئ أخرج محررنا الكريم من نطاق المحليات ليجد نفسه وجها لوجه مع أبرز منظري الفكر الغربي عامة والأمريكي خاصة، مع المفكر فرانسيس فوكوياما، مما يعني بداية فتح آفاق جديدة لنا معشر القراء للاستفادة مما عند الآخر وعلى المستوى النخبوي، وإنني إذ أهنئ الأستاذ قاسم على (تدويل) مكاشفاته فإنني أشيد أيضا بالشفافية التي ظهر بها فوكوياما حيث قدم لنا أنموذجا عن رؤية المفكر الأمريكي لأحداث محلية ودولية تمسنا بالدرجة الأولى وليس بالضرورة أن تكون آراؤه مطابقة لحقيقة ما يدور داخليا في مجتمعنا السعودي الذي تحامل عليه الغرب

بإعلامه ومؤسساته ليحمله كل التبعات الفكرية لما حدث، وبالرغم أننا لا ننكر وجود بعض القرائن التي لربما اعتمد عليها منظرو الفكر المتشدد خاصة على مستوى فهم النص وتفسيره، إلا أنه من الإنصاف التأكيد على أن أمريكا نفسها كانت ولا تزال قادرة على أدلجة الكثير من النشاطات الدولية ولم تتردد يوما ما في استغلال كل ما يخدم حربها الباردة ضد السوفيت بما في ذلك التطرف في تجريم وإقصاء الخصم الذي كانت تسميه (إمبراطورية الشر) لم تترك المخابرات الأمريكية دينا ولا عرفا ولا قبيلة دون أن تحاول حشرها في بوتقة خدمة مصالحها القومية، أعجبني أن فوكوياما لم يغفل الدور الأمريكي في صناعة الأزمة مما يعني ضرورة إعادة النظر في المنطلقات السياسية لدولة أصبحت تقود العالم، إذ دأب الكثير من منصفي الفكر الغربي على الوقوف عند حد الاعتراف بالخطيئة دون المبادرة بالتوبة والتصحيح ورد الحق إلى أهله، العدوان الأمريكي على أهلنا في فلسطين والعراق وأفغانستان لا يخفف آلامه تبسيط فوكوياما للإشكالية ومحاولة تسويق الموقف الأمريكي فكريا كما هو مفروض عسكريا، مثال أفغانستان شاهد صارخ على التخبط الأمريكي، سيسطره التاريخ في صفحة الارتجال غير محسوب العواقب عندما دخلت أمريكا الخط دون أن تكلف نفسها دراسة التبعات المتوقعة فيما بعد الأزمة، لكن يؤخذ على المفكر الأمريكي (تحامله) المكرر على الإسلام في أغلب مقالاته ومحاضراته، واتهامه للإسلام بالقصور حضاريا وإن جامل

المحرر نوعا ما في هذه المكاشفات، وما كان لمثله عذر يقبل سوى أنه قد يكون نحى منحى المستشرقين، فحكم على الإسلام من خلال النماذج المعاصرة لإسلام سياسي هنا وهناك، أو من خلال رؤى متطرفة تطال المسلمين أكثر من غيرهم، ولا أدري هل يخفى المنهج البرغماتي على مفكر مثل فوكوياما وأن الأنظمة تمارس الانتقائية الدينية بينما اختزلت جوانب مشرقة من الدين كالعدل والمساواة والتعايش والحريات والحقوق الآدمية والتي لربما انتهكت أحيانا باسم الدين نفسه، وكان الأولى بالمفكر العالمي أن يفرق بين سلوكات الأفراد والجماعات والحكومات وبين أصول الدين ومراجعه التي تشرق بنصوص لو ترجمت إلى واقع لصعب مجاراته حضاريا، أما ما ذكر عن الانقسامات داخل الدين الإسلامي فهي ظاهرة طبيعية لاختلاف مشارب الناس الفكرية لكنهم بقوا متفقين على إله واحد وكتاب واحد ورسول واحد خلاف النصارى الذين تفرقت بهم السبل بعد قرن واحد من المسيح فاختلفوا حتى في طبيعة الإله المعبود عندهم وتعددت الكتب وتناقضت بالمئات وتباينت الكنائس وتحاربت وكلها مقدسة، وليس من الإنصاف أن نقرأ المجتمع الأوربي المسيحي فكريا وسياسيا ودينيا من خلال فاشية موسيليني أو نازية هتلر وكذا الحال لمن يقرأ الإسلام من خلال نظرات ضيقة أو مواقف حادة حدثت بلا شك، وبعضها كان كارثيا لكنها من الناحية الفكرية لا تشكل بين المسلمين حجما يذكر لولا تضخيم الخصوم له عالميا وإعلاميا، أما كون فوكوياما مفكرا فإنه لا يعني حصانته من أن يكون بنفسه ضحية غير مباشرة

لعمليات الغسيل التي قامت بها الآلية الإعلامية الضخمة لأمريكا بالتوازي مع الحملة العسكرية بعد أحداث سبتمبر، تلك الحملة الجائرة التي حجمت المؤسسات الخيرية وجمعيات البر والإغاثة الإنسانية ودور الأيتام، كل هذا يجعلنا نتفق مع فوكوياما عندما أقر في مكاشفاته بأنه (ليس متخصصا في شئون الإسلام ولا السعودية ولا الشرق الأوسط مما يعني عدم أخذ مستوى معرفته بهذه الأشياء كمؤشر صحيح) نص عبارته التي أنصف بها نفسه وقراءه. أما قوله بأن أمريكا خلقت وحشا في أفغانستان فأعتقد أن الصحيح هو أن أمريكا انقلبت وحشا كاسرا على حلفاء الأمس المسالمين لها فهي التي ضغطت على حلفائها السياسين بمحاسبة الأفغان العرب وإيداعهم السجون والمعتقلات مما جعل البقية الباقية منهم يتجنبون الرجوع إلى بلادهم باحثين عن جبهات جهاد أخرى لربما لا تسمح بها السياسة الأمريكة في تلك المرحلة كما كان الحال في أفغانستان، فوجد المحارب البطل نفسه مجرما في عين حليفه، مفارقة دفعت بأمريكا فيما بعد لمطاردتهم وتشريدهم وقتلهم، وكان من الطبيعي حدوث ردود فعل منهم طالما تخلى عنهم الجميع ونصبوا لهم المصايد، فأمريكا هي التي بدأت بتصفية المجاهدين سياسيا وجسديا قبل أن تسجل حوادث كبرى، فقصفت مصنع الشفاء السوداني الإنساني ودمرت مخيم خوست للاجئين الأفغان وقتلت العشرات من الأبرياء الأفغان بحثا عن ابن لادن وهذه التجاوزات حدثت قبل تفجيرات نيروبي ودار السلام، ولا أحداث سبتمبر ولا أحداث العنف الحادة التي تلت حملة أمريكا

ضد ما تسميه الأرهاب، ونتج عن هذا كل أحداث العنف الحالية التي طالت بلاد المسلمين وأرض الحرمين بسبب المواقف الأمريكية الوحشية ضد حلفاء الأمس، هذا وإن اختلفنا مع فوكوياما في بعض وجهات النظر التحليلية فإننا نستغرب بشدة من مثله استماتته غير المبررة في مكاشفاته للتقليل من أثر الانتهاكات الصارخة للحقوق والمواثيق الدولية عندما تطرق لمسألة استثناء الجنود الأمريكيين من المحاكمات، ومثلها الحال في معتقلات جوانتانامو وطبيعة المعتقلين هناك وحرمانهم من جميع الحقوق حيث يكاد يختفي القانون البشري وتتلاشى الإنسانية وتظهر صور مما كان يروى عن معسكرات الفاشيين والنازيين في الثلاثينيات من القرن الماضي، كل ذلك تمارسه دولة الحضارة المعاصرة دون أن يستنكر فعلتها المفكرون أمثال فوكوياما بدرجة توحي بإيمانهم بالمبادئ وترد للبشر بعض الأمل في أهلية الولايات المتحدة لقيادة العالم حضاريا، هذه الثغرة النهجية من مثل ضيفنا تعكس مدى تغلغل خوف الفمرك الأمريكي من السباحة ضد التيار أو المجاملة للسياسة العليا التي بات واضحا أنها تدار من قبل حفنة محدودة من المتطرفين الذين بتطرفهم هذا لم يحرجوا أمثال المفكر فوكوياما فحسب بل المجتمع الأمريكي بأسره حيث أصبح أمن آحاد المواطنين الأمريكيين في العالم إلى حد ما لا يختلف كثيرا عن أمن المسئولين المتشددين في الكابتول هيل، ومن هنا أصبح المواطن الأمريكي مستهدفا أينما ذهب وفريسة سهلة بين مطرقة

تطرف حكومته ومجاراة المفكر الأمريكي أمثال فوكوياما لسياساتها التي باتت مرفوضة إقليميا ودوليا وعالميا.

ناشط إصلاحي سعودي

(*) نشرت المداخلة بملحق (الرسالة) بصحيفة المدينة السعودية بتاريخ ١٤٢٦/٣/٢٠هـ الموافق ٢٩ أبريل ٢٠٠٥م

obeikandl.com

د.تركي الحمد× (١-٢)

فوكوياما في حواره مع (الرسالة) كان موضوعيا إلى حدّ كبير وأميناً مع ليبراليته وأتفق معه بدرجة كبيرة

- **"نهاية" التاريخ هي قاسم مشترك أكبر بين مختلف أنواع الإيديولوجيات الكبرى، وإن اختلف مضمون هذه النهاية.**
- **بمثل منطق المؤمنين بالإيديولوجيات الكبرى، قال فرانسيسكو فوكوياما بمقولة نهاية التاريخ، حاذياً حذو النعل بالنعل مقولات أوغسطين وهيغل وماركس ورايخ الألف عام.**

أخي عبدالعزيز قاسم مشرف ملحق (الرسالة)، دامت أوقاتك بالسعادة والخير.

طلبت مني التعليق على حوارك مع فرانسيس فوكوياما، وقد حرصت على القراءة غير أنني لم أجد ما أعلق عليه، فقد كان الرجل موضوعياً إلى حد كبير، ومتزناً في طرحه، وأميناً مع ليبراليته، ولذلك لا أجد إلا أن أتفق معه إلى درجة كبيرة فيما طرحه في المقابلة. ولكن المقابلة ليست كل شيء، ففوكوياما له طروحات قد يتناقض بعضها مع ما طرحه في المقابلة، ولذلك وجدت أنه من الأنسب أن أرفق لك بعضاً مما كتبت في الماضي

حول ذات الأفكار التي تدور حولها المقابلة، إذ لو كتبت رداً جديداً فهو لن يتعدى ذات الأفكار المرفقة. راجياً أن يكون في ذلك ما يفي بالغرض، ودمت لأخيك.

تركي الحمد.

تمهيد

بمثل منطق المؤمنين بالإيديولوجيات الكبرى، قال فرانسيسكو فوكوياما بمقولة نهاية التاريخ، حاذياً حذو النعل بالنعل مقولات أوغسطين وهيغل وماركس ورايخ الألف عام. انتصرت الليبرالية في النهاية، والديموقراطية الليبرالية تحديداً، ليس لأنها من طبيعة الأمور، فالأمور في النهاية لا طبيعة لها إلا ما نفترض نحن أنه طبيعة لها، ولا لأنها غير مؤدلجة أو نافية للإيديولوجيا، فهي بذاتها إيديولوجيا في النهاية، ولكن لأنها إيديولوجيا مستوعبة لكافة الإيديولوجيات، أي قائمة على أساس التعددية، بل يمكن القول إنها إيديولوجيا الإيديولوجيات من هذه الزاوية. قوة الليبرالية تكمن في كونها تقوم على فكرة محورية معينة هي فكرة التسامح و" التعايش " بين مختلف الإيديولوجيات والاتجاهات والنظرات. مشكلة الإيديولوجيات الأخرى، وخاصة تلك الكبرى التي عرفها التاريخ، تكمن في كونها نافية لبقية الإيديولوجيات، وقد يكون ذلك ضرورياً لتحقيق أهداف معينة في هذه اللحظة أو تلك من لحظات التاريخ، ولكن ما ا · تنتهي اللحظة - "نفي الآخر" كعب أخيل في هذه الإيديولوجيات. أما الليبرالية

فهي، ونظرياً على الأقل، إيديولوجيا حقيقتها المطلقة هي أنه لا حقيقة مطلقة، أي إنها تبقى نصاً مفتوحاً، على عكس النصوص المغلقة في بقية الإيديولوجيات. لذلك انتصرت الليبرالية في صراعها مع بقية الإيديولوجيات، مما أوحى للبعض بالقول بنهاية التاريخ، أو موت الايديولوجيا، بينما تعني الليبرالية حقيقة، ونظرياً على الأقل أيضاً، بداية للتاريخ، وإعادة الحياة للايديولوجيا، وإن كان ذلك بدون إيديولوجيا. بوضوح أكبر، يمكن القول إن الليبرالية هي إيديولوجيا واعية بذاتها الإيديولوجية، وهنا تكمن قوتها من حيث وعي القائلين بها أن كل شيء ممكن. وبإيجاز العبارة، فإن الليبرالية في النهاية هي إيديولوجيا تحرير الإيديولوجيا من الإيديولوجيا، وهذا ليس تلاعباً بالألفاظ بقدر ما هو تقرير حالة تاريخية معينة بأقل قدر من الإسهاب. نقطة الضعف الرئيسية في الإيديولوجيا الليبرالية لا تكمن في نسقها المفتوح، ولا في أفكارها الفلسفية، بقدر ما تكمن في المعبرين عنها، دولاً أو أفراداً أو جماعات، حين يمنحون مفاهيمها معاني مطلقة وفق ظروفهم ومحيطهم هم دون غيرهم، وبذلك يغلقون ما هو مفتوح أصلاً، ويزعزعون فكرة التعددية والتسامح والتعايش التي لا ليبرالية دونها. بمثل هذا الفعل، تتحول الليبرالية إلى إيديولوجيا بنص مغلق، مثلها مثل غيرها من إيديولوجيات، ويغيب الوعي عن معتنقيها من أنهم يمارسون فعلاً إيديولوجياً في النهاية مهما بلغ عمق الإيمان بالمقولات المطروحة، وبذلك تحكم على نفسها بالفناء في النهاية. وفي تقديري، وكمثل على ذلك، فإن السياسة الأميركية

في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر تسير في هذا الطريق، وتعيد العالم إلى صراع " القطعيات " والغيبوبة الإيديولجية حين يغيب الوعي عن البعد الإيديولوجي لما هو مؤدلج أصلاً، بعد أن كان يبدو أن التعايش بين البشر قد أصبح ممكناً لأول مرة في التاريخ، في ظل عولمة لها من السلبيات على البعض الشيء الكثير، ولكنها في النهاية تفرش الأرض وتمهد الطريق لمثل ذلك الوضع. (يتبع).

مفكر وكاتب سعودي

(*) نشرت المداخلة بملحق (الرسالة) بصحيفة المدينة السعودية بتاريخ ١٤٢٦/٣/٢٧هـ الموافق ٦ مايو ٢٠٠٥ م

Obeikandi.com

تركي الحمد مواصلا رؤيته حيال الليبرالية وطروحات مفكريها (٢-٢)

صراع الثقافات بين السياسة والتاريخ

- **هنتنجتون وفوكوياما يصلان إلى نتيجة واحدة وإن اختلفت بهما السبل لدرجة التناقض الظاهري وهي ضرورة استمرار سيادة الغرب حضارياً وسياسياً**

- **هذان المفكران يعبران عن طبيعة العقلية الأميركية التي تتعامل مع التفصيلات والمدى القصير في التحليل، ولكنها غير قادرة على بناء نظريات على المستوى الكلي**

يرى سامويل هنتنغتون في مقالته الشهيرة "صدام الحضارات"، والمنشورة في مجلة «فورين أفيرز» الأميركية، أن صراع الحضارات هو خليفة الحرب الباردة، وأن عالم ما بعد هذه الحرب وسقوط الاتحاد السوفيتي، سوف يكون عالماً منقسماً، وفي حالة صراع بين مراكز تحالفات حضارية (إسلامية، كونفوشيوسية، غربية.. إلخ)، وأن على صناع السياسة الخارجية في الغرب (وخاصة الولايات المتحدة، بصفتها مركز الحضارة الغربية حالياً) أن ينتبهوا إلى مثل هذه "الحقيقة"، وأن يخططوا لسياستهم الخارجية وفقاً لها، وبناءً على شعار شامل يرى هنتنغتون أن محتواه يجب أن يكون: "الغرب والبقية" The West and the Rest،

وذلك إذا كانت الغاية هي الحفاظ على استمرار السيادة الحضارية والسياسية للغرب[١].

وفي كتاب " نهاية التاريخ وخاتم البشر "، يرى فرانسيس فوكوياما، أن البشرية قد وصلت إلى نهاية رحلتها التاريخية، وذلك فيما يتعلق بالسياسة وأنظمة الحكم، بسقوط المعسكر الشيوعي، وانتصار الديموقراطية الليبرالية انتصاراً نهائياً، وعلى مستوى العالم أجمع. فالديموقراطية الليبرالية، وعلى رأي فوكوياما، خالية تقريباً من العيوب والشوائب، إذ "إنه بينما شابت أشكال الحكم السابقة عيوب خطيرة، وانتهاكات للعقل أدت في النهاية إلى سقوطها، فإن الديموقراطية الليبرالية قد يمكن القول بأنها خالية من مثل تلك التناقضات الأساسية الداخلية"[٢]. وبذلك، فإنه " لن تكون البشرية عندئذٍ ألف زهرة تتفتح في صور وأشكال متباينة، وإنما ستكون بمثابة قافلة طويلة من عربات متشابهة "[٣].

كلا الكاتبين يصلان إلى نتيجة واحدة في تقديري، وإن اختلفت بهما السبل لدرجة التناقض الظاهري، وهي ضرورة استمرار سيادة الغرب حضارياً وسياسياً. فساموبل ف.هنتنغتون يصل إلى هذه النتيجة عن طريق "ما يجب أن يكون عليه الوضع"،

---

(١) Samuel P. Huntington. The Clash of Civilizations, in the Summer 1993 issue of Foreign Affairs.

(٢) فرانسيس فوكوياما. نهاية التاريخ وخاتم البشر (القاهرة: مركز الأهرام للترجمة والنشر، ١٩٩٣)، صفحة ٨ .

(٣) المرجع نفسه، ٢٩٣ .

وذلك حين يفصل فصلاً قاطعاً بين الغرب والبقية، ويضع الحضارة الغربية في مواجهة صراعية مع بقية الحضارات التاريخية في هذا العالم، ويطلب من صانعي القرار في دول الغرب أن يأخذوا هذه الفكرة، بصفتها "حقيقة"، في الاعتبار، والعمل على استمرار السيادة الغربية عن طريق إقامة تحالفات "حضارية" بين دول الغرب ذات الثقافة المشتركة مع الولايات المتحدة بصفة خاصة[١]. أما فرانسيس فوكوياما فيصل إلى ذات النتيجة عن طريق ما يعتبره من مسائل الحتم والضرورة، وذلك حين يحاول فلسفة انهيار الكتلة الاشتراكية وانتهاء الحرب الباردة تاريخياً، بحيث يعلن أن انتصار الديموقراطية الغربية والمشروع الحر هو نهاية للتاريخ، وأن سيادة الغرب الرأسمالي والديموقراطي قد أصبحت نهائية، ولا مجال لتغيرات جذرية عميقة في التاريخ القادم للإنسان. التغيرات القادمة لن تعدو التفاصيل، ومدى سرعة الدول والشعوب الأخرى في الوصول إلى النموذج النهائي، أي النموذج الغربي.

وبتحليل مضمون ومنهج أطروحات الكاتبين، نجد أنها قد ركزت في تحليلها على المدى القصير، مع كم هائل من المعلومات التفصيلية الثرية فعلاً، والمفيدة فعلاً حين أخذ المدى القصير في الاعتبار، ولكنها غير مفيدة كثيراً حين محاولة بناء نظرية في فلسفة التاريخ تعتمد على المدى الطويل. والحقيقة أن الكاتبين

---

(١) Samuel P. Huntington. If not Civilizations, What?: Paradigms of Post Cold War World, in the November-December, 1993 issue of Foreign Affairs.

يعبران عن طبيعة العقلية الأميركية، التي تتعامل مع التفصيلات والمعلومات الوفيرة والمدى القصير في التحليل، ولكنها غير قادرة على التعامل مع المدى الطويل، وبناء نظريات على المستوى الكلي تحتاج إلى التحليل فعلاً، ولكنها بحاجة إلى التركيب أكثر. ومن ناحية أخرى، فإن التزام الكاتبين بالمدى القصير في التحليل، واستخلاص نتائج عامة من معلومات تفصيلية خاصة، مسألة طبيعية حين نعلم أنهما متخصصان أساساً في الدراسات السياسية الاستراتيجية، ذات العلاقة المباشرة بصنع القرار السياسي في الولايات المتحدة الأميركية. وكما هو معروف فإن القرار السياسي العملي ينطلق من مصالح آنية أو قصيرة المدى، ولكنه لا يأخذ في اعتباره التاريخ ككل كوحدة تحليل، أو فترة زمنية طويلة المدى، وخاصة في بلد مثل الولايات المتحدة، على خلاف بيّن مع العقلية السياسية الأوروبية. ومن هنا كان الخلل في النتائج التي توصل إليه الباحثان على عجلة من أمرهما كما يبدو، وتأثراً بالانهيار السريع للكتلة الشرقية والاتحاد السوفيتي[1]. كلا الكاتبين انطلق من حدث سياسي معين، وخرج منه بنتائج عامة، بل ومطلقة، ووفق آليات تفكير رغبوية تتعلق بمصير ومستقبل البشرية جمعاء، رغم أن "التاريخ لا يسير على قضبان نحو مستقبل تم تحديده سلفاً"، وذلك كما يقول إلفن توفلر[2].

---

(١) هنتينغتون أستاذ علم الحكومة، ومدير معهد جون أولين للدراسات الاستراتيجية في جامعة هارفرد. فوكوياما كان نائباً مدير مجموعة تخطيط السياسة بوزارة الخارجية الأميركية.

(٢) إلفن توفلر. تحول السلطة: العنف والثروة والمعرفة (مصراتة: الدار الجماهيرية، ١٩٩٢).

فهنتنغتون يفترض في تحليله أن ظاهرة الصراع الثقافي بين الجماعات البشرية ـ وهو يسميها خطأً صراع الحضارات ـ بعد انتهاء الحرب الباردة هي ظاهرة شاملة وباقية، وهي بالتالي من يحدد شكل العالم القادم من رحم هذه التحولات. وفوكوياما يفترض أن انتصار الليبرالية، السياسية والاقتصادية، نتيجة نهائية لا عودة عنها. كلا الكاتبين، وكما يبدو، كان يقوم بإرسال رسالة خاصة إلى صانعي السياسة الخارجية الأميركية، موحياً فيها بما يجب أن تكون عليه هذه السياسة بعد الحرب الباردة. فالأول يقول لسان حاله، وفي رسالته الضمنية: " هناك صراع حضارات، ويجب أن تُقيموا أحلافاً جديدة ومختلفة في طبيعتها عن الأحلاف السابقة، من أجل استمرارية الحفاظ على السيادة العالمية ". أما الثاني، فلسان حاله يقول: "إن الانتصار نهائي هذه المرة، وبالضربة القاضية، مهما يبدو الأمر خلاف ذلك، وعليكم استغلال هذا الانتصار لجلب كل الأمم والشعوب إلى مائدة الليبرالية". الخلاصة هي أن كلا الكاتبين يكتب وفي ذهنه تخطيط معين، ومشروع معين للسياسة الخارجية الأميركية في مرحلة ما بعد الحرب الباردة، وبشكل واضح ومباشر، وليس انطلاقاً من أسس معرفية صرفة، قد تتضمن توجهات وتوجيهات سياسية معينة، ولكنها لا تقول ذلك مباشرة، كما في الحالة التي بين أيدينا.

هذا لا يعني عدم وجود صراع بين الثقافات المختلفة، سواء في الماضي أو في الحاضر، ولا يعني أيضاً نفي حقيقة انتصار الليبرالية اليوم. كل ذلك مدرك ولا يمكن نفيه، ولكن السؤال هو:

هل أن مثل هذه النتائج مطلقة وسرمدية، كما هو مضمون أطروحات الكاتبين؟ في القرن التاسع عشر، حاول هيغل وابنه الروحي العاق ماركس أن يتنبأا بنهاية التاريخ، أو أن ينظرا لنهاية التاريخ حقيقة، اعتماداً على أحداث سياسية معينة، مخالفين بذلك ذات المنهج الذي تبنياه وطوراه، والذي لا مكان فيه للنهايات المطلقة منطقياً ومعرفياً، وبعيداً عن السياسة ودهاليزها أعلن هيغل عن نهاية التاريخ بقيام الدولة القومية البروسية، وأعلن ماركس عن قرب نهاية التاريخ المعروف، وبداية التاريخ الإنساني الحقيقي حين أكد على أن الرأسمالية قد وصلت إلى حافة الانفجار بفعل تناقضاتها الداخلية، وخاصة التناقض بين نمط الانتاج الجماعي ونمط الملكية الفردي، وما سيؤدي إليه ذلك من انبثاق مملكة الإنسان ـ الشيوعية ـ حيث تنحل التناقضات، وينتهي التاريخ المعروف، أو فترة ما قبل التاريخ وفقاً للمقولات الماركسية. ونحن نعلم اليوم أن القومية لم تكن نهاية المطاف وخاتمة التاريخ، بل إننا نعيش اليوم في بداية مرحلة العولمة وما بعد القومية، وخاصة في عالم الغرب، ولم تكن المرحلة القومية إلا مرحلة مثل غيرها من مراحل التاريخ، غير متسامية عليه، أو منفكة من قيود الزمان والمكان.

كما نعلم أيضاً أن الرأسمالية لم تنهرْ نتيجة تناقضاتها البنيوية الداخلية التي تحدث عنها ماركس، وراهن عليها الماركسيون، بل إنها طورت من ذات نفسها وفق آليات أخرى، وأصبحت هي ذاتها تمثل نهاية للتاريخ بالنسبة للبعض.

والحقيقة أن فلسفات نهاية التاريخ، والقائمة على الاستنتاج من حادثة معينة، أو عدة حوادث فردية، كثيرة. ولعل من أبرز هذه الفلسفات تلك النظريات الدينية التي تحاول أن تفلسف التاريخ وفقاً لرؤية دينية معينة، وذلك مثل ما فعل القديس أوغسطين في كتابه "مدينة الرب"، استناداً إلى، واستنتاجاً من حادثة سقوط روما، وانهيار الإمبراطورية الرومانية الغربية. ونستطيع أن نعمم في هذا المجال فرضية مؤداها أن الشعوب غالباً ما تميل إلى الاعتقاد بفكرة "نهاية التاريخ" في حالتين: حالة الانتصار، وحالة الانكسار. ففي الحالة الأولى، يكون التاريخ قد انتهى بوصوله إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه البشر من رقي وحضارة وتطور، وهو ما نراه في الفلسفات القومية بشكل عام. وفي الحالة الثانية، يكون العالم على وشك النهاية، وهذا ما تعبر عنه الفلسفات الدينية غالب الأحوال(١).

بشكل عام، فإنه يمكن القول بشيء من الثقة، إن الأحداث السياسية قد تدفع المعايش لها إلى الخروج بنتائج واستنتاجات سريعة، تأثراً بالحدث المعيش، توضع في إطار من فلسفة كاملة للتاريخ. ولكن حين سبر مثل هذه " الفلسفات " وفق نظرة شاملة لمسار التاريخ، وبعد أن ينتهي الأثر المباشر للحدث، فإن دحض نتائج مثل تلك الفلسفات لا يكون غالباً بالأمر العسير. فلو أن أحدهم ممن يستعجلون الاستنتاج، ويخرجون بنتائج مطلقة

(١) البان ج. ويدجيري. المذاهب الكبرى في التاريخ (بيروت: دار القلم، ١٩٧٩).

يضعونها في إطار فلسفة معينة للتاريخ استناداً إلى حادثة سياسية معينة، كان يعيش في أوروبا مثلاً أيام الصراعات الدينية، أو أيام الصراعات القومية، أو أيام عصر الثورات، فربما خرج بنتائج مطلقة مفادها أن صراع الأديان أو المذاهب أو القوميات أو الطبقات، وفقاً للعصر الذي عاشه، هو المحدد لمصير العالم، وطبيعة العلاقات بين الشعوب والمجتمعات والدول والأمم. ولكن الذي حدث في واقع الحال والتاريخ هو أن الصراعات الدينية الدموية في أوروبا قد أدت إلى انبثاق فكرة " التسامح " في النهاية. وانتهت الصراعات الطبقية إلى انبثاق فكرة " المشاركة "، والصراعات القومية إلى انبثاق فكرة "التعاون"، في انقلاب جذري كبير لطبيعة العلاقات التي كانت سائدة قبل ذلك. ولو كان أحدهم يعيش في ظل الإمبراطورية الرومانية أيام ازدهارها، أو الخلافة الإسلامية أيام سيادتها، فهل كان بإمكانه إلا أن يعتقد أن هذه هي نهاية التاريخ "وخاتم البشر"؟ وربما كانت مقولة " لم يترك الأوائل للأواخر شيئاً "، خير تعبير عما نرمي إليه في هذه النقطة، رغم العلم أن الأواخر قد أتوا في النهاية بما لم تأتِ به الأوائل. والسؤال هنا هو: هل كان بإمكان صاحب النظرة الآنية والتنظير السريع أن يتوقع مثل هذا التحول الجذري، ومن النقيض إلى النقيض؟ أو أن يتوقع انهيار ما كان يظنه كاملاً؟ أو أن يكون ما ظنه نهاية هو البداية؟ بهذا المنطق يمكن أن نحلل العلاقة بين الجماعات البشرية، بعيداً عن آنية هنتنغتون واستعجالية فوكوياما مثلاً.

فالحضارة الإنسانية هي كلٌّ واحد لا يتجزأ في جوهره، وإن تجزأ في مراحله التاريخية، وأماكن وجوده، من حيث إنها عمارة للأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة، ٣٠). فالعمران البشري، وفقاً لمفردات ابن خلدون، لا يختلف في جوهره، وإن اختلف في تجلياته وأشكاله، وفقاً للثقافة التي يتأطر ذلك العمران في ظلها. فالحضارة الإنسانية، وفق هذا الفهم، وكما يرى أرنولد توينبي، ذات مسار تصاعدي مستمر، إذا ما نظر إليها وفق منظور تاريخي شامل، رغم أن كل حضارة تمر بدور الولادة والتطور والتعطيل[1]. فالحضارة الآفلة تعطي شعلة " بروميثوس " لحضارة صاعدة، وتكون النتيجة صعوداً عاماً للحضارة الإنسانية ككل. فالحضارات متحاورة ومتشابكة بطبيعتها، طالما أنها ذات جوهر واحد هو عمارة الأرض، وبشكل غير محسوس مباشرة أغلب الأحيان، ولكن المشكلة تكمن في حوار الثقافات، والتي هي، وعلى عكس العلاقة بين الحضارات، في حالة توتر تجاه بعضها البعض في لحظات كثيرة من التاريخ، وللسياسة دور كبير في ذلك.

هناك تعددية ثقافية في هذا العالم، لا شك في ذلك. وهناك صراع بين هذه الثقافات، يحدث بين فينة وفينة، مسألة لا خلاف عليها في تقديري. ولكن كل ذلك لا يعني أن الصراع هو خاتمة

(١) جورج حنا. الحقيقة الحضارية (بيروت: دار العلم للملايين، ١٩٥٨)، ص ١٥ - ٢٠.

المطاف، أو جوهر العلاقات بين البشر، وهي تلك العلاقات التي وصفها القرآن الكريم بالقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات، ١١٣). والتعارف هنا هو الحوار ذاته، فلا حوار بدون علاقات، ولا علاقات بدون تعارف، ولا تعارف بدون حوار: دائرة أولها هو ذات آخرها. المشكلة دائماً تكمن في " التسييس " المفرط للأمور، وآفة الأمور السياسة في هذا المجال. فالصراع الذي يقوم بين الثقافات المختلفة في مختلف مراحل التاريخ، يكون غالباً متعلقاً بدوافع ومنطلقات سياسية بحتة، لا تبقى أبد الدهر، ولكنها تسمم مسار الحوار بين الثقافات في هذه المرحلة أو تلك. أما ذات الحوار بين الثقافات، فهو الذي يبقى ويستمر، وإن كان طويل المدى تاريخياً، ولا يتبين أثره إلا بعد أن تزول الحساسيات السياسية، وذاك التعصب الذي تخلقه السياسة قبل أن تكون الثقافات هي المسؤولة عنه.

فمثلاً: الاستعمار بغيض وكريه، ولكنه لا يخلو من إيجابيات معينة حين تكون النظرة التاريخية البعيدة المدى هي الدليل في العمل والتحليل. فعندما جاء الاستعمار وهو يحمل نظرة متعالية، وبشعار إيديولوجي تبريري يحمل عنوان "عبء الرجل الأبيض" في تحضير الشعوب "المتخلفة"، أو عندما كانت الحملات الكبرى في التاريخ تحتل البلاد وتقهر الشعوب بمنطق ذات الحجة والنظرة المتعالية، كانت هناك ردات فعل ثقافية من قبل المستعمرين تدور حول مفاهيم الهوية والوطن والاستقلال وحقوق الشعوب، ونحو

ذلك من مفاهيم هي ذاتها نتاج ثقافي لحضارة المستعمِر ذاته. فإذا كان الاستعمار قد جاء بالقهر والاستغلال والاحتلال والنظرة الفوقية المتعالية في التعامل مع الشعوب الأخرى، فإنه أيضاً جاء بمفاهيم جديدة دخلت في نسيج الثقافة المغزوة، وكان لها الدور الأكبر في مقارعته ومن ثم طرده. كما أن الاستعمار ذاته، ورغم نظرته المتعالية وتعامله الفوقي، فإنه في النهاية يكتسب شيئاً من ثقافة من قام باستعمارهم وإخضاعهم، وبشكل لا شعوري وغير محسوس في غالب الأحيان. النظرة الآنية تبين لنا أن الصراع المباشر هو حالة سياسية آنية، أما التداخل والتفاعل والتشابك الطويل بين الثقافات، فهو الثابت التاريخي الوحيد إلى حد كبير، وهذا هو ما يفترض على أصحاب الوعي أن يبشروا به، بعيداً عن مرارات السياسة وحزازات التعصب الأعمى.

وإذا كانت الصراعات التاريخية في المجتمع الواحد قد وصلت في الخاتمة إلى نوع من إطار اجتماعي، أو حتى نوع من عقد اجتماعي، يتم التعامل بين الفرقاء من خلاله، ووفق مبادئ ومفاهيم مثل التسامح والحوار والحرية والحقوق المتساوية للجميع، فإن ذات الشيء يمكن أن يحدث على مستوى العالم ككل، وبين الفرقاء في المجتمع الدولي. فالأحادية الثقافية التي يبشر بها البعض مثل فوكوياما، أو يسعى إليها البعض مثل هنتينغتون، غير قابلة للصمود تاريخياً، لأن التعددية والاختلاف هي طبيعة في الناس والأشياء، ولأن التاريخ " نص مفتوح " لكل الاحتمالات، طالما أن الإنسان لم يصل إلى ما يمكن أن نسميه مرحلة الكمال، ولكنه

يحاول، وفي المحاولة يكمن سر الحضارة وصنعها. أما من يفترض أن الكمال المطلق ممكن في عالم الإنسان، فينطبق عليه قول الفارابي: " من رفع نفسه فوق قدرها، صارت محجوبة عن نيل كمالها ". وفي هذه الجملة يكمن تفسير انهيار الحضارات بعد وصولها إلى القمة، بافتراض واهم من أنه ليس بالإمكان أفضل مما كان، وهنا تكمن مشكلة العقل وتكمن مشكلة الإنسان.

قد يكون ما ذهبنا إليه في هذه العجالة، نوع من التبشير شبه عقيم، أو لنقل: فيه من الطوباوية الشيء الكثير، في مثل الظروف التي نعيشها هذه الأيام. ليس هذا هو المهم، المهم هو أن نلقي بالبذور المناسبة في الحقل، فمن يدري متى تأتي الظروف الملائمة لنمو مثل هذه البذور. فالأمل يبقى دائماً مهماز الحياة، والإيمان بمستقبل أجمل وأفضل يبقى هو الدافع للحياة ذاتها.

(*) نشرت المداخلة بملحق (الرسالة) بصحيفة المدينة السعودية بتاريخ ١٤٢٦/٤/٥هـ الموافق ١٣ مايو ٢٠٠٥ م

د. عوض القرني(*):

فوكوياما والقفز فوق الحقائق

- **إننا نتمنى على فلاسفة الحريات ومفكري حقوق الإنسان أن تتحول الشعارات إلى حقائق وألاّ يكونوا مجرد حارقي بخور لثعالب السياسة وتماسيح المال وأعداء الحياة.**

- **يعتبر فوكوياما وجود الأقليات المسلمة في روسيا وأوروبا وأمريكا خطراً على العالم وإنني أتساءل هنا: هل هذا دعوة لتطهير عرقي أم هو دعوة لإعادة محاكم التفتيش؟**

كعادة "الرسالة" الغراء والمشرف عليها اللاّمع نتحف بكل جديد، وكان الجديد هذه المرة اللقاء الصريح الجيد مع المفكر الأمريكي الياباني الأصل فوكوياما.

وإنني بعد أن فرغت من قراءة اللقاء تداعت في ذهني العديد من الأفكار والملحوظات ذات العلاقة باللقاء إمّا مباشرة أو بصورة غير مباشرة ورغبة مني في طرحها للمناقشة والتقويم والتداول حولها أحببت عرضها على صفحات "الرسالة" وكذلك لعلها أن تبلغ سمع فوكوياما فيتعامل مع أفكارنا ورؤانا مباشرة كما هي لا كما يفترضها بغير دليل ولا برهان وهذه أهم ملحوظاتي حول الموضوع: -

أولاً: يقول فوكوياما: "أعتقد أن هناك علاقة بين التعاليم المسيحية القائلة بالمساواة الشاملة بين البشر والتي أخذت شكلا

obeikandi.com

علمانيا في وقت ما في التاريخ الأوروبي والديمقراطية وهكذا المفكرون الغربيون غالبا كما فوكوياما هنا، ينطلقون في فهم العالم والحكم عليه والتعامل معه من خلال خارطة ذهنية ذات جذور مسيحية وتطورات علمانية يفترضون أن العالم يجب أن يتطابق معها وإلا فهو الشر وما يجب إزالته، ولذلك يطالب فوكوياما المسلمين بتطوير الإسلام نحو العلمانية كما طورت المسيحية بل إنه يرى ذلك حتميا لا مفر منه.

ويرى أن المعركة الحقيقية أمام المسلمين هي إعادة تفسير الإسلام نفسه وتفريغه من حقائقه الكبرى ليرضى عنا الغرب عموما وأمريكا بالأخص، ويحرّض المثقفين السعوديين على اقتحام هذه المعركة كما سماها. إنه يحرض مع الأسف على الفتنة والصراع في داخلنا دون أن يكلف نفسه عناء دراسة الإسلام والمجتمع السعودي دراسة معمقة كما اعترف هو ودون أن يفترض أن من حق الآخرين الاختيار لأنفسهم بعيدا عن الخيار الأمريكي، وهنا لي وقفة حيث إن الفكر الغربي عموماً والمدرسة الأمريكية خصوصاً يزعمون دائماً الموضوعية والحيادية والعلمية حيال أي قضية من القضايا، ونحن وإن كنا لا ننكر ذلك في بعضهم بدرجات متفاوتة إلاّ أن الوقائع والأحداث والوثائق والأدلة والبراهين تثبت خلاف ذلك في حق أكثرهم عند التعامل مع الأمم والأديان والقضايا والأحداث غير الغربية، فهو في عمومه فكر وثقافة إمّا نصرانية موغلة في كنسيّتها وزعمها احتكار الحقيقة أو علمانية أياً كان مذهبها موغلة في تزمتها الأيديولوجي وعنصريتها العرقية

ورفضها وإقصائها للآخر سواء كان هذا الآخر دينياً أو عرقياً أو حضارياً وإن تظاهرت بخلاف ذلك بل إن ما ظهر لنا من كلام فوكوياما يؤكد أن المفكر الغربي ليس لديه الاستعداد النفسي لسماع الآخر ومعرفة ما عنده قبل إصدار الأحكام النهائية في حقه، بل في حق مسيرة الإنسان والحياة، فها هو فوكوياما يؤكد بشكل جازم ألا بديل للحداثة الغربية، ويؤكد كذلك أنه ليس أمام المجتمعات التي تريد أن تكون حديثة من خيار سوى اقتصاد السوق والديمقراطية السياسية ويجزم بأن الإسلام لا يمكن أن يكون بديلا حضاريا مقبولا يجذب مجتمعات إنسانية متقدمة لتبني أسلوب حياته والعيش فيه، وهكذا تتنقل بنا العلمانية الغربية بجذورها النصرانية بين حتميات الماركسية وحتميات الليبرالية في نهاية التاريخ.

وهكذا تتجلى هذه الرؤية العنصرية الضيّقة البغيضة في الممارسات والإسقاطات السياسية والاجتماعية والاقتصادية ذات العلاقة بالآخر على مستوى الأديان والشعوب والثقافات أو حتى الأقليات التي تعيش في الغرب، ولو ذهبنا نستعرض قائمة التجليات الحيّة والمشاهدة في الواقع لكانت سجلات طويلة، وخذ من أمثلة ذلك في سياقات ومواقع مختلفة:

١- وأنا أكتب هذه الكلمات يذاع في الأخبار أن جندياً أمريكياً مسلماً قتل ضابطين أمريكيين في الكويت قبل سنتين تقريباً يحكم عليه بالإعدام. بينما قبل أيام حوكم ضابط أمريكي أعدم وقتل بدم بارد مدنيين عراقيين بعد أن عصب أعينهم

obeikandl.com

وكبلهم فحكم عليه بالسجن بضعة أشهر بل إن بعض المحامين الأمريكيين مدحوا هذا الضابط وقالوا: إنه تصرّف بشجاعة، هذا على مستوى القضاء والقانون العادل والنزيه طبعاً!!!

٢- ما تعرض له المسلمون من إذلال واضطهاد وتعامل عنصري في الجامعات والشوارع والمطارات بل وفي السجون والمحاكم بعد أحداث سبتمبر، وقد نال هذا الاضطهاد الرجال والنساء والأطفال والمساجد والمؤسسات الإعلامية والتجارية والخيرية وإلى آخر القائمة. بل إن دولة تزعم بأنها النموذج الذي يجب أن يحتذى عالمياً ويرى فوكوياما أن نموذجها هو نهاية التاريخ لم تجد أي حرج ولم يرفّ لحماة العدالة فيها أي جفن وهم يصدرون قانون الأدلة السرية الذي يجيز اعتقال الشخص من غير محاكمة دون أن يعلم هو ما هي تهمته أو ما هي أدلة هذه التهمة ولا يعلم بذلك محاميه ولا المحكمة التي قد يُعرض المتهم عليها وطبعاً هذا القانون لم يطبّق بل لم يصدر أصلاً إلاّ من أجل المسلمين، فقد فُصِّل لهم بصورة خاصة، وهكذا تذهب دعاوى حقوق الإنسان أدراج الرياح، وفي هذا السياق يعتبر فوكوياما وجود الأقليات المسلمة في روسيا وأوروبا وأمريكا خطراً حقيقيا على العالم، وإنني أتساءل هنا: هل هذا دعوة لتطهير عرقي أم هو دعوة لإعادة محاكم التفتيش مرة أخرى التي نراها بصورة أو أخرى في غوانتانامو وأبو غريب بل في داخل أمريكا نفسها وفي بعض دول أوروبا بصورة أقل؟

٣- وعلى مستوى حق الشعوب في تقرير مصيرها نرى الغرب بقضه وقضيضه بقيادة أمريكا يضغط على إندونيسيا المسلمة

ذات المائتي مليون لتسمح باستقلال تيمور الشرقية عنها التي لا يبلغ سكانها نصف مليون نصراني، ومثل ذلك جنوب السودان والحجة أنه حق تقرير المصير المقدس. لكن حين يتعلق الأمر بالشعوب المسلمة المضطهدة المطالبة بحريتها واستقلالها توصم هذه المطالب بالإرهاب وتهديد الأمن والسلم الدولي، فيقتل القادة ويباد الملايين وتدمّر الأوطان وتغتصب النساء بمئات الآلاف، ويهلك الحرث والنسل وتستخدم ضدهم الأسلحة المحرّمة دولياً، وخذ أمثلة على ذلك قضايا كشمير والشيشان وكوسوفا والبوسنة وجنوب الفلبين وغير ذلك كثير.

٤- ما تتعرض له شعوبنا وأوطاننا من غزو استعماري استيطاني تتساقط أمامه كل دعاوى الحرية والديمقراطية والحضارة والسلام العالمي لتصبح أمام حقائق الواقع ومعطياته مجرد أساطير وأوهام وترهات لا يصدق بها إلا من فقد عقله أو كذب على نفسه وخذ مثالاً صارخاً على ذلك احتلال فلسطين واحتلال العراق، ففي فلسطين نرى انحياز الغرب عبر تاريخ القضية لإسرائيل مع تبادل الأدوار بين فترة وأخرى من بلد لآخر واقتلاع شعب بأكمله من أرضه وتهجيره في آفاق الأرض وملاحقته بالقتل والدمار وإحلال شراذم من مختلف شعوب الأرض محله ومدهم بالمال والسلاح وأسباب الحياة الأخرى والإصرار على فرض هيمنتهم وقوتهم على المنطقة وأهلها تحت ذرائع ودعاوى أسطورية يكذبها العقل والعدل وحقائق التاريخ ومعطيات العلم.

وفي العراق تنتهك سيادة دولة عضو في الأمم المتحدة مع معارضة مجلس الأمن وتحت دعاوى ثبت بعد ذلك كذبها بناءً على

التحقيق الذي أجرته دولة الاعتداء نفسها ثم بعد ذلك يتهم الفلسطينيون والعراقيون بالإرهاب.

وليت شعري هل الإرهابي من يدافع عن أرضه وعرضه وشعبه ومقدساته أم أن الإرهابي هو من يجيّش الجيوش ويحشد الأساطيل ويدك المدن والقرى ويقتل مئات الآلاف وينهب الثروات؟

إننا نتمنى على فلاسفة الحريات ومفكري حقوق الإنسان المزعومين الذين يرون في أنفسهم الأهلية لتعليم الشعوب ويظنون أنهم يشكلون إغراء للأمم لترك خصوصياتها والتخلي عنها واعتناق ديمقراطيتهم المزعومة وليبراليتهم المدعاة لكي يدخلوا مع الداخلين في مرحلة ما قبل التاريخ آسف نهاية التاريخ، إننا نتمنى عليهم أن تتحول الشعارات إلى حقائق وألاّ يكونوا مجرد حارقي بخور لثعالب السياسة وتماسيح المال وأعداء الحياة. إن الخداع قد ولى زمنه وإن التضليل ضعيف أثره فهلاّ نفتح بجد وصدق أبواب الحوار والتفاهم في ظل الاحترام المتبادل وحفظ الحقوق.

يا أساتذة الحضارة!!! إن كل ذي عقل حُر وفطرة سليمة وضمير حي لا يمكن أن يرضى بما تمارسونه على هذه الشعوب من ظلم واضطهاد حتى لو كان يمارس ضد الكلاب والخنازير.

وها أنتم تحاكمون من يقتل فيلاً في غابات أفريقيا أو حوتاً في سواحل استراليا، لكنكم لا تجدون حرجاً في إبادة مئات الآلاف في العراق وأفغانستان وغيرها. ألا يعتقد الأستاذ فوكوياما أنهم يجرّون البشرية نحو هلاك محقق ودمار أكيد؟

إنني أجزم أن صاحب نظرية نهاية التاريخ لم يقرأ التاريخ إلا قراءة انتقائية مغرضة ولم يفقه فلسفته ولا تفسيره ولا سننه إلا وفق أحكام مسبقة وغير نزيهة ولا محايدة.

إنني افترض نقيض ما وصل إليه بدراسته، إن عدل الله سبحانه وتعالى وإنَّ سننه التي لا تحابي أحداً وإن دعوات المظلومين وغضب المقهورين كل ذلك ينبئ بسقوط مريع للقوة الأمريكية الامبريالية الغاشمة والمعتمدة على البطش العسكري والاستبداد والوعيد، إن التاريخ يا أستاذ فوكوياما يخبرنا يقيناً أن القوة الظالمة تسقط في نهاية المطاف، وأن الضعيف المظلوم ينتصر في النهاية، والعبرة بالنهايات لا بالبدايات وقد يكون السقوط اجتماعياً وقد يكون اقتصادياً وقد يكون بكارثة طبيعية وقد يكون بغيرها، فهل تستيقظون من غفلتكم قبل فوات الأوان؟

نعم تستطيعون أن تقتلوا الفلاحين من الأفغان والعراقيين في ليالي أعراسهم ويكون من القتلى العريسان ثم تعرضون تعويضاً لكل قتيل أربعمائة دولار هذا إن لم تصرّوا على أنهم يستحقون القتل لأنهم أطلقوا رصاصة من بندقية قديمة ابتهاجاً بالعرس، وكان وقت إطلاق الرصاصة صادف مرور قمر صناعي من على بعد مئات الأميال في السماء لتصوير الذر على الأرض، وعلى الفور تحرّكت قاذفاتكم العملاقة لتحوّل فرح الإرهابيين إلى مأتم!!

ألم تتساءلوا في أمريكا: لماذا ملايين الشباب في أفريقيا وآسيا وأمريكا الجنوبية يعلقون صور ابن لادن على قمصانهم مع

أنه قطعاً لا يشكل البديل ولا الخيار الأفضل لهم؟ هل هناك من سبب سوى أنه قال لأمريكا: لا؟

إن للسياسيين حساباتهم وإن للعلماء والمثقفين موازناتهم ومقاييسهم ولكن الشعوب المظلومة تحركها عواطفها وحاجاتها فهل فيكم يا قوم رجل رشيد؟

عن أي القضايا تريد أن نتحدث يا أستاذ؟ عن غض الطرف عن المشاريع النووية الاسرائيلية بل التأييد لها والدعم لمشاريعها بينما تلاحقون حتى بالأكاذيب أي مشروع نووي في العالم الإسلامي كما في إيران والباكستان وغيرها.

ثانيا: لقد أقر فوكوياما في أكثر من إجابة بجهله بل وجهل الأمريكان عموما بالسعودية والكارثة أنهم يظنون أنهم يعلمون عنا كل شيء بينما - كما يقول - تبين أنهم فقط يعرفون من يتعامل معهم من المثقفين السعوديين الذين درسوا في أمريكا، ولكن ليته وهو يقدم هذا الاعتراف النادر توقف عنده ولم يتحول بعد قليل إلى الإفتاء بأن الإسلام لا يصلح ليكون بديلاً حضارياً جذاباً ويعتبر أن تطبيق الإسلام هو نظام طالبان والسعودية التي لا يرغب أي إنسان في العيش في ظلها من وجهة نظره، فهو لم يكتف بالجهل بل أضاف له الصفاقة والاستعلاء والإلغاء، وهذه المشكلة لا يعاني منها فوكوياما وحده؛ إذ إن الملاحظ على جل المفكرين الغربيين الجهل بأوضاع المنطقة وحقائق وجودها وتاريخها بغض النظر عن مواقفهم بعد ذلك وهذا الجهل انسحب بعد ذلك، إلى

مواقف وقرارات السياسيين وبرامج الإعلام وبالتالي توجهات الرأي العام الغربي وعلاقاتهم مع منطقتنا وقضاياها والأمثلة على ذلك كثيرة منها:

١- ها هو بلير يقدم للإدارة الأمريكية تقريراً استخباراتياً بزعمه عن أسلحة الدمار الشامل في العراق ويقدمه باول لمجلس الأمن ثم تتكشف الفضيحة بعد ذلك بأن ذلك جزء من كتابة صحفية أو شبه بحث أعده قبل سنوات أحد الصحفيين العرب الذين يعيشون في الغرب ليتكسب به من بعض المطبوعات الغربية.

٢- وها هي معاهد ومراكز الدراسات الرسمية وشبه الرسمية في أمريكا تطلق التهم جزافا للثقافة والمناهج السعودية وأنها هي صانعة الإرهاب ومفرخة التطرف، ونسأل: هل هذه التهم والتي صدرت من مراكز بحوث ودراسات المفترض أن تكون علمية قد اعتمدت على البحث العلمي الموضوعي الموثق والنزيه والمحايد؟ وستفاجأ عندما يكون الدليل أن بضعة أفراد سعوديين شاركوا في أحداث سبتمبر.

بينما الملايين ممن نهلوا من هذه الثقافة وتربوا على هذه المناهج لا يصلحون أن يكونوا دليلاً على وسطية هذه المناهج وإنسانية هذه الثقافة.

ولو كانت هذه المراكز والمعاهد علمية حقا لمدّت أعينها لمناهج وثقافات عنصرية ترى أن البشر من غير عرق محدد هم حيوانات في صورة بشر ليمكن الاستفادة منهم في خدمة شعب الله المختار، ولو كانت هذه المراكز علمية حقا لقالت إن ظلم

الصهاينة والأمريكان لغيرهم من الشعوب والأمم هو السبب الأول في ظاهرة الإرهاب.

٣- عند حديث المفكرين والساسة عما يسمونه الظاهرة الإسلامية يأتون بالعجب العجاب في الخلط وضحالة المعلومات والمغالطة في نسبة الأفكار بل والأشخاص إلى ذلك التيار أو تلك الجماعة، وليس المشكلة فقط في نشر أبحاث وأفكار، ولكن المشكلة أن ذلك يتحول إلى سياسات وقرارات ووقائع على الأرض وإن شئت فانظر في أبحاث مركز راند عن هذه القضية الذي يعتبر من أكثر مراكز الدراسات موثوقية عند الدوائر الرسمية الأمريكية.

ثالثا: أغلب طروحات المفكرين الغربيين وبالذات الأمريكيين ة أ ` تفتقد إلى الحس الأخلاقي والبعد الانساني مما يجعل الشعوب الأخرى تقف منها موقف الريبة والتوجس حتى وإن كان ظاهرها الخير فالناس ترسخ في نفوسهم نتيجة للتجارب المريرة الكثيرة مع أمريكا ألا شيء يصدر من أمريكا إلا وهو موظف توظيفا سياسياً نفعياً استغلالياً.

وإلا فبماذا نفسر صمت المثقفين والعلماء والمفكرين على ممارسات وعربدات حكومتهم عبر قرن تقريبا المتمثلة في تدبير الانقلابات العسكرية على حكومات منتخبة من شعوبها والمتمثلة في دعم دكتاتوريات متسلطة تحكم شعوبها بالحديد والنار والمتمثلة أيضا في نهب ثروات أمم وشعوب عبر الشركات الأمريكية الكبرى

obeikandl.com

ثم إرجاع فتات منها على شكل مساعدات من القمح والقروض والمساعدات بثمن سياسي باهظ.

والمتمثلة في اغتيال حكام وزعماء شعوب واختطافهم وإخفاء آثارهم.

والمتمثلة في التجسس على العالم وانتهاك خصوصيات الناس مما حول العالم إلى غرفة بوليس من خلال وسائل الرصد والمتابعة الأمريكية.

وإذا حاول مفكر أو سياسي أمريكي أن يغرد خارج السرب وينقد ذلك السوء فرض عليه الحصار وشوّهت سمعته وتناوله التهديد من كل مكان وعلى يد من يفترض فيهم نصرته وشد أزره والأمثلة على ذلك كثيرة في أمريكا وما بول فندلي إلا مثال من عشرات الأمثلة.

وإني أوجه بهذه المناسبة نداءاً إلى فوكوياما وأمثاله في الغرب إلى كل من يؤمن بالحرية والعدل منهم أن ينفتحوا على الأمم والثقافات والحضارات الأخرى وأن يحاوروها ويقروا لها بحق الوجود ويفترضوا أن لديها ما يمكن أن تقدمه للإنسان. وأتمنى عليهم بصورة خاصة بعيداً عن غطرسة القوة ومشاعر الطغيان أن يدرسوا الإسلام بعمق وتجرد، وتاريخ المسلمين بعدل وإنصاف.

وليعلم كل حريص في الغرب على مصلحة البشرية أننا لن نرضى بأقل من أن نكون شركاء لهم، ولعل مئات السنين من الأحداث الدامية أثناء فترات الحروب الصليبية والاستعمار

المعاصر كافية لإقناعهم بأنه يستحيل أن يكونوا أسيادا لنا وأن نكون نحن أتباعا أو عبيدا لهم.

إن لنا رؤيتنا الخاصة للحياة التي تحترم الإنسان وتحفظ حقوقه وتحافظ على كرامته وتسهل سبل التعايش بين جميع البشر، ولا تقف في سبيل التطور والتنمية المادية مع الحفاظ على القيم الأخلاقية.

مفكر إسلامي سعودي

(*) نشرت المداخلة في ملحق الرسالة بصحيفة المدينة بتاريخ ١٤٢٦/٤/١٢ هـ الموافق ٢٠٠٥/٥/٢٠ م

د. محمد عمارة(*) في قراءته لحوار فوكوياما:

الإسلام ليس نظاما ثقافيا بل هو نظام إلهي شامل غير قابل للتغيير في ثوابته ويحتمل التجديد والتطوير في فروعه

القاهرة. محمد سيد

يرفض المفكر الإسلامي المعروف د. محمد عمارة عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر ما ردده فرانسيس فوكوياما صاحب نظرية "نهاية التاريخ" من أن الإسلام نظام ثقافي معقد وأن تعاليمه قابلة للتغير بتغير الزمان، مؤكدا أن الإسلام نظام إلهي شامل غير قابل للتغيير أو التبديل في ثوابته وأصوله، ولكنه يحتمل التجديد والاجتهاد في فروعه، ويقول: لقد كان المسلمون على مر تاريخهم القديم يواجهون مشكلات التراجع والموت الحضاري، بحلول الإحياء والنهوض الإسلامي، فكان التجديد دائما وأبدا إسلاميا وكانت الحلول إسلامية المرجعية والمنابع والأصول، ولم تكن توصف اجتهادات وتجديدات الإعلام والمذاهب والدعوات بالإسلامية لأنه لم يكن هناك البديل المغاير غير الإسلامي الذي يزاحم الحل الإسلامي في ساحات التجديد والنهوض والتغيير، كما أن إسلامية الحلول ومشكلات المسيرة الحضارية لم يكن مجرد خيار من إعلام ودعوات التجديد، وإنما كانت هذه

الإسلامية قياما بفرائض إسلامية وتكاليف إلهية وواجبات شرعية، وكل ذلك يدحض مزاعم فوكوياما من أن الإسلام نظام ثقافي يحتمل التغيير، ويؤكد أن الإسلام يجدد نفسه بنفسه ليكون متواكبا مع كل زمان ومكان.

وأضاف د. عمارة أن الاتفاق على ضرورة التقدم والرغبة في الترقي ليسا موضع خلاف، لكن من الأهمية بمكان تحديد مضمون هذا التقدم الذي نريده لنتأكد هل يحقق لنا ارتقاء حقيقيا أم هو مجرد سبق وتغيير، ولنتبين معنى هذا الارتقاء وهل تضبطه أخلاقيات الدين فيحقق بالتوازن سعادة في الدنيا تؤهل لسعادة الآخرة التي هي خير وأبقى، أم أنه من نوع ذلك الارتقاء إلى أسفل الذي ننخدع به عن الارتقاء الحقيقي في كثير من الأحيان، وكل ذلك يدفعنا للقول إنه إذا كان فوكوياما لا يملك البدائل لمشروع الحداثة الغربية التي تسعى لاكتشاف الجديد حتى ولو هددت الكيان الديني والتعاليم الدينية، فإننا نقول له إننا نمتلك المشروع الإسلامي الذي يسمح بالتطور والنهوض والرقي انطلاقا من منظومة الأخلاقيات والتعاليم الدينية.

وأشار أن احتفاظ الشريعة الإلهية بالثبات حقق لها التواصل في حضارة الأمة وفقه فقهائها عبر الزمان والمكان، وواكب الفقه كل المستجدات مع التزامه بفلسفة التشريع الإسلامية، ومن نعم الإسلام على العقل المسلم أنه لم يحظر عليه الاجتهاد في ميدان يستطيع الاجتهاد فيه، فباستثناء الغيب وما لا يستطيع العقل أن يفقه عنه أو يستقل بإدراكه، فتح الإسلام أمام العقل المسلم آفاق

الاجتهاد وجعله فريضة إسلامية تحولت في الحضارة الإسلامية إلى علم من علوم الإسلام كل ذلك يؤكد أن الاجتهاد في مجالات العلوم المختلفة لا بد أن ينطلق من حضن الدين وليس بمعزل عنه أو مهددا لتعاليمه كما يردد فوكوياما.

وأوضح أن الحديث عن الجهاد والسلفية الجهادية التي يتحدث عنها فوكوياما من وجهة نظره وتمويل المملكة لهذا النوع فإن هذا محض افتراء لأن المملكة أولا تسعى لنشر الدعوة ودعم المنظمات الإسلامية والخيرية في العالم، وهذا عمل مشروع كما أن أسامة بن لادن الذي يتشدق به الغرب كله أنه رمز للإرهاب الإسلامي هو صناعة أمريكية في الأساس وليست عربية إسلامية.

وأضاف د. عمارة أنه ليست للإسلام وأمته وحضارته وعالمه مشكلة مع علاقات دولية عادلة ونظام عالمي رشيد بل إن مشاركة المسلمين في إقامة هذه العلاقات الدولية والنظام العالمي هي تكليف إلهي فرضه الله على المسلمين، وأن التفاعل الصحي بين الحضارات والعلاقات العادلة والحرة بين الأمم والدول لا بد وأن يتأسس على حرية اختيار الأمم والحضارات لما يناسب هويتها الحضارية المتميزة، فيدعم الاستقلال والتميز لهذه الهوية، وحرية الرفض لما يشوه هذه الخصوصيات، وأرى أن صورة العلاقات الدولية العادلة التي نريدها هي أن يكون العالم منتدى حضارات مستقلة تتفاعل فيما هو مشترك إنساني عام وتتمايز فيما هو خصوصيات حضارية، وتتبادل المنافع وفق معايير عادلة ليتحقق

الأمن والتقدم والسلام للإنسانية التي شملها الله بالتكريم وحملها أمانة الاستخلاف في إقامة العمران، فعالمية أي نظام لا يمكن أن تتحقق إلا إذا راعت مواثيقه ومؤسساته الخصوصيات الحضارية والعقدية والثقافية للأمم والحضارات المتميزة في هذا العالم.

مفكر إسلامي مصري

(*) نشرت المداخلة في ملحق الرسالة بصحيفة المدينة بتاريخ ٥/٤/١٤٢٦هـ الموافق ١٣/٥/٢٠٠٥م

obeikandl.com

خالد السليمان(*):

مغناطيس السلبيات!

شدني كثيرا أن يجري الزميل الأستاذ عبد العزيز قاسم حوارا مع المفكر الأمريكي فوكوياما واعتبرته اختراقا صحفيا لمنهج الإعلام العربي الذي ظل لعقود طويلة يخاطب نفسه ويظن أن العالم كله يسمعه!! ورغم أنني لا أتوقع أن يفلح أي مفكر أجنبي في رسم الصورة المنصفة الصحيحة عن الإسلام والمسلمين لأنها أصلا صورة ممزقة بفضل صراع المذاهب والنحل الإسلامية فيما بينها وشهر كل منها سلاح الإقصاء في وجه الأخرى، إلا أنني أترصّد دائما النقاط الإيجابية عند كل مفكر غير مسلم عن الإسلام لعلها تكون نواة ننطلق منها إلى تصحيح المفاهيم الخاطئة أو الوصول إلى نقطة العدالة في الحكم على الإسلام والمسلمين، إلا أن الملاحظ أن ثقافتنا تأصلت على تتبع السلبيات وكأن عقولنا تنجذب إليها تلقائيا بفعل مغناطيس!! ومن يطلع على ردود فعل بعض مثقفينا على هذا الحوار الذي نشرته " الرسالة " في عددها الصادر بتاريخ ٢٠٠٥/٤/٢٢ يتأكد له أننا قوم منجذبون دائما إلى التصادم مع الآخرين بدلا من التقاطع معهم لتصحيح المسار، ولغتنا الحوارية يغلب عليها الهجوم للخروج من مأزق الدفاع في معركة لا تقبل الصلح!! لقد تبدل كل شيء من حولنا إلا نمط حوارنا الثقافي العربي الذي مازال أسيرا للتشنج العقلي والتعصب للذات والاستعلاء على الآخرين والإقصاء للمخالفين، وبعض مثقفينا

بحاجة ماسة للخروج من صوامعهم المنعزلة ليكتشفوا كم تغير العالم وأن الخطاب المتجدد الذي يدعون إليه في كل مناسبة بحاجة لأن ينبع من داخلهم أولا!!

كاتب صحفي سعودي

(*) نشرت المداخلة في صحيفة عكاظ السعودية بتاريخ ١٤٢٦/٣/٢١ هـ الموافق ٣٠ أبريل ٢٠٠٥ م

obeikandl.com

obeikandi.com

د. محمد الأحمري(*):

فوكوياما الشخص (١ - ٣)

إذا تحدث النقاد عن فكرة فوكوياما وأنها مكررة وموقف طبيعي لكل منتصر،وسبق أن قالتها كل الشعوب التي غلبت، فإن شخصية فوكوياما كأي شخصية لا تتكرر، فبعد التعرف على الشخص ندخل إلى الفكرة؛ جديدة كانت أم معادة، وهنا لا نؤمن بفصل الشخص عن الفكرة، ولا أي مدرسة فكرية عن محيطها، إلا في حالات إن صدقت شذّت، ولم يبن عليها قواعد. وأشير إلى مقاطع قلّ ذكرها عند من سبق في مناقشاتهم هنا، وهي معلومات عامة، دوري فيها دور الجمع والتركيز على ما يهمني، وإن حدث تكرار فهو بسبب حاجة النص إلى التماسك.

هاجر جده لأبيه من اليابان إلى أمريكا، واستوطن في لوس أنجلس عام ١٩٠٥م حتى لا يجند في الحرب الروسية اليابانية، أما أبوه فقد ولد في لوس أنجلس، وله إلى الآن مطاعم في لوس أنجلس لم يزل يديرها، والده يحمل الدكتوراة في علم الاجتماع، وعمل رجل دين في إحدى الكنائس، ثم عمل بعد الحرب العالمية الثانية مبشرا ثلاث سنوات، ثم عمل في تركيا مدرسا للغة الإنجليزية، وهي مهنة محببة لدى المبشرين، لأنها أحسن المداخل للتبشير. أمه هاجرت لأمريكا عام ١٩٤٩، ثم استقرت العائلة في

نيويورك حينا من الزمن، ولد فرنسيس فوكوياما عام ١٩٥٢م كان وحيد والديه، ولم يرث من والديه اللغة اليابانية، وفي نيوروك درس في مدرسة خاصة، معظم طلابها من اليهود،وفوكوياما الابن لا يعد متدينا ولا مبشرا، أما أفكاره فتسيح في عوالم كثيرة، لا تبتعد عن الكنيسة، ولا تستسلم لها.

درس بعدها في جامعة كورنيل، ثم في هارفارد، وبعد تخرجه منها لم يعمل في التدريس، ربما لأنه يرى في تدريس العلوم السياسية أو أي علم بعدا عن السياسة العملية؛ ذلك أن السياسة العملية تمارس في الحكومة وفي مراكز الدراسات وفي الشركات، أما الجامعات فإنها تتشبع بدراسة النظريات، وهنا أشير إلى أن الجامعة الغربية عموما مهما تكن نظرية فإنها عملية أكثر من الجامعات في البلدان الضعيفة، وتجد طاقمها في العلوم الإنسانية قريبا من صناعة الحدث.

تتلمذ فكريا - ولا أتوقعه تتلمذ شخصيا - على شيخ المحافظين الجدد شتراوس الأستاذ اليهودي الذي درس في جامعة شيكاغو، الذي أنتج تلاميذ زادوا عن مائة دكتور، وبقيت بينهم روابط استراتيجية إلى اليوم، وتربطه صداقة متينة ببول وولفوتز، نائب وزير الدفاع السابق، ثم رئيس البنك الدولي حاليا، وهو يهودي متطرف في صهيونيته، والابن الروحي والوريث لشتراوس، وهناك في شيكاغو كانت المدرسة والتي زامل فيها وولفوتز أحمد الجلبي عام ١٩٦٤م، ثم ارتبط بهم أيضا الأفغاني خليل زاد، المنتدب للعراق الآن من قبل المجموعة.

ويسوق فوكوياما في مقال له طريف قصة علاقته بالمحافظين الجدد وأنه في التسعينيات كانت هناك نواد نشطة في واشنطن العاصمة، منها اللقاء السنوي لمجلة ناشونال انترست -التي نشر فيها مقالة: "نهاية التاريخ" وهي في الأصل محاضرة في جامعة شيكاغو،بالاسم نفسه، ثم أصبح أصلا للكتاب الموسع في الفكرة نفسها- وكان يحضر هذه الاجتماعات هنري كيسنجر، وبول وولفوتز، وآل كرستول الابن والأب، ودانيال بايبز، وجين كيرباتريك، وتشارلز كروثامر، وإليوت كوهين، وكما يقول فوكوياما: "يستضيف هذا اللقاء المفكرين المحافظين والكتاب والفاعلين، ويحضر اللقاء كل من أصبح يطلق عليهم وصف: (المحافظين الجدد) فيما بعد". وكما تراهم يهود لا يخالطهم إلا من كان أكثر تزمتا، من أمثال المسيحية الصهيونية كيرباتريك(انظر كتاب: أوراق واشنطن). وفوكوياما الذي سربوا من خلاله بعضا من قناعاتهم لاحقا، وشارك معهم في الأوراق والوثائق التي قدموها والمواقف التي تبنوها من أمثال وثيقة "القرن الأمريكي الجديد" التي أصبحت تمثّل المواقف الرئيسة لمدرسة المحافظين الجدد. وقد حاول فوكوياما أن يبين للناس أنه ليس منهم، ولهذا كتب المقال المذكور، حتى لا يحسب على مجموعات اليهود المتطرفين، ولكن للأسف فإنه لم يخرج عن دائرة أصدقائه ومقدميه للمجتمع وللنوادي السياسية، ويدين لهم بالفضل في المناصب، وفي الدعاية التي قدمت له، حتى زيارته لأستراليا كانت بدعوة من المحرر السابق لمجلة ناشونال انترست - وهو من العصابة - بعد عودته لبلده

أستراليا، وهناك قدم محاضرة: "هل ابتدأ التاريخ ثانية بعد ١١سبتمبر؟".

وقد سبق له أن كان من المشرفين على قضايا الشرق الأوسط في الحكومة السابقة التي كان فيها بوش الأب، ثم مستشارا من المشرفين على قضايا الدراسات الحيوية والاختراعات العلمية المتعلقة بها في إدارة بوش الابن، ضمن حكومة المحافظين الجدد. وكان من المتوقع أن يكون واعيا لمصادر دراساته السياسية، وأنه يميز المصادر الصهيونية عن غيرها، ولكنه للأسف يبني فكرته عن العالم العربي والإسلام اليوم من عودته الصريحة للمتطرفين الصهاينة من أمثال دانيال بايبز. وفي دراساته الأخيرة لما بعد ١١ أيلول، رأيته يرجع لآراء المتطرفين هؤلاء، وكيف غاب عنه تطرف هذه الفرقة وهو يعلم معارك هؤلاء مع الأكاديميين الأمريكان، من أمثال "جوان كول" الذين رأوا في مشروع بايبز هجوما على حريات الأكاديميين الأمريكان، وقسرا للجامعات أن تسير في خط صهيوني معاد للعرب وللمسلمين، بل بلغ الأمر بهذه العصابة -التي يعرفها فوكوياما تماما- أن أنشأت موقعا على الإنترنت أسمته "مركز مراقبة الجامعات" كامبوس ووتش، مهمته مراقبة المتعاطفين مع العرب والمسلمين، وكتابة التقارير عنهم والتحذير من توجهاتهم، ومن عمل المركز التحذير من كل أستاذ يتعاطف مع العرب ومع قضية فلسطين أو يدرّس كتب إدوارد سعيد، ومن جنود بايبز في هذا شخصيات أكاديمية هم في الأصل ضباط في الجيش الإسرائيلي، أمثال كريمر. هذه هي دائرة فوكوياما وأولئك هم

ناشـرو مـقـالاتـه، وتلك هـي مـصـادره في النقل والتـعـرف على منطقتنا.

مقـالات فـوكوياما التي يراقب فيـها منطقتنا، وينصح ويوجه بالموقف تجاهها، هذه مراجعها، وتلك بيئتها، ومكان نشر الكثير من مقالاته في مجلة: ناشيونال انترست، التي تتظاهر بأنها لسان حال المصالح الوطنية الأمريكية، بينما هي في الحقيقة ترعى المصالح الصهيونية، وكعادة صهاينة أمريكا يسمون مصالحهم "مصالح أمريكية". والمجلة قام عليها بعض المهاجرين الأستراليين ومتعصبي اليهود وهذه بيئة يصعب على فوكوياما فيها ألا يكون منحازا لمواقفهم، وهو أيضا لا يستطيع الخلاص من نفوذ صديقه الذي يدافع عنه: بول وولفوتز، الذي يرى أن من المهم أن يكون السياسي مراوغا،غائيا لا يبالي بطريقة وصوله لأهدافه، كما فعلوا في تزوير قصص خيالية عن العراق. ولكن فوكوياما يرى أن صديقه هو المفكر الأعمق في الإدارة الأمريكية ولا يحتمل أن ينتقده أحد، ويحوّل اللوم إلى رامسفيلد، وكان فوكوياما ممن يرى عزل رامسفيلد عن وزارة الدفاع، ويصعب على من يهتم بما حدث في الماضي القريب أن يتصور أن يجتمع في قلب إنسان حب وولفوتز وموقف معتدل من قضايا العرب والمسلمين، وهذا لا يعني أن نيأس من عقل وفهم رجل مثله.

هناك منتقدون كثيرون له على المستوى الشخصي، وبعض نقدهم يستحق الاستماع ولو لم يصدق، فيرون أن هذه المحاضرة "نهاية التاريخ" التي أصبحت مقالة ثم كتابا، صنعت له الشهرة

والثروة، حتى اتهمه بعضهم بأن الفكرة كانت احتفالا بسقوط روسيا، وعاجلة وموقفا عاطفيا وليس مدروسا، وقد فهم فيما بعد لعبة "كتاب الساعة"، فأصبح همه أن يخرج كتابا عن كل قضية يكون حديث الناس عنها، لأنها سوف تفتح له السوق والجيوب والإعلام والشهرة، بقطع النظر عن صحتها ومحتواها، فكتبه التي أعقبت ذلك كانت تصب في الحديث عما يشغل الناس مثل: كتابه عن قانونية البحوث الوراثية، وآخرها عن موضوع بناء الدولة، وهو كتاب يهتم بالحديث الجاري عن بناء الدولة في أفغانستان والعراق.

وعندما نتجاوز ما سبق فإن من الملاحظ أنه أصبح صاحب شهرة بعد فكرة، وإن لم تكن جديدة، ولا مهمة -كما سيأتي- ولكنها كانت فكرة اللحظة، ويهمه ما يهم كل مثقف مثله، وقد وفرت له عصابة المحافظين الجدد الكثير، وليس لدى غيرهم ما يقدمونه له بالحجم نفسه، وهو سياسي قرر أخيرا أن يبعد نفسه عن أن يكون في قائمتهم بعد أن أصبح النقد لهم كثيرا، وأبقى علاقة ودية معلنة وترويجية لأكبر شخصياتهم تطرفا، فهو يروج ويدافع علنا عن بول وولفوتز، وكتب منتقدا بعضهم، وهذا يمنحه حجة الاستقلال الفكري والسياسي. لم يعهد منه فيما سلف مخالفة السلطة من أجل فكرته بل يبرر ما يحدث، ولا يبدو أنه سيخالف العصابة إلا أن يجد من هو أقوى ليتخلص من ربقتهم، لأنه فعلا ليس منهم جنسا ولا دينا ولا مصالح في الخارج، فذلك أملنا أن نراه حر التفكير والتوجه السياسي. ثم إن تخلص من داء هؤلاء، فهل سينجو من ثقافة الاحتلال للآخرين من الشعوب

المستضعفة، وقد أصبحت ثقافة ودينا؟ يجهل المروجون في عالمنا لليبرالية حقيقة موقف مجايليهم هناك، مما سنأتي بمثال صريح من كلام فوكوياما عليه، في مقال: "فوكوياما الفكرة".

(للمزيد من معرفة أعماله وما يتعلق ببعض ما ذكر تراجع صفحته على الإنترنت، ولمزيد من معرفة بعض التفصيل حول هذا راجع مقالة: "بن بيكر" عنه، ومقالته: "لحظة المحافظين الجدد" المنشور في مجلة ناشيونال انترست، المقالة موجودة على موقع المجلة).

مفكر إسلامي سعودي

(*) نشرت المداخلة في ملحق الرسالة بصحيفة المدينة بتاريخ ١٢/٤/١٤٢٦هـ الموافق ٢٠ مايو ٢٠٠٥م

obeikandl.com

محمد الأحمري:

فوكوياما مرشدا للمحتلين (٢- ٣)

نتابع جوانب مهمة من مواقفه السياسية ومهاده الفكري، فهو يقرر في أماكن عديدة ولاءه لقادة المحافظين الجدد، ثم يكتب لهم الإرشادات، ويعيب عليهم التقصير في بناء الشخصية التابعة الخنوعة للشعوب المحتلة، وستجد فيما يلي من المقال شواهد ذلك، وقد تركت الكثير مكتفيا بالإشارة لبعض المقالات، ومنها مقالة "هل ابتدأ التاريخ مرة أخرى" على موقعه في الإنترنت، وفي مقابلة مع إليزابيث ليفي بعد صدور كتاب اللحظة -كما يسخر منه خصومه: "بناء الدولة: الحكم ونظام العالم في القرن الحادي والعشرين" يشير بالدولة إلى الدولتين اللتين هدمتهما أمريكا "أفغانستان والعراق" وغيرهما، وكيف يعاد بناؤهما. يعترف للكاتبة "أنه يفضل الصهيوني المتطرف بول وولفوتز من المحافظين الجدد الذي كان -كما يقول- مديرا للجامعة التي كان يعمل فيها." وسبق لفوكوياما أنه كان مع أساتذته من المحافظين الجدد من ضمن قائمة الذين قدموا خطاب طلب غزو العراق في يوم ١٢ سبتمبر ٢٠٠١م، (راجع مقال الإسلام وأمريكا أعداء أو خصوم) بقلم لال خان، من الشبكة. ولم يكن تصرفه ذلك فيما تبين للجميع لاحقا إلا موقفا إمبرياليا استعماريا، ونحن في هذه الحالة أبعد عن أن نحترم له هذا، وكذا كل الأحرار في العالم، وأنصار الحرية والمدّعون

الليبرالية من الشعوب المغلوب على أمرها. وإن لم يكن هكذا، فهو موقف متفانٍ في خطة المحافظين الجدد، ذلك أن أساتذته الصهاينة يرون ذلك، وهي عقدة لدى كثير من المثقفين الأمريكان من النصارى واليسار واليمين، إذ يملي عليهم الصهاينة بزعمهم أن بقية الأمريكان والغربيين لا يعرفون العرب ولا المسلمين ولا الشرق الأوسط، فهم يتولون تعريفهم، ودلالتهم في المنطقة المخيفة: العالم الإسلامي.

وبهذا يصادر الصهاينة الأمريكان حق أي مثقف أمريكي في معرفة المنطقة بنفسه، وهذا العذر الذي نصطنعه لفوكوياما، على الرغم أنه غير معذور، كيف وقد تولى منصب التخطيط السياسي للحكومة الأمريكية وتعرف عن قرب عليها.

*****

من المراقبة لكثير من توجهات الثقافة الأمريكية نلاحظ أنها تسير باتجاه الثقافة البريطانية في نهاية القرن التاسع عشر، وبداية العشرين، حين كان يتجه المثقفون إلى مهنة الموظف الاستعماري كاتباً متقناً لفنون حكم الشعوب الأخرى وتركيعها وإخضاعها، وزرع عدم الثقة فيها والتعامل معها كموضوع للدراسة، والبحث والفهم، فهي مصدر طاقة وقوة ونفوذ وغنيمة تحتاج إلى حسن إدارة الموارد.

وذلك ما تجدونه من زخم الكتب الغربية والدراسات والرحلات، ودراسات المجتمعات المغلوب على أمرها، ولم يكن لنا

من دور في هذه القصة الطويلة التي بدأت أمريكا تفتح أبوابها علينا إلاّ نفس هذه القصة مكرورة، فبعد الاحتلال الفرنسي والإيطالي والبريطاني، جاءت الإمبراطورية الأمريكية بمستشرقيها الإداريين لتتحدث عن المستعمرات وثقافتها، في قصة مكرورة ممجوجة ثقيلة الدم رديئة الإخراج.

تقولون: كيف تقول هذا عن فوكوياما؟ أقول: لقد خلع لباس الثقافة والفكر في إحدى مقالاته التي وجدتها وأنا أبحث عن مقالاته في الإنترنت، كتب لينذر قومه أنهم لم يعرفوا ثقافة الشعوب المغلوب على أمرها، ولم يدرسوها، ولم يستبطنوا مجتمعاتها، ولم يعرفوا لغاتها، فلم يكن في "السي آي آيه" من يعرف لغة البشتون إلا نحو أربعة أشخاص، وليس من السفراء الأمريكان من يعرف العربية إلا ندرة، وينظر لحكومة بلاده أن عليها أن تربي الشعوب الأخرى بحيث ترى الأمور من المنظار الأمريكي، حرفيا يقول: "لن نستطيع أن نشارك أو ننشر تأثيرنا حول العالم إلا إن كنّا قادرين على تدريب غير الأمريكان ليروا الأشياء من منظورنا، أو نساعدهم ليكتسبوا الوسائل العقلانية التي تجعل التحليل الهادئ أو النزيه ممكنا"، ثم يدعو إلى الدراسة الإقليمية للعالم العربي والإسلامي.

ما الذي نتوقعه فأخلفنا الظن؟ وما الذي لم نتوقعه؟ وماذا يحسن بنا أن نفهم من هذا؟

إن كنا نطلب من فوكوياما أن يفهمنا، فهو يحب أن يفهمنا فعلا، وكثير من المستعمرين والمحتلين من الفرنسيين والبريطانيين

واليهود والإيطاليين بذلوا جهودا صادقة لفهمنا، ولفهم الأفارقة والهنود والآسيويين والهنود الحمر وجميع الشعوب المقهورة، ولم نزل موضع دراساتهم منذ تعالت مصالحهم الاقتصادية والدينية والسياسية في بلادنا.

ما الذي لم نتوقعه؟ لم نتوقع أن فوكوياما كاتب تقارير ودارس إمبريالي كسابقيه ومعاصريه ولاحقيه، همه أن يسخر المعرفة للسيطرة على الشعوب الضعيفة، وذلك مصدر نقمته على الكتّاب الذين عرفوا الاستشراق والاستعمار والإمبريالية بدقة، مما جعل أمثال فوكوياما يحذرون منهم تحت أكذوبة أن هؤلاء يبالغون في تصوير المثقف الغربي الحكومي غالبا كواحدة من وسائل المستعمرين تحت ستار الثقافة. وهذه قصة حية ولم تمت.

وهو بكل قوة وصراحة يروج لسيطرة الاحتلال وجعل الاحتلال وثقافته تقبل بطريقة علمية وثقافية تجعلنا نفكر تفكيرا عقلانيا هادئا، ولكن العقلانية الهادئة كما يسميها هي أن نقبل كل شيء عندهم وأن نفكر مثلهم؟ حسنا فهل يسمحون لنا أن نفكر مثلهم؟ قد نتمنى ولكن ذلك مستحيلا، إلا إذا فهمنا أن التفكير مثلهم يعني أن نفكر بمصلحتهم وضد مصلحتنا، وقد نجحوا في ذلك، وإلا فلماذا لم يفكر الأمريكان في الثورة الأمريكية -أو حرب الاستقلال- كما يفكر الإنجليز المحتلون لأمريكا ويفكرون بمصلحة الملك والتاج البريطاني ويكونون مواطنين صالحين مثقفين متعقلين ولا يثورون على الملك، وهو يشاركهم الدين والجنس نفسهما؟

هم لم يكونوا عقلانيين ولا مثقفين ولا متنورين، فيرضخوا للمستعمر البريطاني؟ بل دخلوا في ظلام الإرهاب والثورة والعنف والتمرد كما تفعل المستعمرات، فإن انتصرت كانت ثورة العدل والحرية ومبتغى الإنسانية وغاية تطورها، وإن فشلوا كانوا عصابات إرهاب وعنف مدمرة.

وكما يقول البريطانيون وقتها؛ فقد انتصر المجرمون والهاربون من السجون والمتطرفون والمهووسون دينيا بإقامة "كيان للمارقين"، أعداء المدنية، -كما كانوا يعيرونهم- سمّوه بـ "الولايات المتحدة الأمريكية"، وأحرق البريطانيون مكتبة الكونجرس ١٨١٢م، ليبقوا هؤلاء المارقين مجموعات متوحشة جاهلة فاقدة للأمل وللمعرفة، وعاودوا محاولات تدمير أمريكا عدة مرات تماما كما فعل الأمريكيون مع مكتبة بغداد، ومع محاولات التدمير المتكررة منذ ١٩٩٠ .

وكل كلام اليوم عن الديموقراطية والحضارة فذلك بهدف تجميد الغنيمة وتبريدها وجعلها تفكر بمصلحة أمريكا، كما يكرر فوكوياما اقتراحات قرون من قبله، وقد أصبحت هذه الأفكار تجري في دمه وتكوينه، فلا يعرف غيرها ولا يستطيع فهم الأمور بغير هذه الطريقة، مثل الذين يقاومون الاحتلال، والذين قاوموا الاحتلال البريطاني في أمريكا يفكرون بهذه الطريقة ولا يكذّبون أحدا. إن المصلحة والفطرة تمتزجان بحيث يصعب الفصل بينهما! لماذا يريدنا أن نفكر بمصلحته؟ وندوس مصالحنا ومصيرنا؟ وهل المكافأة هي الألقاب الجذابة التي سوف يهبونها لنا في حال قبلنا

عن رضا مثل ألقاب: "مثقفين، وواعين، وأذكياء، وأمناء وليبراليين، ومتنورين، وتقدميين، وديموقراطيين، ومن سكان العالم الحديث، وإلى آخر الألقاب التي يمتدح بها السادة عبيدهم المطيعين، المؤهلين أن ينعموا بالخمول في المستعمرات.

وقد عجبت مرة لنص كتبه جبران خليل جبران يصف فيه الألقاب التي يطلقها السيد الأمريكي على عبيده المطيعين السود، فكلها تمجيد له كلما أغرق في عبوديته، وإذا لاحت عليه تصرفات أو سيماء الحر الكريم، أطلقت عليه ألقاب الوحشية والتخلف والتمرد والمروق، والفرق أن ألقاب العبيد بالأمس كانت تطلق على من يتمرد في داخل القارة، واليوم خرجت من القارة ليوصف بها الخارجون على الطاعة في الخارج كما يلقي السيد.

أكاد أقول إن فوكوياما لم يفكر بعقل إجرامي وقد أنشأ يردد تلك المفاهيم، إنه استجاب فقط لنداء الثقافة الغربية التي تسكن كيانه وتحاصر عقله، وتستبد بكل شيء، إنه منسجم مع ثقافته ومع ثقافة الاحتلال واحتقار المغلوبين، ثقافة وفكرا وسلوكا.

مثله مثل الكتاب المهتمين والدارسين للمستعمرات، سواء كتب تقريرا، أو أرشد لقرار، أو وقع على بيان صهيوني طلب توجيه قوات لغزو المتمردين في بغداد أو غيرها، إنه يمثل بالنسبة لنا ثقافة المستعمر المستبد وإرشاداته، وهي تقارير معادة، لا يختلف فيها كاتب تقرير عن آخر، غير أن لفوكوياما جانباً آخر غير الشخصية الاستعمارية وفكرتها.

موقفه من الإسلام

يصنف فوكوياما على أنه علماني، وليس مهتما بالدين، على الرغم من كونه ابن قسيس مبشر، تولى التبشير حتى خارج أمريكا، ولا نلحقه بثقافة والده، ولا ندينه بثقافة خلّص أصدقائه من المتعصبين الصهاينة، المروجين له. ولا نلومه في أن نحمله عبء الثقافة الغربية المسيحية والعلمانية تلك التي تكره ابتداء الثقافة الإسلامية، وتكره رموزها وأشكالها وتاريخها، لسبب عميق في تركيبة ثقافة هؤلاء، أنهم ينشأون في الكنيسة أو الشارع على كراهية الذين سلبوا منهم مهد المسيحية، هذا عند المتدينين، وعند العلمانيين نحن متعصبون، أصحاب دين يمتهن الإنسان، دين غريب وعدواني، وإن ذهبت في ثقافتهم يمينا أو شمالا فإن المكتبة الغربية تنشئ أبناءها على كراهية المسلمين، وقد عرفت هذا من معايشة طويلة ومناقشة لشتى الفئات. وقلة جدا من يسلم من وباء ثقافة الكراهية للمسلمين، أو تكون عنده الشجاعة على تجاوزها، وهم موجودون دائما.

نتجاوز ذلك ونقرأ له قوله: "صحيح أن الإسلام يشكل أيديولوجية متسقة ومتماسكة شأن الليبرالية والشيوعية، وأن له معاييره الأخلاقية الخاصة به ونظريته المتصلة بالعدالة السياسية والاجتماعية. كذلك فإن للإسلام جاذبية يمكن أن تكون عالمية، داعيا إليه البشر كافة باعتبارهم بشرا لا مجرد أعضاء في جماعة عرقية، أو قومية معينة. وقد تمكن الإسلام في الواقع من الانتصار على الديموقراطية الليبرالية في أنحاء كثيرة من العالم الإسلامي،

وشكل ذلك خطرا كبيرا على الممارسات الليبرالية حتى في الدول التي لم يصل فيها إلى السلطة السياسية بصورة مباشرة. وقد تلا نهاية الحرب الباردة في أوروبا على الفور تحدي العراق للغرب، وهو ما قيل (عن حق أو عن غير حق): إن الإسلام كان أحد عناصره". ويستمر في القول: " غير أنه بالرغم من القوة التي أبداها الإسلام في صحوته الحالية، فبالإمكان القول: إن هذا الدين لا يكاد يكون له جاذبية خارج المناطق التي كانت في الأصل إسلامية الحضارة. وقد يبدو أن زمن المزيد من التوسع الحضاري الإسلامي قد ولى. فإن كان بوسع الإسلام أن يكسب من جديد ولاء المرتدين عنه، فهو لن يصادف هوى في قلوب شباب برلين، أو طوكيو، أو موسكو، ورغم أن نحو بليون نسمة يدينون بدين الإسلام (أي خمس تعداد سكان العالم) فليس بوسعهم تحدي الديموقراطية الليبرالية في أرضها على المستوى الفكري. بل إنه قد يبدو أن العالم الإسلامي أشد عرضة للتأثر بالأفكار الليبرالية على المدى الطويل من احتمال أن يحدث العكس، حيث إن مثل هذه الليبرالية قد اجتذبت إلى نفسها أنصارا عديدين وأقوياء لها من بين المسلمين، على مدى القرن ونصف القرن الأخيرين. والواقع أن سبب الصحوة الأصولية الراهنة هو قوة الخطر الملموس من جانب القيم الغربية الليبرالية على المجتمعات الإسلامية التقليدية". ص ٥٦-٥٧ .

ثم يمتدح تركيا لأنها "الدولة الوحيدة التي طرحت التراث الإسلامي جانبا في صراحة تامة، واختارت مع بدايات القرن العشرين إقامة مجتمع علماني". ص ١٩٣ . وفي نص آخر يقول: "ولم تكن حركة إحياء الأصولية الإسلامية التي ظهرت مع الثورة

الإيرانية عامي ١٩٧٨ و١٩٧٩ مجرد حالة من حالات استمرار "القيم التقليدية" في العصر الحديث، ذلك أنه كان قد سبق خلال المائة عام الماضية أن ألحقت الهزيمة الساحقة بهذه القيم العفنة المتهاوية. وإنما كانت حركة الإحياء هذه تأكيدا جديدا للحنين إلى مجموعة من القيم الأكثر عراقة ونقاء، يقال: إنها كانت قائمة في الماضي البعيد، وأنها غير القيم التقليدية للماضي القريب التي ثبت فسادها، وغير القيم الغربية التي نقلت إلى الشرق الأوسط في صورة شوهاء، وفي كل هذا نرى تشابها أكثر من أن يكون سطحيا بين الأصولية الإسلامية والنازية الأوربية.. ولا يمكن إدراك قوة الإحياء الإسلامي إلا إن أدركنا عمق الجرح الذي أصاب كبرياء المجتمع الإسلامي بسبب فشله المزدوج في الحفاظ على تماسك المجتمع التقليدي، والتمكن من تمثل تقنيات الغرب وقيمه". ص ٢١٠ .

إن موقفه السابق موقف عنصري متعال، فهو صاحب القيم المنتصرة على أي حال، وهي أفكار يشعر المسلمون تجاهها بالجرح لخسرانهم لقيمهم، والإسلام أيديولوجية لا تجذب أحدا من الشعوب العليا في برلين، أو طوكيو، أو موسكو؟؟ ويبجل تركيا التي اطرحت الإسلام! فأنت أمام كاتب حتمي مغرق في نهاية الأيديولوجيا، أو التاريخ. مع وجود ملاحظات صحيحة في بعض الجوانب، ولكنه قد لا يصف الثقافة اليهودية ولا اليابانية بوصف الثقافة "العفنة".

نقف هنا ونستكمل شيئا من جوانب كتابه الممتاز وفكرته الخاطئة.

(*) نشرت المداخلة في ملحق الرسالة بصحيفة المدينة بتاريخ ١٤٢٦/٤/١٩هـ الموافق ٢٧ مايو ٢٠٠٥ م

obeikandl.com

محمد الأحمري:

فوكوياما السياسي الواقعي (٣ - ٣)

يبتعد المؤرخون عن الحقيقة كلما اقتربوا من السياسة، حتى إذا كتب السياسيون التاريخ فقد أوردوك البحر، وعليك أن تحتاط منهم بكل وسيلة وإلا فستهرب الحقيقة منك وسيغرقونك في مماحكاتهم ومذكراتهم، فعندما يتحقق السياسيون من الغرق يمسكون بحبل التبرير والفلسفة. فعل هذا كثيرون جدا، ومن أجل كثرتهم نجد منهم مشهورين مهمين، فلو لم يفشل (ابن خلدون) في إحدى عشرة وزارة لما تفلسف، ولما نضجت أقواله، ولو لم يذق (هيجل) مرارة القهر لما طوّح في شعاب فلسفة التاريخ، ولو لم يفشل (ماركس) في الوظيفة وفي الثورة لما صنع من التاريخ سيفا يقبضه يتحكم به، ويهز به قناعات الآخرين. وغربت الطموحات والمناصب من يدي (توينبي)، توزع وتباع يمينا وشمالا، وهو الشاب الذي صمم بعض المواقف في مؤتمر الصلح بعد الحرب الأولى، وبالرغم من نبوغه المبكر، إلا أن حظه كان عاثرا؛ فكتب لنا أحسن نصوص فهم التاريخ، تلك التي رأى فيها بعض الإسلاميين انسجاما مع عقيدتهم لا مثيل له.

وبما أن التاريخ هو السياسة بعد أن تخف درجة حرارتها، فإن حالنا مع فهم المسألة التاريخية يصدق عليها وصف العلامة

(محمود محمد شاكر) إذ يقول: (لا أعلم نكبة نزلت بالشرق العربي والإسلامي بلدا بلدا كانت أفحش أثرا وأشأم عاقبة من نكبة النسيان والغفلة.) ص٩٤٧ من جمهرة مقالاته. ثم يتحدث عن خلود نزعة الاستعمار لدى الغربيين، وأنهم يقسمون العالم إلى قسمين عالم السادة وعالم العبيد، هم السادة وغيرهم العبيد، وأنهم يتعاونون أشد التعاون في التحكم في أمور العبيد، حتى تجد أن الدولة الغربية عندما لا تقدر وحدها أن تستعمر بلدا عربيا مسلما فإنها تعاون القادرين من الغربيين، وترسل الجنود والعتاد حتى فيما لا يظهر أن لها مصلحة فيه، لتساعد قومها على تدمير وإذلال واستعمار بلد عربي مسلم، وتقهر دول الاحتلال الشعوب المقهورة حتى لا يصبح لها قيمة إلا بمقدار أهميتها في خدمة المستعمر. وذلك بعض ما أشار له شاكر.

ثم تقوم بنشر ثقافة اليأس من الاستقلال والحرية، وتجعل الحرية والكرامة في أعين المسلمين شرا خالصا، وخطرا لا يحتملونه، حتى يروا الذل والاستكانة والتبعية طريقهم الوحيد للبقاء، وذلك ما تسمعونه يتردد هذه الأيام، من قهر للمقاومة في المستعمرات، حتى لا تفكر ولا تأمل في الاستقلال.

والهاجس الإسلامي التاريخي في عقول الغربيين بالغ الحضور، فهذه رئيسة وزراء بريطانيا تاتشر، تتحدث قبل دخول العراق للكويت، في ٢٧ حزيران ١٩٩٠م، كما نقلت عنها إذاعة البي بي سي، أشارت إلى أن القوات البريطانية يجب أن تبقى على حالها دون تخفيض؛ لأن أوروبا قد تحتاج إليها لمواجهة نهوض

إسلامي محتمل. راجع: (فصول من تاريخ الإسلام السياسي. (ص ٤٣٤) وهذه الرسالة التي تتحدث عنها (تاتشر) سبقها لها (ول ديورانت)، الذي يرى أن "الولايات المتحدة عليها أن تقوم بالدور الذي كانت تقوم به بريطانيا العظمى ببراعة كبيرة في القرن التاسع عشر، أي حماية الحضارة الغربية من الخطر". ص ١٥٩ من كتاب: "دروس التاريخ". ويقول: (فالحرب في التفسير العسكري للتأريخ هي الحكم الأخير، يتقبلها الجميع كشيء طبعي وضروري، باستثناء الجبناء والسذج. فما صان فرنسا وإسبانيا عن أن تصبحا مسلمتين غير انتصار (شارل مارتل) في موقعة تور (بلاط الشهداء) عام ٧٣٢م. السابق، ص ,١٥٨ ومن العجيب أن مواجهة الأمم الشرقية والحرب معها في عين شخص هو المؤرخ الأهم في التاريخ الأمريكي كاتب "قصة الحضارة"، يرى أنه: (قد يؤدي الجهد المبذول في الوقت نفسه لمواجهة تحدي الشرق الصاعد إلى إعادة إنعاش الغرب.) ص ١٩٠ المصدر السابق. وتلك مسألة قديمة ترتبط بالحروب الصليبية الفاشلة في إبقاء الشرق تحت ربقتهم، ولكنهم يرون اليوم أن الحروب الصليبية كانت مفتاح قوة ومهارة ووحدة وانتشار الشعوب الأوروبية حول العالم، وأنه كان لها أثرها في حركة الإصلاح الديني، وذلك ما يروجه دارسون جدد يهمهم إعادة مهد المسيحية للمسيحيين الغربيين، وإبقاء واستقرار جيوش صليبية في الشرق العربي. ولهذه المذهبية الجديدة أنصار ودارسون مسموعة أصواتهم في الغرب. وكثيرة تلك الدراسات التي تنادي بالحرب مع المسلمين؛ لأنها تعيد التماسك والوحدة والتدين للغرب الذي فقد روحه.

obeikandl.com

تقولون: ما علاقة هذه النقول بنهاية التاريخ؟

علاقتها أننا وجدنا هؤلاء الكتاب ممن يتظاهرون بمواقف فلسفية عامة، وآراء يحبون أن يلبسوها شعارات عالمية واسعة تتجاوز دولهم وأحزابهم، ومصالح السياسة الجارية يوميا لأممهم، خطأ كانت أو صوابا، وجدناهم ناسا من الناس، تدفعهم ثقافتهم ومهادهم الثقافي وبيئتهم التي نشأوا فيها ومناصبهم في حكوماتهم إلى العمل على نيل مكسب سريع عارض، ويصرون على صياغة مواقف استعمارية حادة، ومزعجة للشعوب المضطهدة، ويجد هؤلاء من بيننا من يصدق أن هذه الفلسفات بريئة من الغرض الاستعماري، وكم يسرنا أن نجد في ثقافتهم ثقافة أقل تحيزا، ولكن كما نقلت في الحلقة الثانية نصوصا من كلامه، فإنه لا يختلف عن موجه لثقافة الاحتلال، وكاتب استعماري تتجدد مهمته مع تجدد مصلحته، ولم لا؟ فدارسون كبار سبقوه لم يختلف دورهم عن دور تأييد الاحتلال وقمع الشعوب المضطهدة، تعجبون من (جيبون) كاتب كتاب اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية، فقد كان عضوا في البرلمان البريطاني، ووقف موقفا استعماريا قاسيا ضد استقلال أمريكا، لأنه كان يفكر بعقل السلطة البريطانية والرومانية خائفا من سقوط المستعمرات في أيدي سكانها، وبعده بأكثر من قرن كان المؤرخ والسياسي والمتنبي النبه، (توكفيل) مؤيدا لاحتلال الجزائر، واقفا ضد حريتها، وهو أهم مروج لـ: "الديمقراطية الأمريكية".

حفلة نهاية التاريخ

المقالة الأولى لفوكوياما قبل تطويرها إلى كتاب حوت فكرة مهمة، "إنها لا تزيد عن فذلكة للانتصار على روسيا، ومشاركة ذكية في حفلة النصر" كانت مدفوعة ومبنية على قضية واحدة: نحن انتصرنا على روسيا لأنه ليس في العالم فكرة أحسن ولا أقوى من فكرتنا، ولم يبدع البشر خيرا مما أبدعنا. والسبب يعود إلى جهدنا، وهو منطق قارون بعد أن اجتمع له المال أن يقول: "**إنما أوتيته على علم عندي**" وهي الفلسفة البعدية لكل فائز، ثم في الكتاب الذي نشر على أنه توسيع للفكرة احتياط كبير وتجنب للنقد، وتوسيع للبحث، وإثبات أنه ألمّ بالمفاهيم من أطرافها حتى بفكرة نيتشة السابقة عن الإنسان الطموح، اضطر أن يحاول أن يشير إلى أن غاية مطمح إنسان نيتشة هو إنسان فوكوياما، أما إنسان هيجل فقد أبدأ وأعاد الحديث حوله مثبتا أنه لم يسر على طريق الشيخ، ولم يؤمن بأفكاره حرفيا ولم ينتسخ عنه شيئا.

كل الذين شعروا بالنصر في كل العصور احتفلوا هذه الاحتفالية، ورأوا أنهم قد أمسكوا بعنان التاريخ، فقد رأى ذلك هيجل في بروسيا، ورآه أيضا ماكولي في الملكية الدستورية في بلاده إنجلترا، ترى ذكر هذا عند (وايتهد) وأرى كتابه هذا مصدرا لكثير من أفكار فوكوياما، ورآه علماء الدولة العثمانية، (راجع أبحاث خالد زيادة في هذا عن العثمانيين) ولعل هذه المواقف تنطلق من الفرحة بالنصر التي يؤولها الإنسان البسيط إلى عامل أو سبب آخر قريب لمزاجه وهواه، وهذا تفسير أرقى من التفسير

obeikandl.com

العنصري الذي عادة ما يهيمن على المنتصر كما وقع فيه دارون، وفلسفه ابن خلدون. ونشير في فقرات سريعة إلى بعض موارد وقضايا فكرة نهاية التاريخ.

أحد معارفه ومناقشيه "بن بيكر" يرى أنه رجل غريب يؤمن بفكرة تثير الأعصاب، وهي فكرة أن التاريخ قد انتهى؟ وهل يرى هذا عاقل؟ ثم كيف يجمع بين هذه الفكرة وبين دور الهندسة الوراثية في صناعة عالم بل إنسان جديد، أليس هذا يعني بداية للتاريخ جديدة؟ والذي ربما لم يلاحظه كثيرون أن الكتاب: "نهاية التاريخ" بذل جهدا كبيرا في إحكام النظرية، فمن ناحية يغلق دائرة النقاش جهده، وفي الوقت نفسه يحاول أن يقول إن كل اعتراض قد حسب حسابه بما في ذلك تجدد وتطوير الأفكار، فهي مهما كانت لا بد أن تصب في الليبرالية والديموقراطية والرأسمالية! ويشنع على كل من فهم نظريته بمعناها البسيط أو المعقد، ويبقى الكتاب رحلة ممتعة بالرغم من متاعبها في الأفكار السياسية ونظريات الاقتصاد والتاريخ.

الليبرالية:

أعجب من الليبرالي العربي، أو المسلم، أو أي ضحية لأفكار المحافظين على القيم الغربية، أن يجد في نفسه قبولا لليبرالية الغربية، بمعناها الحقيقي، فهي في البدء مصطلح اقتصادي، تعني حرية الرأسمالية الغربية في اجتياح أسواق العالم، وحقها هي فقط في وضع أنظمة وقيم للسوق، أهمها الحرية للاقتصادي

الغربي أن يجتاح أسواق العالم، وألا يكون هناك في طريقه عائق من مستعمر آخر، ولا مواطن بلد أو قومية أو ملة أخرى في سنّ "تعريفات" - وقد نقلوا هذه الكلمة كما هي من العربية - لا تتناسب مع مصلحته، ثم تطور هذا المصطلح ليعم قضايا أخرى بما فيها مبادئ الحريات، وعلاقة الناس بالأديان والأخلاق. "ممن يرون أسبقية المعنى الاقتصادي لليبرالية قبل غيره من المعاني: الفيلسوف الاقتصادي: هايك". وأعجب كيف يمتدح عربي -أيا كان معتقده، أو أي ضحية للاحتلال الغربي- مسألة الليبرالية الغربية، فهي حرفيا تعني استمرار أو عودة الاستعمار الغربي للشعوب المنتهكة سياسيا واقتصاديا وأخلاقيا، وبقاء الهيمنة على المستضعفين، وعدم أهليتهم، أو حقهم في إدارة ثرواتهم ونظمهم واقتصادهم. وإليك رأي فوكوياما الذي يلقم الليبراليين حجرا، ويسخر بهم وبعقولهم ممن يرون فيه ليبراليا بامتياز، فهو من الذين وقعوا خطاب اجتياح العراق، وهو يضم صوته إلى صوت مدرسة الواقعية السياسية، وهي مدرسة ضد مدرسة المثالية، أو أصحاب القيم المثالية، فهو من صف كيسنجر، أي الوصول إلى المطلوب بأي وسيلة، ومثال واقعية كيسنجر مذابح تشيلي التي شجع أو أيد فيها (بينوشيه) أن يقيم ديكتاتوريته العميلة الموالية لأمريكا وهي ضد الديمقراطية، وممتهنة بأقصى الصور لمسائل حقوق الإنسان،وأبادت الألوف، وهو من مدرسة كيسنجر في عموم موضوع العلاقات الدولية. يقول صريحا في إيمانه بالمذهب الواقعي: "ولا يزال للمنظور الواقعي للعلاقات الدولية، باعتباره

مذهبا إرشاديا، دلالته الأكيدة، بالرغم من المكاسب التي حققتها الديموقراطية في السبعينيات والثمانينيات من هذا القرن، فالنصف التاريخي من العالم لا يزال يتصرف وفق مبادئ الواقعية، وعلى النصف الآخر (أي دول ما بعد التاريخ) أن تطبق الوسائل الواقعية في تعاملها مع النصف التاريخي. وستظل العلاقة بين النظم الديموقراطية والنظم غير الديموقراطية تتميز بالشك والتخوف، وسيظل استخدام القوة هو الحكم النهائي في العلاقة بينها على الرغم من الدرجة المتزايدة من الاعتماد المتبادل في المجال الاقتصادي". نهاية التاريخ ص ٢٤٤ . ثم يفصل في مناقشته عن عقيدته: "فإن الواقعية باعتبارها نموذجا إرشاديا تبين كيف يسير العالم.". ولست هنا لائما فوكوياما ولا وولفوتز ولا كيسنجر ولا بلير في الإيمان بالعقيدة الواقعية في السياسة، فتلك رؤيتهم كما يؤمنون بها، ولكن العجب فيمن يرى في هؤلاء فلاسفة مرشدين له بينما عقيدتهم تقطر احتقارا له، وهي خطة واضحة في الهيمنة على بلاده اقتصادها وسياستها ودينها وكرامتها، وفعلة وولفوتز والمحافظين الجدد كان قد وعد بها كيسنجر في مقابلة شهيرة عام ١٩٧٥م في مجلة بزنس ويك حين تحدث صراحة عن عودة الاستعمار المباشر للخليج.

إيمان كاتب أو مثقف بفكرة الواقعية السياسية الاستعمارية لبلاد العرب أو المسلمين أو غيرها فيه تناقض غريب مع بدهيات العقل والمصلحة، إلا أن تكون المصلحة شخصية وليست على مستوى بلد أو أمة أو عقيدة أو منطقة، لأنها حرفيا تعني أن تؤمن

بالحق للمستعمرين أن يدمروا حياتك ليسعدوا بحياتهم، وأن يفقروك ليغتنوا، وأن يعلوا من قيمهم لتنهار قيمك، وتلك صراحة نصوص فوكوياما وممارسات المحافظين على قيم الاستعمار قديما وحديثا، وقيم المحافظين على العنصرية، والداروينية الاجتماعية.

إن كان أحد منا يرى في ليبرالية فوكوياما ومذهبه السياسي الواقعي طريقا محمودا للإيمان به فتلك قضية من المهم وضوحها، ولكنها صريحة في نفسها وفي ثقافة أتباعها، أنها تعني لشعوبهم الاحتلال للأنظمة والنهب للثروات، وتعني في حق كل غربي أن له أن يحتل ويدمر كل عائق وطني أو قيمي أو سياسي أو ديني يخالف مصلحته. لأن هذه القيم المحافظة غير قابلة أن تكون عالمية إلا في حالة واحدة وهو أن تمتهن وتحتل قوة أو دولة الجميع، فلا خلاف معهم لأنه قد انتهى وجودهم المصلحي المخالف وأصبحوا جزءا من الإمبراطورية التي لها حق تقرير المصلحة والواقع.

وهنا أسوق مثالا من واقعية هؤلاء المحافظين وهي أسعار "البترول"، فهذه الأسعار العالية ضد مصلحة الشعوب الغربية، ومنطق المدرسة الواقعية أن تخفض الأسعار ولو بالغزو، ولكن هناك سبباً مهماً غائباً عن البعض، وهو أن شركات الإنتاج التي تكسب نحو نصف السعر شركات غربية، فالمصلحة للطائفة المتنفذة في قرار الواقعيين السياسيين قائمة من ارتفاع الأسعار، ولو نزلت الأسعار عن مستوى مقبول لسقطت البنوك الممولة لشركات البترول الغربية، ولسقطت شركات نفطية كبيرة، هذا سبب؛ ثم سبب آخر أن هؤلاء المحافظين من كبار المستثمرين في

حقل البترول وشركاته، فالمدرسة الواقعية تجعلهم يبقون الغبن الواقع على المستهلك الضعيف، ويستفيدون من تعالي نقمته على الدول العربية، التي يرونها مصدر الشر الاقتصادي والسياسي، فيبتزونها بدعم مشاريعهم الواقعية، وفي الوقت نفسه يستعيدون تدوير الأموال الداخلة للدول الضعيفة بأشكال أخرى؛ ثمن أسلحة واستثمارات وتطمينات، وتعويضات وإعادة بناء وما شابه.

الديموقراطية

لا يكره عاقل روح الحرية، وهي شوق المستضعفين في كل مكان، ومن دعا للحرية فإنه يدعو لولوج كرامة الإنسان، ولكن الديمقراطية التي يتحدثون عنها في أمريكا ليست ديمقراطية بلادهم التي ارتضوها لشعوبهم، وليست الديمقراطية التي وله بها الناس، إنها نمط جديد قديم، يعرفه كل من اصطلى بنيران السياسة الواقعية الاستعمارية، إنها حرية أن تصرخ، وأن تمتعض، وأن تنتخب وتنتخب ولكن لا تخرج بلادك من ربقة النفوذ، ولا تتصرف في قرارك بحرية، ولا في مستقبلك كما تريد.

ثم إن أمام عينك شاهداً يفقأ عين كل مناور، فهذه إيران فيها ديمقراطية، تماما على شروط الانتخاب العادية، ولكنها تريد أن تكون مستقلة، بترولها لها وقرارها لها ولها دينها، ولكنهم لم يرضوا عنها ساعة من نهار، فهم يهددونها بوجود سلاح نووي، وكانت الحال من قبل أسوأ وهم بلا سلاح نووي، وهذا نهجهم مع كل ديمقراطية لا تستجيب لتحكمهم وديكتاتورية المحتل. فقبل

الثورة الأخيرة سعى (مصدق) في برلمان منتخب لاستقلال بلاده، فأعادوا الشاه للحكم، وكان في الواقع قناعا للاحتلال، وسجنوا رئيس البرلمان!!

لو جاء شعب منا وقال: هذه ديمقراطية على شروطكم، لقالوا له من أول لحظة: هذه ليست ديمقراطية ليبرالية؛ لأن فيها قبولا بالشريعة الإسلامية حاكمة لشيء من جوانب الحياة،أو بسبب ما يمكن أن يشموه من رائحة الاستقلال، وهكذا سيكون لكل قرار ما ينقضه، وكنت قد نشرت قريبا شيئا من هذا في مقال: "الفجر الكاذب للديمقراطية" .

لندع كل هذا الكلام السابق ونقف مع جانب مهم من كتابة فوكوياما ومذهبيته السياسة، فهو من مدرسة كيسنجر، مدرسة السياسة الواقعية.

الواقعية

أحد المذهبيات السياسية واسعة الانتشار، وهي تقابل المدرسة المثالية، المدرسة الواقعية تنطلق من أن الإنسان مشغوف بالقوة، حصولا عليها، وتقديرا لها، واستجابة لها، وخضوعا، فتهتم بثبات القدرة القصوى على شن الحرب، والسعي الدائب للمزيد من القوة، وعدم مراعاة القوانين في وجه الحاجة للقوة، وعدم مراعاة الأخلاق في السياسة،تدفعها غريزتان إما العدوانية الحيوانية، أو الرغبة في الأمن، وهذا الأخير تبرير الواقعيين المقدم للناس اليوم. أما المثالية فهي المدرسة التي ترى ممارسة العلاقات الدولية من

خلال مؤسسات دولية ومبادئ قانونية، وتنطلق من أولوية الأخلاق في العلاقات بين الدول. (النظرية في العلاقات الدولية)، عدة مواضع.

يعترف فوكوياما بأصل المدرسة الواقعية، وأنها الميكافيلية، الغاية تبرر الوسيلة، ويقول: "لقد كان ماكيافيلي المبشر الحقيقي بالواقعية،.. وأنه على خير الدول أن تتبنى سياسات أسوأ الدول إن هي أرادت البقاء.. غير أن أفصح المدافعين عن الواقعية في الجيل الماضي هو هنري كيسنجر.. الذي رأى أن مهمته في المدى الطويل هي أن يعلم الجمهور الأمريكي كيف يتخلى عن الليبرالية التقليدية للرئيس ويلسون، وكيف يتبنى فهما أكثر واقعية للسياسة الخارجية، والواقعية هي ما يميز تفكير تلاميذ كيسنجر، وخاصة العديدين ممن استمروا في تكييف السياسة الخارجية الأمريكية... ونقطة البداية في كل النظريات الواقعية هي افتراض أن الافتقار إلى الإحساس بالأمن هو المظهر الدائم للنظام الدولي بسبب الطابع الفوضوي المستمر لهذا النظام. فحيثما لا يكون ثمة حاكم للعالم تظل أي دولة عرضة للخطر من قبل أي دولة أخرى، ولن يكون هناك علاج لإحساسها بعدم الأمان إلا باستخدامها السلاح للدفاع عن نفسها". نهاية التاريخ، ص ٢١٨ . كما تقرأ في هذه الطريقة في التحليل الصورة الواضحة لثقافة ميكافيلي وتلميذه كيسنجر وتابعه فوكوياما، ثم تعهد بوش الابن العلني بالحروب الاستباقية، وحق أمريكا بالقتل وانتهاك البلدان الأخرى بمجرد الشبهة، وهذه دعوى أوهى من الكذب في قصة العراق، إذ يكفي في هذه الحالة تقرير صحفي كاذب أو صادق لاحتلال بلد.

وإن لم يتيسر ذلك فالعمل باستغلال الايديولوجيا، -مثل ما يحدث اليوم من وعود الديمقراطية، أو إرهاب الناس بتهمة أنهم بعثيون أو أصوليون أو غير ذلك- والأفكار البراقة لإرهاب الشعوب الأخرى، واقرأ أحد مراجع فوكوياما التي لا نحمله مسؤوليتها، ولكننا نرى تطبيقها في قضية المتاجرة بالديمقراطية التي تعني بلا مواربة الاحتلال، ونهب الضعفاء: "من أخص خصائص السياسة إجبار الممثل على مسرح السياسة على استخدام الأيديولوجيات حتى يخفى الهدف المباشر لأفعاله - وهو دائما نيل السلطة-" ص٢١٨ . كما أن هذه المجموعات الواقعية لا تستند إلى مؤسسة مشروعية قانونية، ولا تثق بالقانون الدولي ولا بالأمم المتحدة، وهذا ما يفسر موقف هؤلاء اليوم من هذه المؤسسات. فبوش اليوم يصر على تعيين الصهيوني بولوتن ممثلا لأمريكا في هيئة الأمم المتحدة، وهو من عرف بشتم الأمم المتحدة، واحتقار دورها ومكانتها.

ففوكوياما إن تخلص من ميكافيلي فهو أسير كيسنجر، لا يمل تبجيله والاستسلام لمواقفه، بل يرى كتابه رسالة الماجستير عن ماتيرنيخ وزير خارجية النمسا مثالا لدراسة المدرسة الواقعية في السياسة. إن ما سقناه هنا هو جانب من ملامح المنظّر السياسي المنحاز عندما يبرر السياسة فلسفيا!

ذلك بعض ما تسمح به مساحة الجريدة، ولم نقل بعد كثيرا مما نود قوله حول فكرة المؤلف والنقد له أو عليه.

(*) مداخلة لم تنشر بسبب تأخرها

---

obeikandl.com

د. زهير الحارثي×: (١ - ٣)

سقوط نظرية فوكوياما..لا تعني نهاية العالم

* مقولات المثقفين الغربيين الذين رأوا فيها أن (طالبان) نموذج (للوهابية) التي تتبناها السعودية مغالطة علمية كبيرة.

* الملفت أن فوكوياما يتهم السعودية كدولة بتمويل الإرهاب في محاضراته غير انه استدرك في حواره مع (الرسالة) أن أناسا سعوديين يمولون الإرهاب.

عندما هاتفني الأستاذ عبد العزيز القاسم وأبلغني بالحوار الذي أجراه مع المفكر فرانسيس فوكوياما، طالبا مني التعليق عليه.أخبرته أن هذه المحاولة جديدة في إعلامنا المحلي ولم نعتد عليها، خاصة عندما يكون الضيف من الأسماء التي لها حضور على الساحة ومن منظري السياسة الأمريكية ومن دعاة (الإسلاموفوبيا)، فإنه بلا شك يعتبر من الحوارات الصحفية المهمة، وإن كان الحديث لم يأت بجديد عن طروحات الضيف، إلا أن الحوار كشف لنا مدى ضحالة المعلومات التي يمتلكها فوكوياما عن السعودية والإسلام، وهو أمر مثير للدهشة لاسيما وأن أغلب كتب ومحاضرات فوكوياما تعرّض فيها كثيراً للسعودية والإسلام الجهادي وفق تعبيره. وسوف أقوم بتفنيد بعض النقاط المذكورة في الحوار ثم أعرج على أطروحات المنظر الأمريكي التي كرسها في كتبه ومحاضراته.

أولا، ومع اتفاقنا في قوله إن هناك إيديولوجية جهادية يكرسها ابن لادن وهي إيديولوجية سياسية، إلا أنه ارتكب خطأ جسيماً في اتهامه غالبية المجتمع السعودي بأنه غير متسامح وأن المجتمع السعودي منقسم على نفسه، ثم يمضي مناقضا نفسه بأنه غير متخصص في شؤون الإسلام، ولا يفهم في الحقيقة المدارس والانقسامات والتفسيرات، ثم لا يلبث أن يعود قائلا: إن المجتمع السعودي ليس مجتمعاً مغلقاً، وهذه التعليقات المتباينة والمتناقضة لا تليق بباحث نكنّ لأبحاثه كل التقدير، فقد كان غير واضح في هذه المسألة، فمن يسمعه في محاضراته يخرج بانطباع أن المحاضر مرجعية وخبير في المجتمع السعودي والإسلام وقضاياه، غير أنه يعترف اليوم خلاف ذلك.

كما أن من المفاهيم المغلوطة التي ذكرها فوكوياما في الحوار هي رؤيته حول التعاليم الإسلامية والبيئة الثقافية وعملية التغيير، فقارن الفصل بين الدولة والكنيسة في العالم المسيحي وكأنها مسلّمة يجب أن تتم في العالم الإسلامي والسعودية تحديداً مطالباً إياها بإيجاد طرق مختلفة في تفسير النصوص الدينية، وهذه مسألة يصعب طرحها بهذا التبسيط لاسيما وقد اعترف أنه غير متخصص في هذا المجال، كما أنه من البدهيات أنه يصعب فصل الدين الإسلامي عن ثقافته، فهو أحد عناصرها ومنتجاتها في نهاية المطاف. وهذه مسالة يطول شرحها وليست مثار نقاشنا هنا .غير أن المفاجأة في قوله: إن الحرب لم تعد مع الغرب، بل بين المسلمين أنفسهم، ويعتقد فوكوياما أن ثمة معركة بين المسلمين

حول تفسير الإسلام. وهذا تبسيط مخل وغير دقيق، فالشريعة الإسلامية ومدارسها المتنوعة تنزع إلى الاعتدال والتسامح والوسطية، فالإسلام الوسطي المعتدل هو الغالب وصاحب الشريحة الأكبر في عالمنا الإسلامي، ووجود فئات متطرفة في رؤيتها للإسلام لا يعني أنها تمثل الإسلام بل هي منبوذة داخل مجتمعاتنا ولم تعد تكسب تعاطف المسلم المعتدل خاصة بعد عملياتها الإرهابية والتي تخالف تعاليم الإسلام السمحة.

وعاد فوكوياما متهما السعودية ومؤسساتها في أمريكا بأنها تموّل رجال دين متطرفين في الولايات المتحدة حيث تبين أنهم في السجون حسب قوله، ولا أعلم مدى صحة هذه المعلومة ودقتها، فأنا لم أسمع بذلك، كما أن تقارير لجان الكونجرس والتقرير الذي صدر عام ٢٠٠٢م برأ السعودية ومؤسساتها بدعم الإرهاب. ولعل الملفت في معظم محاضرات فوكوياما نسمعه يتهم السعودية كدولة بتمويل الإرهاب وبأنها تكرس الوهابية، غير أنه استدرك في مقابلته مع (الرسالة) أن هناك أناساً سعوديين يمولون الإرهاب، وأن الحكومة لم تستطع السيطرة عليهم، وكنت أتمنى لو ذكر لنا أمثلة دقيقة وبراهين مؤكدة، فالمتحدث باحث ومفكر وكان عليه ربط المعلومة ببرهان حتى يستقيم الحديث.

وعندما تمعن في الحوار تلحظ أن المصادر التي يعتمد عليها لم توفر له المعلومة الصحيحة، بدليل أن أعمال سيد قطب المترجمة لا تعكس حقيقة الإسلام المطبق في السعودية، كما أن دراسات المثقفين الفرنسيين عن الإسلام ليست بالضرورة صحيحة أو يتوفر فيها الحد الأدنى من الحياد والمصداقية.

وأشار في معرض حديثه إلى أن معرفتهم بالسعوديين تأتي من خلال أولئك الذين درسوا في الغرب ولا يعرفون من يعيش في الداخل، مع أن هؤلاء مواطنون مثلوا بلادهم أحسن تمثيل وعادوا وشاركوا في عملية التمية، فهم من النسيج المجتمعي، ورؤيتهم لا تنفصل عن الرأي السائد في المجتمع. أما ما قاله عن إدوارد سعيد، فإنني لا أتفق معه في أنه كان يهدف إلى نشر أجندة سياسية. كان صوتا فلسطينيا دافع عن قضيته الأم، إلى جانب أنه طرح مسألة الاستشراق من منظور أبستمولوجي وبراجماتي، فكان منفردا في طرحه بشهادة الكثير من مثقفي الغرب.

ولعل الولايات المتحدة تناقض نفسها عندما يرى فوكوياما أنها ترسخ مبادئ الليبرالية، ولكنها ترفض الدخول في المحكمة الجنائية الدولية، وهذا مخالف لمفاهيم العدالة وحقوق الإنسان بدعوى خوفها من استخدام محاكمة الجنود الأميركيين كورقة ضغط سياسية وفق اعتقاد فوكوياما، فإن هذا عذر غير مقبول ولا يليق بدولة تدعي الديمقراطية لا سيما إذا علمنا أن المحكمة لها قوانين وأنظمة وبعيدة عن تأثيرات السياسة.

أما قوله: إن أصل الديمقراطية يكمن في المسيحية، فأعتقد أنه جانب الصواب، فالديمقراطية كمفاهيم وأساليب وآليات ترجع في الحقيقة إلى ما قبل المسيحية، والبعض يرجعها إلى الحضارة الإغريقية وفلاسفتها، فكانت السعادة هي القاعدة المركزية لتلك الحضارة، ومنها تأسست مفاهيم لتحقيقها عبر ما أنتجه سقراط

وأرسطو وأفلاطون وغيرهم، كما أن البعض يرى أن الأصل فيها إلى الفراعنة حيث توفرت لديهم آليات مؤسسية لحكم الشعب، ومن يتأمل التاريخ يجد ثمة شواهد لتلك الممارسات. صفوة القول أن مبادئ العدالة والمساواة كانت تدور في فلك الحضارات السابقة وليس مصدرها المسيحية كما يعتقد فوكوياما، بل تواجدت وإن كان بصور وأشكال مختلفة لكنها تبحث عن الوصول لنفس الغاية.

ويعتقد فوكوياما في حديثه لـ(الرسالة) أن نظريته(نهاية التاريخ) لا تتفق مع ما طرحه هنتنجتون، ورغم اختلاف المنهج،إلا أنني أعتقد أن الرؤية والغاية والهدف واحد، فهما وجهان لعملة واحدة: أمركة العالم.

وهذا يتطلب منا استعراض النظريتين بإيجاز لنصل إلى النتيجة، ولكن قبل هذا لنا أن نتساءل فعلا: هل هناك مؤامرة على الإسلام أم إنها تأثير أحداث أو إنها نتيجة تراكمات تاريخية. ربما تكون هذه أو تلك أو كلها جميعا، ولكن الحقيقة أن هنالك ثمة مقولة ترى بأن قرب الحضارات من بعضها البعض في العصر الحديث، يجعل الحوار في ما بينها أكثر إلحاحا من أي فترة تاريخية مرت بها البشرية.

ويبدو أن الحاجة الآن أكثر من أي وقت مضى إلى فكر فعال ذي بعد إنساني قادر على تجسير المسافات وردم الهوة التي لا تلبث أن تزداد اتساعا بفعل المعطيات والتحولات. فالأحداث الأخيرة وما رافقها وأعقبها من إفرازات، ساهمت بلا أدنى شك في تهشيم جسد التواصل الإنساني، وأعاد إلى الأذهان إشكالية الصراع بين الحضارات

الإنسانية، لتفرض نفسها على الساحة وكأنها صيرورة وهي ليست تطورا في الزمن فحسب، بل إنها ـ كما يعتقد هيغل ـ قبل كل شيء تطور غير زمني يحدث داخل الأشياء والأفكار، فيغيرها من حالة فقيرة ومجردة نسبيا إلى حالة أكثر غنى وموضوعية.

غير أن من تابع الإعلام الغربي، لا سيما بعد الاعتداءات في نيويورك وواشنطن، يلمس إلى أي مدى تم تكريس مفهوم الحرب الفكرية تجاه العرب، وفعلا قد أجاد الإعلام الغربي بمهارة فائقة في تنمية العداء والكراهية للعالمين العربي والإسلامي من قبل الشعوب الغربية، ولعل الأحداث التي تعرض لها بعض العرب في أميركا وبريطانيا دليل قاطع على قدرة الإعلام في التأثير على الفكر الاجتماعي الذي يعتبر مكملا للواقع الاجتماعي. وهذه الحملات (الحرب النفسية) ـ كما تقول إحدى الدراسات ـ أكثر خطورة من الحرب التقليدية، وعزت ذلك إلى كونها تهدم الشخصية من الداخل، فضلا على أنها حملات مُقنّعة فلا تظهر علنية، ورأت أن إطلاق هذه الحملات إنما يستهدف النيل من القيم والعقائد، وهز الإنسان العربي في شخصيته خاصة في ظل شعوره بالانعزال والخشية من الإهانة من المجتمعات الأخرى.

باحث سياسي سعودي

(*) نشرت المداخلة في ملحق الرسالة بصحيفة المدينة بتاريخ ١٤٢٦/٣/٢٠هـ الموافق ٢٩ أبريل ٢٠٠٥ م

د.زهير الحارثي: (٢ - ٣)

سقوط نظرية فوكوياما..لا تعني نهاية العالم

* هنتنغتون (يحذر) من صراع الحضارات ويطالب بالتحالفات لتستمر هذه السيادة، بينما يدعو فوكوياما (إلى عدم القلق) لأن سيادة الغرب قد أصبحت نهائية (نهاية التاريخ).

على أي حال، أنا لست من أنصار (المؤامرة) غير أن الطرح العلمي يبقى مقبولا إذا ما ارتهن إلى الموضوعية، وهو أحد عناصره بالطبع، وكنت قد لاحظت أن ثمة نزعة في بعض المقالات الغربية ومنها مقالات فوكوياما حول تضخيم ظاهرة (الإسلاموفوبيا) وهو الخطر من الدين الإسلامي الذي لوحظ زيادة معتنقيه بشكل لافت للنظر، وفي خضم كل هذا الاحتدام والتحليلات، كان لا بد من قراءة تقوم على التساؤل الذي هو من طبيعة العقل، ومن الطبيعي أن يستند إلى الاختلاف والتعددية واحتمالية الخطأ أو الصواب لا على اليقينية المطلقة أو المعصومية.

وحتى يمكن الوصول إلى نتيجة دقيقة أو محاولة ذلك على أقل تقدير لا بد من النفاذ إلى كوامن الخلاف وفهم حصيلة الصراع السياسي والفكري والعقائدي، رغم اختلاف الميول والطرائق والوسائل ناهيك عن تباين المصادر، لكن يفترض الاستناد إلى الحكم النيّر، طالما أن الرغبة تنصب في طرح موضوعي محايد، وشتان ما بين المصداقية والافتعال المجوج.

ولتوضيح ما أهدف إليه، لا بد أن نستعرض نظريات (هنتغتون وفوكوياما) منظري السياسة الأميركية التي ما برحت تشكل النظام العالمي، وهي القوة العظمى الوحيدة.

ويبدو أن أهمية تلك الأطروحات تأتي في وقت يدخل فيه العالم مرحلة جديدة، لكنها مرتبطة ارتباطا عضويا بما سبقها من أحداث وتراكمات مما زاد في تعميق الهوّة بين العالم الإسلامي والغرب، وحين المضي إلى المزيد من إيضاح الصورة، لا سيما بعد أحداث ١١ سبتمبر الماضي، طفت على السطح قصة الإرهاب وعلاقة الإسلام بالغرب،ومقولات لمثقفين غربيين رأوا فيها أن (طالبان) نموذج (للوهابية) التي تتبناها السعودية، وهنا بلا شك مغالطة كبيرة،، مضاف إليه نظرة معاصرة للإرهاب الذي اكتوت منه أميركا، وكان (فوكوياما) كتب قبل عدة شهور في جريدة «اللوموند» الفرنسية وفي جريدة «الجارديان» البريطانية، موضحا أن هناك أمورا ايجابية للهجوم الذي حدث على أميركا، منها أنه تولد شعور حقيقي بالانتماء القومي، وان أميركا أيقنت أنها دولة عادية مثلها مثل غيرها، معرضة لأخطار الإرهاب ولكي تحاربه، عليها طلب المساعدة من أصدقائها. لقد أيقظ حادث ١١ سبتمبر أميركا من سباتها، وشعرت بما يحس به العالم، ويبدو أن الكثيرين يتفقون مع (فوكوياما) في هذا الطرح.

مجدد النهج الهيجلي

على أن فرانسيس فوكوياما (تعني القسيس البروتستانتي) وهو - فعلا - ابن لقس ياباني، كان قد ها من اليابان إلى أميركا

منذ زمن بعيد، يُعد من مجددي النهج الهيغلي ـ نسبة إلى الفيلسوف هيغل، فأطروحاته رغم بعض الانتقادات الموجهة إليها، واعترافه هو ذاته بصحتها، إلا أنها اتسمت ـ كما يرى المختصون ـ بكثير من العقلانية المرتهنة للممكن والمعقول. هذا لا يعني تكاملها المطلق بقدر ما يعني أنها تحمل قدرا كبيرا من الحقائق في حين أن البعض رآها مسلمات لا تلبث أن تتغير.

كان هيغل قد تنبأ بنهاية التاريخ في القرن التاسع عشر بقيام الدولة القومية البروسية، وجاء بعده ماركس ليعلن أن الشيوعية هي بداية التاريخ الحقيقي، وستتلاشى الرأسمالية، ولكن ها نحن اليوم نعيش في وقت يقول لنا إن التاريخ لا يمكن أن يتوقف طالما أن علم الطبيعة الحديث ليست له نهاية ولذا فقد انهارت تلك الفرضيات، بينما لا يزال فوكوياما يصر على أن البشرية قد وصلت إلى نهاية التاريخ في ما يتعلق بالنظام السياسي، لا سيما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي، وأن أفكاره حول الحداثة لا زالت قائمة وصحيحة، ويمضي تلميذ هيغل في كتابه «نهاية التاريخ وخاتم البشر» قدما إلى التأكيد بأن الديمقراطية الليبرالية ستنتصر (سيادة الغرب) لأنها ـ حسب اعتقاده ـ خالية من العيوب، ولذا هو يهمس في أذننا بأن هذه الديمقراطية المتحررة، ونظامها الاقتصادي الذي يتحكم فيه السوق، هما البديل الوحيد النافع للمجتمعات الحديثة، وأن التاريخ اتجاهي ومتجدد ويبلغ ذروته في إطار الدولة الحديثة المتحررة. وقد توصل فوكوياما إلى هذه النتيجة باستخدام التاريخ من وجهة النظر الهيغيلية ـ الماركسية

الخاصة بالتطور التقدمي للمؤسسات البشرية السياسية والاقتصادية، ولذلك فهو يرى بأن التاريخ هنا مدفوع بعاملين اثنين: أولهما فهم علم وتقنية الطبيعة الحديث، الذي يوفر أساس التحديث الاقتصادي، وثانيهما: النضال من أجل الحصول على الاعتراف الذي يتطلب في نهاية الأمر نظاما سياسيا يعترف بحقوق الإنسان المتعارف عليها دوليا، كما أنه يرى أن ذروة عملية التطور التاريخي ليست في الاشتراكية ـ كما يرى الماركسيون ـ وإنما في الديمقراطية وفي اقتصاد السوق. ولذلك فهو يراهن على نجاح العولمة كنموذج تنموي، ومقللا من منافسه النموذج التنموي الآسيوي، بل وانتقص من أهميته بدليل تلك الأحداث ونتائجها الوخيمة التي تكشف سوء الأداء الاقتصادي الآسيوي، كما يريد أن يقول فوكوياما إن التقنية الحديثة ـ (قاعدة التطور لدى فوكوياما أن العلم هو الذي يحرك العملية التاريخية) ـ ستوفر للجيلين القادمين أدوات تمكنهم من تحقيق ما عجز عنه الاشتراكيون من تحقيقه في الماضي.

وهنا يعتقد فوكوياما بأننا وصلنا إلى نهاية التاريخ، لأننا سنكون قد قضينا على الإنسانية، ولحظتها سيبدأ تاريخ جديد لما بعد البشرية. وعاد فوكوياما ليقطع طريق النقد، مشيرا إلى القول إن القصد من «نهاية التاريخ» هو انتهاء حقبة وبداية أخرى، بالمعنى نفسه لدى ماركس بيد أن الفارق بينهما: أن ماركس (الاشتراكية) اعتبر أن التاريخ الإنساني الحقيقي يبدأ مع تشكل المجتمع اللاطبقي. ولكن لماذا لم تنجح الاشتراكية لتكون (نهاية التاريخ) ـ

هنا يجيب فوكوياما بأنه ربما الأدوات التي تبناها الاشتراكيون (الاشتراكية المبكرة، والتحليلية، والتشنج، ومعسكرات العمل) ربما كانت تلك الأدوات بشعة جعلتها غير قادرة عمليا على تحويل الأساس الطبيعي للسلوك البشري.

أما المجتمع الحقيقي، فقد بدأت تتشكل صورته (المجتمع ما بعد الصناعي)، مستدركا بالتأكيد على أنه يجب ردم فجوات كبيرة قبل أن يتم الانتقال النهائي من المجتمع الصناعي إلى مجتمع الخدمات، من إنتاج الأشياء إلى إنتاج المعلومات، من الطبقة إلى الفرد، وبالتالي من الأمة إلى العولمة، مستندا إلى أبحاث هيئة علم الطبيعة الحديث التي تشير إلى هيمنة علم التقنية الحديثة في القرن القادم.

انتصار الديموقراطية الغربية

ومن يتأمل مقولات فوكوياما يجد أنها تنتهج الأسلوب الهيغلي أو ما يسمى «بالحركة المنطقية»، حيث كل رأي أو موقف له بالتأكيد جانب معاكس أو مخالف، فالرأي له رأي آخر مخالف له، والموقف له موقف آخر معارض وهكذا، وبالتالي إذا اتحد هذان الرأيان أو الموقفان، فإنهما يشكلان في نهاية المطاف رأيا - حسب اعتقاد هيغل - أفضل من السابقين، فمثلا الرأسمالية والشيوعية، نظام ونظام مضاد، فالتوحيد بينهما يؤدي إلى تطورهما، ومن هذا التطور ينبثق نظام ثالث أرقى منهما وبعيدا عن لجة المصطلحات الأكاديمية، والتعمق في المنهج العلمي، نستطيع أن نقول إن

فوكوياما (كان نائبا لمدير مجموعة تخطيط السياسة بوزارة الخارجية الأميركية، ويعمل حاليا مستشارا لمؤسسة راند في واشنطن) يريد أن يرسل رسالة إلى صانعي القرار السياسي الأميركي مؤداها (لا تقلقوا) فالانتصار للديمقراطية الليبرالية، وسيكون العالم ليبراليا، وسيبقى ليبراليا ما بقيت الحياة، حيث يكون التاريخ قد انتهى بوصوله إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه البشر من رقي وسمو، هنا فوكوياما يروج للنموذج الأميركي ويؤكد على تفوقه وعلو كعبه وقد أتهم ـ فعلا ـ من قبل البعض بأنه أداة في يد المؤسسة الأميركية، نظرا لأن آراءه تستقطب اهتماما عالميا.

وفي هذا السياق، لا بد أن نذكر صموئيل هنتنغتون ونظريته «صدام الحضارات» وبكثير من الإيجاز نجد أنها تقول إن النزاعات الدولية سواء منها الإقليمية أو العالمية ستكون في المستقبل على شكل صدام حضارات، وليس على صراع أيديولوجي، لأن الاختلاف بين الحضارات حقيقة الوقوع. ويرى الباحث الأميركي أن المحور البارز في السياسة الدولية سيكون الغرب، مؤكدا بأن البؤرة المركزية للصراع العالمي ستكون بين الغرب والحضارتين الإسلامية والكونفوشوسية (الصينية). وما دام الأمر كذلك فإن هنتنغتون (مدير معهد جون أولين للدراسات الاستراتيجية بجامعة هارفارد) يطالب الغرب باحتياطيات ضرورية عليه أن يتخذها من الآن على المديين القريب والبعيد منها زيادة التسليح حفاظا على التوازن العسكري مع الصين والدول الإسلامية ودعم الجماعات المتعاطفة مع الغرب في الحضارات الأخرى، ومحاولة اختراق

الحضارتين (الإسلامية والصينية) من الداخل والخارج وذلك بتعميق فهمه للأسس الفلسفية والدينية التي تقوم عليها تلك الحضارتان، كما أن على الغرب - أيضا - أن يحافظ على قوته الاقتصادية لحماية مصالحه، مؤكدا بأن هاتين الحضارتين تمثلان التهديد الحقيقي للغرب ومصالحه.

وصاحبنا هنا على عكس صديقه فوكوياما، فهو أيضا يرسل رسالة إلى المؤسسة الأميركية قائلا: (احذروا)، هناك صراع حضارات، وإذا أردتم أن تحافظوا على سيادة هذا العالم، فعليكم أن تتحركوا وتخططوا قبل فوات الأوان! إذن، صاحبنا هذا من مروجي النموذج الأميركي - أيضا - وينزع إلى تكريس النهج الليبرالي الذي تتزعمه الولايات المتحدة الأميركية.

(*) نشرت المداخلة في ملحق الرسالة بصحيفة المدينة بتاريخ ١٤٢٦/٣/٢٧هـ الموافق ٦ مايو ٢٠٠٥م

obeikandl.com

د.زهير الحارثي: (٣ -٣)

سقوط نظرية فوكوياما ..لا تعني نهاية العالم

* عندما يعتقد فوكوياما أن «نهاية التاريخ» لا تعني سوى انتصار المؤسسات الغربية فكيف له أن يفسر لنا حالة الانقسام (الانشقاق) الراهنة بين أميركا وأوروبا

على أن البعض يتهم هنتنجون وفوكوياما بتأثرهما بتخصصهما في مجال الدراسات السياسية الاستراتيجية ذات العلاقة المباشرة بالقرار السياسي، الذي ينطلق عادة من مصالح آنية أو قصيرة المدى، لذلك فإن طروحاتهما تفتقد إلى المعنى التاريخي الشامل، فهما لم يأخذا التاريخ كوحدة تحليل ـ كما يرى تركي الحمد ـ أو فترة زمنية طويلة، وهنا كان الخلل في النتائج العامة التي وصلا إليها، هذا لا يعني عدم وجود صراع بين الثقافات في الماضي وفي الوقت الحاضر، ولا يعني نفي حقيقة الانتصار الحالي لليبرالية. كل ذلك موجود، لكن السؤال هو: هل مثل هذه النتائج مطلقة ودائمة، كما تتضمن كتابات هنتنغتون وفوكوياما؟ النتيجة التي يصل إليها الكاتبان ـ تقريبا ـ هي نتيجة واحدة (ضرورة وأهمية سيادة الغرب)، فهنتنغتون (يحذر) من صراع الحضارات ويطالب بالتحالفات لتستمر هذه السيادة، بينما يدعو فوكوياما (إلى عدم القلق) لأن سيادة الغرب قد أصبحت

نهائية (نهاية التاريخ) وأن التغيير سيتم لا محالة عاجلا أم آجلا، وما هي إلا مسألة وقت فقط.

على أنه من الطبيعي ألا ترتهن النظرية إلى اليقينية المطلقة (المعصومية) فهي مُعرضة إلى النقد وإلى النقصان، وهذه مُسلمة بحثية ليست مثار نقاشنا هنا، بقدر ما أن المسألة في جوهرها تتعلق بما ذكره فوكوياما لـ(لرسالة) وإصراره على صحة طروحاته بغض النظر عن المعطيات الماثلة والظروف الكائنة، فعندما يعتقد (فرانسيس فوكوياما) أن «نهاية التاريخ» لا تعني سوى انتصار المؤسسات الغربية، مؤكدا أنه لا ثمة خيار خارج الديمقراطية الليبرالية واقتصاد السوق، فكيف له أن يفسر لنا حالة الانقسام (الانشقاق) الراهنة بين أميركا وأوروبا، رغم أن الأخيرة تُعتبر من ضمن النسيج الغربي، إن جاز التعبير، كما أن الأصوات التي خرجت منها والمعبرة عن الانتقاد والاستهجان لمنحى سياسة الإدارة الاميركية لم تقتصر على فئة دون أخرى بل شملت جميع ألوان الطيف المجتمعي من ساسة ومثقفين ومفكرين ورأي عام. كان لا بد أن يقول (فوكوياما) شيئا، فنظريته يبدو أنها في طريقها إلى السقوط! وفي محاضرته التي ألقاها في ملبورن (١٨ أغسطس) تساءل بدهشة: ماذا حدث بعد ١١/٩؟! وكأنه تعرض لصفعة مؤلمة هشمت اليقينية المطلقة، وأدخلته إلى عالم (النسبية) والتعدد والاختلاف والرؤية القائمة على الخطأ والصواب لا على (المعصومية). يقول «إن هوة كبيرة انفتحت بين التصورين الأميركي والأوروبي للعالم، فيما تراجع في شكل متزايد الشعور بالمشاركة

في القيم» ويرى أن الخلاف «يأتي من خلاف في المنظور لموقع الشرعية الديمقراطية من الحضارة الغربية عموما».

إذن يتضح لنا إذا استندنا إلى رؤية (فوكوياما)، أن ثمة خللا في المرجعية الفكرية لمفهوم الشرعية الديمقراطية لكلا الطرفين، رغم انه يفترض أنهما ينتميان إلى ذات الفضاء، وفي هذا تناقض بيّن ما بين طرحه الأخير وبين ما جاء في نظريته من أن القيم الغربية ومؤسساتها هي الخيار ولها الانتصار والتسيد «نهاية التاريخ».

على أن الخلل الذي يتوصل إليه المحاضر يكمن في (المصدر) للشرعية الديمقراطية فالولايات المتحدة ترى أن الدولة تحقق هذا المفهوم، في حين أن الأوروبيين يميلون إلى الاعتقاد بأن «الشرعية الديمقراطية تنبع من إرادة المجتمع الدولي». ولعل الجدل الذي دار العام الماضي حول الضربة العسكرية الموجهة للعراق يكشف جزءا كبيرا من هذا الخلاف بين أميركا وأوروبا. فالمحاضر يعتقد أن الأميركيين يرون في صدام حسين خطرا، كونه يمتلك أسلحة نووية وانه سيقدمها إلى الإرهابيين. بالمقابل يستبعد الأوروبيون ذلك، ويعتبرون أن أحداث ١١ سبتمبر كانت أحداثا معزولة، وهنا يرى فوكوياما أن الأوروبيين يعتقدون أن خطر الإرهابيين الإسلاميين لا يتوجه إلى الغرب عموما، بل يقتصر على أميركا بسبب سياستها في الشرق الأوسط والخليج.

إذن، ما هي الآلية للتعامل مع الحالة العراقية؟! الولايات المتحدة كانت ترى الحل في الضربة العسكرية، بينما مال

الأوروبيون إلى سياسة الاحتواء التي أثبتت فعاليتها منذ حرب الخليج.

وبالعودة إلى المرجعية نجد أن كلا منهما يكرس مفهومه لمعنى القيم والديمقراطية، مستندا إلى الزاوية التي ينظر منها إلى المسألة، ولعل المفارقة هنا تكمن في أنهما ـ وقبل التحولات والمتغيرات الأخيرة ـ اعتادا على الانطلاق من أرضية واحدة ذات قيم ومفاهيم تكاد تكون متطابقة، ولكن ما حدث إذا ما ارتهنا إلى المنطق والعقلانية، يبدو طبيعيا، بل يجب أن يحدث، لان فلسفة التغير والتغيير، والتأثر والتأثير ستبقى ما بقي الإنسان.

ولكن ماذا إذا كان مصطلح الديمقراطية ينزع إلى أرضية غير صلبة ـ كما تبين لنا آنفا ـ وهو بمثابة اجتهاد إنساني في نهاية المطاف، فإن النتيجة لا تلبث أن تفرز مفهوما لا يتسق ومعطياتها، ولذا لا يمكن الركون إليها أو قبولها، وشتان ما بين طرح مفتعل مطلق وحكم عقلي نيّر مرتهن إلى احتمالية الخطأ والصواب.

إن سقوط فرضية ما(نظرية نهاية التاريخ على سبيل المثال)، يُعد أمرا مقبولا في مجال البحث العلمي، وفشلها لا يعني ـ كما يقول المثل الإنجليزي «نهاية العالم»، بقدر ما أنها محاولة بشرية ورؤية شخصية تتسم بالبحث في العلل والحفر في التراكمات وربطها بمعلولها، ولذا فهي تحتمل القراءات المختلفة، غير أن الكارثة في الإصرار على أنها (خالية من العيوب) وان نتائجها دائمة ونهائية ومطلقة. بقي أن نقول إن التاريخ مفتوح لكل

الاحتمالات، وفلسفة التغير والتحول ستبقى ما بقيت الحياة، فما الحياة إلا مسرح للتعددية والاختلاف، ولن تُسدل ستاره إلا بنهاية الإنسان ذاته.

(*) نشرت المداخلة في ملحق الرسالة بصحيفة المدينة بتاريخ ١٤٢٦/٤/٥هـ الموافق ١٣ مايو ٢٠٠٥ م

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

سهيلة زين العابدين حماد(*):

أبعاد الحوار مع صناع القرار الأمريكي

في البداية أهنئ الأستاذ عبد العزيز قاسم على الحوار الذي أجراه مع أحد صناع القرار السياسي في الإدارة الأمريكية البروفسور فرانسيس فوكوياما الذي كان عضواً في مجلس إعداد السياسات في عهد إدارة الرئيس رونالد ريجان بصفته عضواً نظاميًا متخصصاً في شؤون الشرق الأوسط. كما كان عضوًا في مجلس إعداد السياسات في عهد إدارة الرئيس الأمريكي جورج بوش الأب عام ١٩٨٩. بصفته نائب مدير الشؤون العسكرية والسياسية الأوروبية. وفي عام ٨١ - ٨٢ كان عضوًا في المفوضية الأمريكية التي شاركت في المباحثات المصرية الإسرائيلية حول الاستقلال الفلسطيني، فحوار مع شخصية كهذه يعد سبقاً صحفياً للأستاذ عبد العزيز قاسم يستحق عليه جائزة أفضل حوار، وهو بمثابة دعوة للمثقفين في العالمين العربي والإسلامي لفتح باب الحوار مع مهندسي السياسة الأمريكية وصنّاع القرار بها أمثال "فوكوياما" لتصحيح الرؤى لهم، فمعلوماتهم عن الإسلام والعالمين العربي والإسلامي يشوبها الكثير من التشويه والخلل، فهم يحكمون على الإسلام والعرب والمسلمين بموجب معطيات سيطرة الفكر اليهودي الصهيوني على العقلية المسيحية، والتي لم تتحرر منها مهما بلغت من العلم والمعرفة، وهذا ما أقر به المؤرخ البريطاني

أرنولد توينبي في كتابه «مشكلة اليهودية العالمية»، ومن هنا نجد البروفسور فوكوياما ينظر إلى الإسلام كنظام ثقافي معقد مساوٍ بينه وبين النظم الثقافية المختلفة، ويريد إخضاعه للتغيير، غير مفرق بين الثوابت والمتغيرات في دين سماوي، ملمحاً إلى فصل الدين عن الدولة وسائر شؤون الحياة، كما حصل في أوربا في العصور الوسطى من ثورة على الكنيسة أدت إلى نشوء العلمانية.

الإسلام والحداثة:

لقد استوقفني في الحوار ما ذكره البروفسور فرانسيس فوكوياما عن موقف الإسلام من التطور العلمي، وهو يرى أنَّ الدين يعوق التطور العلمي، وأقول له هنا: إنَّ الدين الإسلامي دين العلم والمعرفة فقد قال جل شأنه في الآية ٣١ من سورة البقرة: ﴿**وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ**﴾ وقال جلّ شأنه: ﴿**علَّم الإنسان مالم يعلم**﴾، كما علَّمه البيان ﴿**الرَّحْمَنُ ۝ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾.

وقد زوَّد الخالق جلَّ شأنه الإنسان بأهم أدوات التعلم وهي العقل والسمع والبصر والفؤاد، وعلى الإنسان أن يُحسن استخدامها، وإلاَّ فهو والأنعام سواء يقول تعالى: ﴿ **ولقدْ ذَرَأْنا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الجِنِّ والإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاّ يَفْقَهُونَ بِها وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِها وَلَهُم آذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِها أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الغَافِلُون** ﴾ بل حثه على استخدام المنهج العلمي باستخدام أدوات

البحث العلمي في قوله تعالى: ﴿ولا تقفُ ما ليس لك به علم إنَّ السمعَ والبصرَ والفؤاد كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عنه مسؤولا﴾ ولقد تحدى القرآن الكريم العقائد الموروثة والأفكار الجاهلية بالمنهج العلمي فقال جلَّ شأنه: ﴿قل هاتوا بُرهانكم إنْ كُنْتُم صادقين﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُم مِنْ عِلمٍ فَتُخرِجُوهُ لَنَا إنْ تَتبِعُونَ إلاَّ الظَّن وإنْ أَنْتُمْ إلاَّ تخْرُصُون﴾.

فالمنهج العلمي أول ما جاء به الإسلام وطبَّقه "الحسن بن الهيثم" في بحوثه وكشوفه العلمية قبل "فرنسيس بيكون" الذي نُسب إليه المنهج العلمي. ولأهمية العلم فلقد جعله الإسلام فريضة على كل مسلم ومسلمة، إنَّ أول كلمة في القرآن نزلت هي كلمة "إقرأ" التي جاء فيها قوله تعالى: ﴿اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وربُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾.

لقد جعل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم فداء كل أسير من أسرى المشركين في غزوة بدر، وهي أول معركة بين المسلمين ومشركي قريش هو تعليم عشرة من الصبيان في المدينة المنورة؟ إنَّه دين حضاري وإنساني قائم على العلم واحترام أهل العلم وتكريمهم، فلقد جعل العلماء ورثة الأنبياء، وهم أكثر خشية لله لأنَّهم على علم بقدرته عارفون به، يقول تعالى: ﴿إنَّمَا يخشى اللهَ مِنْ عِبَاده العُلَمَاءُ﴾ وبين أنَّ أهل العلم لا يتساوون مع الذين لا يعلمون، يقول تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يستَوِي الذينَ يَعْلَمُون وَالَّذينَ لا

يَعْلَمُون ﴾ بل يرفع الله أهل العلم درجات، يقول تعالى: ﴿ **يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم وَالَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ دَرَجَات** ﴾.

وقد حثَّ الإسلام على طلب العلم وجعله طريقاً إلى الجنة، فلقد أخرج الإمام مسلم في صحيحه عن طريق أبي هريرة رضي الله عنه، أنَّ رسول الله محمداً ﷺ قال: (من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهَّل الله له طريقاً إلى الجنة)، فهذا فضل العلم والعلماء في الإسلام، والذي ينكرونه عليه متّهموه بأنَّه ضد العلم، وأنَّه يدعو إلى التخلف والرجعية، فليتبصروا ويتأملوا في هذه الآيات القرآنية، وفي واقع الأمة الإسلامية عندما تمسّكت والتزمت بالإسلام أية حضارة شيّدتها، وأي علم وصلت وارتفعت إليه؟ فموقف الإسلام من العلم وتشجيعه عليه، ورفع مكانة العلماء، ومساواة البشر جميعاً في طلبه فجَّر في المسلمين طاقات الإبداع، وأضاف مفهوماً جديداً إلى مفهوم العلم لم يكن يلقى اهتماماً عند اليونانيين، وهو استخدام العلم في كشف أسرار العالم الطبيعي، وقهر الإنسان للمادة، والسيطرة عليها، واستخدم المسلمون الرياضيات في حل المشكلات الواقعية التي تواجه الإنسان، وبرعوا في استخدام الأرقام ووضعوا علم الحساب، واكتشفوا الصفر في كتابة الأرقام، واخترعوا علم الجبر، وتفوقوا في الهندسة التحليلية، وابتكروا حساب المثلثات، وكانت هذه أول مرة تستخدم فيها الرياضيات للتعبير عن قوانين العالم الطبيعي، وفي علم الطبيعة ابتكر "ابن الهيثم" علم الضوء، كما اكتشف "ابن سيناء" الجاذبية الأرضية قبل إسحاق نيوتن بسبعة قرون، وللأسف فقد

نسب الغرب هذا الاكتشاف إلى إسحاق نيوتن، وفي مجال الطب فلقد اكتشف ابن النفيس الدورة الدموية الصغرى، كما عرف العرب التغذية عن طريق شق العلوم بالحقن، وهم أول من عرف الخدمة السريرية، والتعقيم وانتقال العدوى في بعض الأمراض، وعرفوا الجراثيم وطرق وقايتهم من الأمراض شبيهة بطرق الوقاية المعروفة اليوم. وفي علم الصيدلة فلقد أجمع مؤرخو العلوم أنّ علماء العرب والمسلمين هم الذين وضعوا قواعد علم الصيدلة وفصلوها عن الطب؛ إذ كان الطب والصيدلة مهنة واحدة. ويرجع تفوق العلماء المسلمين في علم الصيدلة إلى تفوقهم في الكيمياء وعلم النبات. هذا ويعتبر جابر بن حيَّان مؤسس علم الكيمياء، وأصبح في أوربا في العصور الوسطى يطلق على علم الكيمياء "علم جابر"، أو "بصنعة جابر" وكتابه "الخالص" كان يدرس في أوربا لعدة قرون، وممّا لا شك فيه فإنَّ إنجازات العلماء المسلمين في علم الكيمياء كان لها أثر كبير في صناعة الأدوية، وفي كثير من الصناعات منها صناعة الأسلحة. أمَّا إنجازات المسلمين في علمي الفلك والجغرافيا فلقد ساعد على تطور علوم الأرض والفضاء.

إنَّ إنجازات المسلمين في كل العلوم لا تعد ولا تحصى، وما ذكرته على سبيل المثال لا الحصر لأبينَّ أنّ الإسلام هو الذي دفع بالمسلمين إلى كل هذه الاكتشافات العلمية لأنّ هؤلاء العلماء أول شيء يتعلمونه هو العلوم الدينية من حفظ القرآن الكريم، ودراسة تفسيره، ومن حفظ الأحاديث النبوية، ودراسة الأحكام الفقهية الشرعية، ثُمَّ ينطلقون في دراساتهم للعلوم التي يرغبون في

دراستها، ومعهم الذخيرة النفيسة من العلم التي ترشدهم وتلهمهم وتؤهلهم لطرق كل العلوم، والنبوغ فيها فأسهموا في إنشاء حضارة فريدة تميّزت على كل الحضارات، وأصبح المسلمون يمثلون أكبر قوة في العالم، فمثلاً: "ابن خلدون" مؤسس علم الاجتماع وعلم العمران، وصاحب العديد من النظريات الاقتصادية التي سبق بها "آدم سميث" استقى نظرياته الاجتماعية والعمرانية والاقتصادية من القرآن الكريم، ومن السنة الشريفة، وقد كان عالماً فقيهاً، وقاضياً تولى القضاء في مصر. فالعالم لم يعرف الحضارة العلمية إلاَّ عن طريق الإسلام الذي دفع بالمسلمين إلى ذلك، فالعلوم الدينية تخرج العلماء والمفكرين والمخترعين لمن يدرسها حق دراستها، ولا تُفرِّغ الإرهاب، كما تزعم الحملة على الإرهاب.

والدين الإسلامي دين مرن يصلح لكل زمان ومكان، ولا يصطدم مع الحداثة ما لم تمس الثوابت العقدية، فلكل شيء في العالم قوانين وضوابط، فأنت لكي تنظم دولة تضع لها دستوراً تسير عليه وتعاقب من يخرج عليه وتسائله حتى لو كان رئيس الدولة، ولكل مؤسسة لوائح تنظمها وتسير عليها، ولولا الأديان وتشريعاتها والقوانين والدساتير واللوائح والتنظيمات والعقوبات لسادت الفوضى في العالم، وللفكر ضوابط لو تجاوزها لانحرف ودمَّر صاحبه ومن حوله، ولو أطلق العنان للفكر لعبث بخلق الله، ودمر الإنسانية، فالدين هو الضابط والكابح لجماح الفكر إن تجاوز حدود نواميس الخلق والكون.

ابن لادن صناعة أمريكية

أهنئ الأستاذ عبد العزيز قاسم على حصوله على اعترافات من أحد منظري السياسة الأمريكية أنّ ابن لادن وتنظيم القاعدة صناعة أمريكية، وبالتالي كان هناك تظليل من قبل الإعلام الغربي، وفي مقدمته الإعلام الأمريكي للرأي العام العالمي بأنّ المملكة العربية السعودية بدعمها للجهاد في أفغانستان أوجدت تنظيم القاعدة. وحصوله أيضاً على اعتراف آخر، وهو اكتشافهم أنّ تعامل الأمريكيين مع المثقفين السعوديين كان قاصراً على الذين تعلموا في أمريكا، وأنّ معلوماتهم عن المجتمع السعودي قاصرة، فهم لا يفهمون حقيقة المدارس والانقسامات والتفسيرات والاختلافات داخل المجتمع السعودي لعدم وجود خبراء أكفاء ينقلون لهم الصورة الحقيقة، وهذا في الحقيقة يدفعني إلى هذا التساؤل: إن كانت الإدارة الأمريكية تجهل حقيقة المجتمع السعودي وما يدور فيه على أي أساس تمارس ضغوطها على المملكة، وتطالبها بالإصلاح، وترسم لها خطوات هذا الإصلاح، وهي لا تعلم شيئاً عن هذا المجتمع الذي هو بمثابة صندوق أسود بالنسبة لها على حد تعبيرالبروفسور فوكوياما؟

أنت لا تستطيع أن تصلح مجتمعاً، وتضع خطة استراتيجية لإصلاحه، والخطوات التنفيذية لهذا الإصلاح، وأنت تجهل طبيعة هذا المجتمع وتركيبته الدينية والعقدية والثقافية والسكانية، ومدى تقبل أفراده لما تريد فرضه عليهم بإصدار قرارات سياسية قد

تصطدم مع ثوابت دين هذا المجتمع، ثُم كيف تريد إصلاحه، وأنت تنظر إلى دينه وعقيدته هذا كنظام ثقافي، وليس كدين سماوي، وتريد فصله عن جميع نواحي الحياة، مع أنَّك لو فهمت الإسلام فهماً صحيحاً، لوجدته ديناً شاملاً نظَّم حياة الإنسان وعلاقته بخالقه، و بكل فرد من أفراد أسرته، وبخدمه وجيرانه وحكامه، وبمن لا يدينون بدينه، تنظيماً دقيقاً، ولم يترك صغيرة ولا كبيرة إلاَّ وتناولها ونظمها من قبل أن يخلق الجنين في بطن أمه إلى أن يولد وينمو ويغدو صبياً ثمَّ شاباً، ثم رجلاً ناضجاً ثمَّ كهلاً، ثمَّ ميتاً؟

إنَّ من أخطاء الإدارة الأمريكية الفادحة التي ستودي بالولايات المتحدة إلى الهلاك وهاوية الانحدار والسقوط هو تدخلها السافر في الشؤون الداخلية لدول لها سيادتها المستقلة، وفرض الهيمنة الأمريكية على شعوبها، و الثقافة الأمريكية بالقوة العسكرية بدعوى تحريرها ودمقرطتها، بل نجدها تتدخل في الدين الإسلامي، وتريد أمركته، بإلغاء القرآن الكريم، وفرض ما يُسمى بـ "الفرقان الحق" على المسلمين بإعلان الحرب عليهم بعد تجويعهم إن رفضوا قبوله، وتمسكوا بكتاب الله، كما تريد تحديث الثقافة الإسلامية بإلغاء الكتابة بالأحرف العربية واستبدالها بالأحرف اللاتينية، بدعوى أنَّ الكتابة بالأحرف العربية تحرض على العنف والعدوانية من جهة، وأنَّ الذين يكتبون بالأحرف العربية محدودن، وأنَّ شعوب العالم تريد التعرف على تراث العرب وثقافتهم مع أنَّ الذين يكتبون بالأحرف العربية إضافة إلى العرب الهنود ومتحدثي الفارسية واللغة الملاوية والسواحلية، وغيرها،

وإضافة إلى المسلمين من غير العرب الذين يقرأون القرآن يتجاوزون المليار، ومطالبة المسلمين عدم الكتابة بأيديهم والاعتماد على أجهزة الطباعة، والغريب أنَّ اللغة العبرية لم يطالب الأمريكان كتابتها بالأحرف اللاتينية مع أنَّ متحدثيها لا يتعدون الأربعة عشر مليوناً إن كان جميع اليهود يعرفون العبرية، ومعروف أن الذي وضع مشروع كتابة العربية بالأحرف اللاتينية مؤسس حركة الصهيونية العالمية "تيودور هرتزل"، واضح أنَّ المقصود من هذه الدعوة هو القرآن الكريم ليستغلق فهمه على المسلمين، وليتم تحريفه إن كتب بأحرف غير عربية، وهذا من ضمن ما جاء في مخطط فرقان الحق، وهو كتابة القرآن بأحرف لاتينية، كما تريد فرض على المسلمين إمامة المرأة للرجال، وقيامها بالأذان، وأداءها الصلاة، وهي حاسرة الرأس، هل تجرؤ الإدارة الأمريكية أن تعبث بالدين اليهودي كعبثها بالإسلام؟ ، وهل يُفرض على اليهود تعيين حاخام "امرأة"، وعلى المسيحيين تعيين امرأة لتكون بابا الفاتيكان؟ فالحرب واضحة على الإسلام، وعلى القرآن الكريم بصورة خاصة لأنَّه بالقضاء على القرآن انتهى الإسلام، وهذا لن يكون، وكل من يقدم على ذلك سوف يُهلك، كهلاك جيش أبرهة الحبشي عندما قدم لهدم الكعبة عام ٥٧٢م، فالله حافظ لبيته ولكتابه **﴿إنَّا نحن نزَّلنا الذكر وإنَّا له لحافظُون﴾**.

فالذي أرجوه من البروفسور فرانسيس فوكوياما أن ينصح المثقفين المسيحيين والإدارة الأمريكية بالتحرر من سيطرة الفكر اليهودي عليهم، كما ينصح الإدارة الأمريكية بالتخلي عن مشاريعها الإصلاحية التي يضعها لها اليهود الصهاينة لتنفذها على البلاد

العربية والإسلامية، ولا تجري وراء ما يخططونه لها فهم يريدون استخدامها كأكبر قوة في العالم لتنفيذ مخططاتهم في السيطرة على العالم، لأنَّ سعيها في تنفيذ مخططهم سيقضي عليها، وسيسقطها كقوة عظمى، وستحل محلها إسرائيل، وبوادر السقوط أضحت واضحة، وقد توقع خبراء أمريكيون أنَّ الولايات المتحدة سيخبو نجمها، وستسقط كدولة عظمى في غضون العقدين القادمين، وهي الآن تعاني من أزمة مالية خانقة. وعليها أن تتخلى عن دعمها الدائم والمستمر لإسرائيل الذي سيؤدي بها إلى التهلكة، وعليها أن تفتح صفحة جديدة مع العرب والمسلمين، فالإسلام دين رحمة وتسامح دين يحترم الديانتين السماويتين السابقتين له، وهما اليهودية والمسيحية، ولا يكمل دين المسلم ما لم يؤمن بموسى وعيسى والتوراة والإنجيل وسائر الأنبياء والمرسلين والكتب السماوية، وقد أوصانا بالبر بمن لا يحاربنا. يقول تعالى: ﴿ لا يَنْهَاكُمُ اللهُ عنِ الذين لمْ يُقَاتلوكُمْ فِي الدِّينِ ولَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِّنْ دِيارِكُمْ أنْ تَبرُّوهُم وتُقْسِطُوا إلَيْهِم إنَّ اللهَ يُحبُّ المُقْسِطِين. إنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الذِّينَ قَاتَلُوكُم فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّنْ دِيارِكُمْ وَظَاهَرُوا على إِخْرَاجِكُم أَنْ تَوَلَّوهُمْ وَمَنْ يَتَولَّهُمْ فَأولَئكَ هُمُ الظَّالِمُون ﴾ وقال تعالى: ﴿ ولاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الكتابِ إلاَّ بالتي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ والرسول صلى الله عليه وسلم قال: «**من آذى ذمياً فأنا خصمه، ومن خاصمته خصمته يوم القيامة**».

وقبل أن أختم حديثي مع البروفسور فوكوياما ما أود أن أقول له: إنَّني أختلف معه في نظريته حول نهاية التاريخ، فالتاريخ حراك إنساني لا ينتهي إلاّ بقيام الساعة. ونهاية العالم الدنيوي، ولكن مادامت الحياة الإنسانية قائمة على وجه البسيطة فلن ينتهي

التاريخ، لأنَّ الإنسان هو صانع التاريخ بممارسته لشتى شؤونه الحياتية، وأود أن يكون بيننا لقاء عند قدومه إلى السعودية ولقائه بالمثقفين السعوديين، فنقاشي معه لم ينته بعد.

* عضوة المجلس التنفيذي ولجنة الدراسات والاستشارات بالجمعية الوطنية لحقوق الإنسان

(*) نشرت المداخلة على حلقتين في ملحق الرسالة بصحيفة المدينة بتاريخ ١٩ و٢٦ /٤/١٤٢٦هـ الموافق ٢٦ / ٤ و٣ / ٦ / ٢٠٠٥ م

obeikandl.com

obeikandl.com

السفير عبدالله الأشعل(*):

أفكار فوكوياما تتسم بالتطرف الفكري والرغبة في النيل من الرمز الإسلامي

يوسف القعيد(**):

فوكوياما كاذب ومنظر للأيديولوجية الأمريكية

القاهرة ـ حسين أبوعايد

هاجم المفكر السياسي د. عبدالله الأشعل مساعد وزير الخارجية الأسبق أفكار فوكوياما ووصفه بالماكر الذي يعرف الحقيقة ويكابر.. وقال: إن أفكاره تتسم بالتطرف الفكري والرغبة في النيل من الرمز الإسلامي وهو المملكة العربية السعودية التي تمثل للعالم الإسلامي موقعا وحضارة لضرب الإسلام والمسلمين.

وأضاف: إن مقولته خلال حواره مع "الرسالة" أن في المملكة دائرة واسعة من الناس الذين يشتركون في خيار متطرف من عدم التسامح بعضها ليست أيدلوجية ابن لادن لكنها تمثل شكلا من أشكال عدم التسامح في الإسلام ـ أقول إن هذا قول العلمانيين جميعا لعدم اعترافهم بالإسلام، وأنا أشعر بالأسى أن بعض الكتاب ينزلقون لهذه المفاهيم، وهذا شكل من أشكال النظر في الإسلام وكان من الواجب على فوكوياما أن يفرق بين التطرف الموجود في

كل الديانات وبين الإسلام، فالدين حجة على أتباعه وليس العكس، ولا يجوز له أن يتحدث عن التسامح في الإسلام، لأن الله لا يمكن أن يرسل دينا خاتما ثم يكون فيه عدم التسامح حتى لغير المنتمين له، لأن الحكم على الدين يكون من منطلق أنه عاكس للقيم التي ضمنها الله سبحانه وتعالى في هذا الدين.

وأوضح الأشعل أنه لا يجب الخلط خاصة للمراقبين بين الدين وبين بعض أتباعه، فالصورة التي ارتسمت في الذهن الأمريكي هي صورة وقاصرة وهي أن تمثيل المجتمع السعودي وصورته من خلال ابن لادن ومن أراد أن يرى المملكة فهي متمثلة في هذا الشخص المنشق، ومن أراد أيضا أن يرى الإسلام على حقيقته فهو في شخص ابن لادن، بالرغم أن هذا جرم وخطأ كبير للعقلاء، والكل يعلم جيدا أن ابن لادن ليس صناعة سعودية وأيضا طالبان التي كانت الولايات المتحدة تستخدم كل أدوات الضغط على العالم العربي للاعتراف بهم.

وأضاف: لو صح جدلا أن من قام بتفجيرات ١١ سبتمبر ١٥ سعوديا وهذا يحتاج للجنة دولية للتحقيق فيه لعدم وجود دلائل حقيقية على ذلك فهل نتهم شعبا بأكمله، فلا الـ ١٥ يمثلون المجتمع السعودي وليس ابن لادن يمثل أكثر من مليار مسلم. مؤكدا أن المملكة بقياداتها المستنيرة الواثقة لا تنتظر من يدافع عنها أو يصحح مفاهيمها من أمثال فوكوياما هذا الذي يعد من زمرة الذين يتهجمون على الإسلام والرموز الإسلامية بغير موضوعية ونفاق واضح.

من جهته يقول الأديب الكبير يوسف القعيد: إن فوكوياما الياباني الأصل ـ الأمريكي الجنسية يروج من خلال كتاباته لأفكار تمهد وتخدم فكرة الهيمنة الأمريكية على العالم ومقالته الشهيرة "نهاية التاريخ" التي طبعت في كتاب تؤكد ذلك. وهو حينما يقول في هذا الحوار الذي نشرته "الرسالة" مؤخرا في رده على تساؤل حول نظريته "إذا أخبرني أحد بوجود ما يثبت عكس ذلك فسأكون سعيدا وسأقول إنني مخطئ في نظريتي" إنما هو كاذب وهناك أقلام كثيرة تصدت لآرائه وردت عليه في أفكاره وكذلك كتب كثيرة..

وحينما تنبأ فوكوياما في نظريته بأن كل الصراعات التي ستدور في البشرية مستقبلا ستدور في أماكن شهدت نزول رسالات سماوية أي إنها صراع ديني.. مبني على أساس ديني.. لكن أكبر دليل على خطأ نظريته الحرب التي قادتها أمريكا ضد أفغانستان والعراق فالهدف الاقتصادي للولايات المتحدة من وراء هاتين الحربين واضح، ففي حالة أفغانستان كان الهدف هو البحث الأمريكي عن موطئ قدم قريب من الصين التي بدأت في صعودها الاقتصادي الرهيب مما سبب لأمريكا الكثير من المتاعب، أما الحصول على البترول فكان الهدف الحقيقي وراء الحرب الأمريكية على العراق، لذلك فإن فوكوياما كان كاذبا حينما قال: "أعترف بأن ما حصل في أفغانستان خطأ كبير وتكرر الولايات المتحدة نفس الخطأ في العراق.. أنا شخصيا لم أكن أحبذ الحرب" حيث كان يجب عليه أن يقول: أغسل يدي من الحرب التي أقدمت عليها أمريكا في أفغانستان والعراق لأسباب دينية ـ حسب نظريته ـ

لذلك أرى أن فوكوياما وأمثاله ما هم الا منظرون للأيديولوجية الأمريكية ويقدمون لها أسسا عقائدية وفكرية مهمة وهذا الرجل ـ بنظرته وأفكاره ـ يبرر للإدارة الأمريكية ما تقوم به من مجازر حول العالم بدليل أن نظريته قالت بالصراع الديني في حين أن الحربين الأخيرتين لا علاقة لهما بالدين.

ويضيف القعيد: نظرية فوكوياما تنطوي على تناقض شديد حيث قال بانتهاء التاريخ بعد سقوط الاتحاد السوفيتي وأنا أسأله: ما الذي نعيشه الآن.. أليس ذلك تاريخا؟!.. يا سيد فوكوياما التاريخ لم ينته، والصين ما زالت موجودة وفي حالة صعود مستمر وكذلك الهند في حالة استيقاظ، ولو شاء العرب والمسلمون لأصبح لهم وضعهم التاريخي القوي.. إذن نهاية التاريخ ما هي إلا كذبة كبرى يروج لها فوكوياما وأمثاله من مستشاري الإدارة الأمريكية.

** محلل سياسي مصري*

*** أديب وروائي مصري*

(*) نشرت المداخلة في ملحق الرسالة بصحيفة المدينة بتاريخ ١٤٢٦/٤/١٢هـ الموافق ٢٠٠٥/٥/٢٠م

وائل مرزا[*]: (١ - ٢)

حوار القاسم وفوكوياما: إعادة اكتشاف الآخر

* كم مثقفا عربيا يمكن أن يتهمه المحاور بالمغالطة العلمية والنفاق الثقافي واعوجاج التحليل المنطقي ثم يضطر إلى شكره لن نتحرك خطوة إلى الأمام بدون النقد الذاتي والمراجعة الداخلية المستمرة والاعتراف بالأخطاء؟

فوكوياما.. كم أثار هذا الاسم من الجدل منذ عقد ونيف؟! في البلاد العربية بالذات، أفلح الرجل في أن يصبح صنماً يرجمه المثقفون من كل جانب. يومها، ظهر واضحا مرة أخرى إلى أي درجة يمكن أن تؤثر الكلمة والفكرة في صناعة الواقع. فكل ما حدث هو أن الرجل قال: إن التاريخ انتهى. وإن نهايته جاءت على شكل انتصار للحضارة الغربية، خاصة في نسختها الأمريكية. هزّت الفكرة، على بساطتها، الكثيرين في الشرق وفي الغرب على حد سواء. وأثّرت حتى على تفكير بعض أهل السياسة ممن (قبضها) هنا وهناك. لكنني لا أعتقد أن حبراً سال في التعليق على الفكرة وملاحقتها والهجوم على صاحبها أكثر من الحبر العربي.. هذا الحبر القابل للاشتعال بسرعة.. الحبر المتحفز المنفعل تجاه كل ما يأتي من الخارج.. الحبر الذي يمكن شغله وإغراقه بسهولة في منطق ردود الأفعال.. أما توظيفه في تفجير الفعل البشري وصناعة الحدث.. فدونه خرط القتاد..

كثيرة جدا هي المسائل التي يمكن التعليق عليها في لقاء القاسم بفوكوياما. واستعراضها بشمول غير ممكن في هذا المجال. وباعتبار أن معظم تعليقات العدد السابق من الرسالة كانت تتمحور بشكل أو بآخر حول (الرد) على الرجل وتفنيد آرائه. فإننا (للتنويع) سنحاول إلقاء الضوء على جانب آخر ربما يمكن أن نسميه (إعادة اكتشاف) نموذج معين للمثقف الغربي، ولطريقة تفكيره، ومراجعاته الثقافية. نموذج يوجد منه الكثيرون في الغرب المعاصر. يجب أن يعرف به الكثيرون في ساحة الثقافة العربية. خاصة من قراء الرسالة من (الإسلاميين).. لأن إطلاع هؤلاء على مثل هذا الجانب من الواقع العالمي يعود لا محالة بالخير عليهم وعلى وطنهم وأمتهم والعالم أجمع..

لم يكن الجهل بشيء ما في هذه الحياة عيبا في حد ذاته. فمعرفة كل شيء هي دعوى الجاهلين. خاصة في هذا الواقع المعاصر المشبع بالحيوية والتغيير والتعقيد. لكن العيب يكمن في التقصير حيث يجب بذل الجهد، وفي الركون إلى الاستسهال عندما يكون مطلوبا استفراغ الوسع في الدراسة والمتابعة والتمحيص والإحاطة. من هنا تنبع المشكلة في نظرة غالبية الإسلاميين إلى الغرب. حين يطغى عليها التعميم في الأحكام، والسطحية في القراءة، والجزئية في الرؤية والفهم. وحين يخلطون بين (فهم) الظاهرة (والحكم) عليها.

يصدق هذا على النظرة إلى الواقع الغربي بشكل عام. ولكنه يصدق بشكل أكبر على النظرة إلى الواقع الثقافي والفكري

والأكاديمي في الغرب. لا نقصد هنا أن ذلك الواقع ناصع البياض شديد الطهارة كما قد يفهم بعض من يفكر بعقلية الثنائيات المتقابلة. وإنما المقصود بالتحديد هو أن تلك النظرة التي نتحدث عنها مشوهةٌ إلى درجة كبيرة. ولا علاقة لها بحقيقة الواقع إلا في بعض الجزئيات. ووجودها يكمن وراء كثير من الإشكاليات الثقافية الموجودة بين الغرب والشرق. وبالتالي وراء ما يترتب عليها من مآزق سياسية وعسكرية واقتصادية. وفي أقل الأحوال فشيوع تلك النظرة لا يساعد على التعامل مع المآزق وإيجاد الحلول المطلوبة لها بما يحقق مصلحة الإنسانية جمعاء..

يحمل الحوار المذكور دلالات كثيرة حول طبيعة هذا النموذج من المثقفين الأمريكان أشار إليها القاسم في المقدمة ومن خلال الأسئلة. وهي دلالات يجب التفكير فيها وتأملها ملياً من قبل من يهمه الأمر من المثقفين السعوديين والعرب بشكل عام. وما تحدث عنه القاسم من صفات الخلق الحسن والاعتراف بالخطأ والصبر على الاستفزاز والصراحة والوضوح والتلقائية والروح العلمية لا يجب أن يُنظر إليه على أنه حديث في علم الأخلاق.. فالمسألة ليست مسألة مدحٍ أو ذم. ولا هي قضية إعجاب أو ازدراء. وإنما تدور حول أدواتٍ لاكتساب وتنمية المعرفة البشرية، توجد المعرفةُ بوجودها، وتنعدم بغيابها. يتطور الإنسان ثقافيا وفكريا بامتلاكها، وتتقزّم إنسانيته بافتقادها. والذين يتحلون بتلك الصفات من كل قوم وجنس ليسوا ملائكة أو قديسين يمشون على الأرض. فهم بشر من البشر، يخطئون ويصيبون.

والذي يقرأ الحوار الذي نتحدث عنه يلمح الخطأ ويرى القصور، بل وحتى التبسيط، هنا وهناك في آراء فوكوياما. هذا من وجهة النظر العربية والإسلامية بطبيعة الحال. ولكنك على الأقل تستطيع أن تحاور مثل هذا الإنسان بكل حرية وصراحة وقوة. وهو لن يطلب منك التحكم في الأسئلة، ولا تغيير الإجابات. وهو على وجه اليقين لن يطلب منك إلغاء الحوار في النهاية لأنه لم يعجبه. بل ربما تستطيع أن تقنعه وأن تغير وجهة نظره إذا كان لديك الزاد الكافي. وفي جميع الأحوال لن تفتقد ابتسامة يودعك بها في نهاية المطاف. وهذا أقصى ما نحلم به في الساحة الثقافية العربية والإسلامية..

لا يريد المرء أن يقوم بالمقارنات في هذا المجال.. ولكن التساؤل يأتي ملحاً: كم مثقفا عربيا يمكن أن يتهمه المحاور ضمنا بالمغالطة العلمية والنفاق الثقافي واعوجاج التحليل المنطقي في سؤال ثم يضطر إلى شكره على روحه العلمية في السؤال التالي، كما حصل مع القاسم في هذه المقابلة؟!

نترك الجواب للقارئ. ولكنني أعتقد أن من أجمل ما يمكن في حوارات عبد العزيز قاسم هو تلك الفرص الفريدة في الصحافة العربية المعاصرة، والتي يقدمها لقرائه. بحيث يظهر من مجمل وقائعها وأحداثها وملابساتها نموذجٌ حيٌ يعبر بصدق عن طبيعة الواقع الثقافي الذي نعيش فيه.. ورغم أن في مضمون تلك الحوارات الكثير مما يمكن الاستفادة منه. لكنني لا أزال أصر على قيمتها المتفردة ولو لم يكن فيها سوى ذلك الجانب من العطاء.

وعودة لمناقشة بعض ما ورد في الحوار. يلفت النظر مثلا رأي فوكوياما عندما سأله القاسم عن (تنميط) صورة إسلام ابن لادن في الغرب. حيث أجاب الرجل قائلا: "..ورأيي أن الأيديولوجية الجهادية التي يروج لها ابن لادن هي أيديولوجية سياسية في الأساس. ".. فالواقع أن علينا الانتباه إلى هذا الرأي. لأن هناك خلطا في استخدام التفسير الوارد فيه عند محاولة فهم كثير من الظواهر الحالية. فالتفسير يوحي بأن الأساسَ هو أن لشخصٍ مثل ابن لادن أجندة سياسية معينة. وأن تلك الأجندة مسبقة ومستقلة عن رؤيته الدينية، وأنه يوظف تلك الرؤية لتحقيق تلك الأجندة.

صحيح أن من المغري سياسيا وثقافيا استخدام هذا التفسير، لأنه يضفي درجةً من البراءة على النظامين الثقافي والسياسي في العالم العربي والإسلامي. وربما كان ذلك سبب شيوعه في بعض الأوساط الثقافية والسياسية العربية والإسلامية. ولكن التفسير غير صحيح إذا أردنا أن نستخدم المنهج العلمي بشيء من الصراحة و(الصرامة) والموضوعية. ذلك أن من الواضح أن الرؤية الدينية البحتة هي الأصلُ عند أمثال ابن لادن. فهي المنطلق الأول والأوحد لحركة الرجل في الدنيا. وهي مدخل فهمه لفعاليات وظواهر الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها. وهي على وجه الخصوص مصدر تحديده للقوانين التي تحكم علاقة الإنسان بالخالق وبالكون وبالإنسان الآخر.

ممكن جدا أن تكون تطورات الواقع في البلاد العربية والإسلامية قد أفرزت شرائح تريد توظيف الدين لأجندة سياسية.

ولكن ابن لادن وأمثاله ليسوا من هؤلاء. ومن الخطير الخلط في هذا المجال؛ لأن هذا يحرمنا من معرفة المصدر الحقيقي للمشكلة. وهو هنا طريقة فهم الدين، وتفسيره، وتنزيله على الواقع البشري، واستخدامه إطارا ينظم حياة الإنسان على هذه الأرض. لذا فالجهد الحقيقي المطلوب يتركز في استعادة (الاختطاف) الذي حصل لذلك الفهم للدين. من خلال ثورة (تصحيحية) للمفاهيم والمصطلحات والأفكار والتطبيقات.. وهي ثورة ربما تكون أبعد مدى مما يتصور الكثيرون، إذا ما أريد لها حقا أن تستعيد أصالة الدين قبل أي شيء آخر..

من هنا. يصحُّ أكثر ما ذكره فوكوياما حين قال: "أعتقد أن أكبر معركة قائمة الآن حقيقة هي ليست بين الغرب والإسلام ولكنها معركة داخل الإسلام حول طرق تفسير التقاليد الدينية".. في معرض إجابته على سؤال القاسم عن سبيل تصحيح صورة الإسلام والمسلمين في الغرب.

غير أن الخطوة الأولى على ذلك الطريق تتمثل في الاعتراف بأخطائنا بصراحة ووضوح في كل زمان ومكان. إذ ليس من الصواب أن نعترف في مقام وأن نواري في مقام آخر. ورغم أنني لا أعتقد أن القاسم كان يقصد هذا في الحوار، إلا أنني لم أستطع إلا أن ألاحظ غياب مثل هذا الاعتراف في ثناياه. لقد اعترف فوكوياما مثلا بجهله النسبي عن الإسلام، واعترف بصراحة بمسؤولية أمريكا عما يجري في العالم قائلا: " كثيرون من الأمريكيين يعتقدون بأننا ارتكبنا خطأ كبيرا في أفغانستان. لقد

أردنا أن نخرج السوفيت من أفغانستان ولكننا بدلا من ذلك خلقنا هناك وحشاً.. ويجب عليّ وبكل أمانة أن أعترف بأن ما حصل في أفغانستان خطأ كبير وتكرر الولايات المتحدة نفس الخطأ في العراق". وهو في نفس الوقت لم يحمّل السعودية كدولة وكمجتمع الخطأ حيث قال: "وأنا لا أحمّل المملكة العربية السعودية المسؤولية لما حصل في أفغانستان ولا أعتقد أن كثيرين من السعودية يتوقعون هذه النتيجة التي أدت إلى ظهور الأيديولوجية المتطرفة الجهادية".

ولكن الذي يقرأ الحوار لا يرى بأن القاسم أشار بنفس الصراحة والوضوح ولو إلى شيء من دور ومسؤولية المؤسسة الثقافية الدينية عما جرى من أخطاء ويجري من ممارسات سلبية على أكثر من صعيد.. صحيح أن القاسم هو في مقام السائل. ولكن الحوار يبقى حوارا. ولو استخدم السائل مدخل الإشارة إلى أخطاء العرب والمسلمين وسلبياتهم بصراحة ووضوح، لربما تمكن من استخراج آراء أخرى تضفي على الحوار بعداً إضافياً من الثراء الثقافي والفكري. بدل الانحصار في محاولة إقناع المُحاوَر بأخطاء بلاده وحضارته وقسره على الاعتراف بها بأي طريقة..

لن نتحرك خطوة إلى الأمام بدون النقد الذاتي والمراجعة الداخلية المستمرة والاعتراف بالأخطاء. لقد أصبح هذا الرأي لازمةً نظرية لا نريد تكرار الحديث فيها. ولكن دلالات الحوار تفرض التذكير بها في أكثر من موقع. انظر مثلا حين سأل القاسم فوكوياما عن فرض قيم المجتمع الأمريكي على العرب والمسلمين. ماذا كان جواب الرجل؟ لقد قال ما يلي: "عندما خرجنا اليوم

وجدنا مطعماً كبيراً من سلسلة مطاعم ماكدونالدز الأمريكية.. لماذا يوجد هنا؟ هل لأن السفير الأمريكي أمر بإنشائه؟ لا، ولكن لأن المغاربة يحبون أن يتناولوا طعامهم فيه.. أنا لست فخوراً بذلك كرمز للثقافة الأمريكية ولكنه شيء أمريكي يحبه الناس أعتقد أن هذا يشير إلى انفعال الناس في الشرق الأوسط بهذه الثقافة بدلاً عن الحديث عمّن أجبرهم ليفعلوا ذلك". يمكن بعد سماع هذا الجواب، الذي تقشعر له الأبدان، القفز على دلالاته والإصرار على توجيه أصابع الاتهام إلى الآخر، وهذا ما قام به القاسم في الحقيقة على غير عادته.. ولكن إشارة الاستفهام العملاقة الموجودة في ثناياه ستبقى معلقة في الفضاء العربي والإسلامي. دليلا على الخلط في الأولويات. وعلامةً على رسوخ عقليةٍ تؤمن بلسان الحال إن لم يكن بلسان المقال أن لدى (الآخر) الداء والدواء..

نحن لا ندعو هنا لغض الطرف عن أخطاء الآخر. ولا يوجد أحد من السذاجة بحيث يعتقد أن كل ما علينا فعله هو الاهتمام بشؤوننا، بغض النظر كلياً عن فهم مواقف ذلك الآخر وعن تحليل ومعرفة سياساته. لكن المطلوب هو توزيع نسب الاهتمام بتوازن من حيث معرفة حقيقة قدراتنا وما يمكن لنا فعله على الأقل. وواضح في معادلة العجز والقدرة أننا أعجزُ عن تغيير الآخر، وأننا بالتالي أقدرُ على أن نغير أنفسنا. وإذا كانت الخطوة الأولى لتغيير الذات تتمثل في فهمها. لماذا لا تكون مثل هذه الحوارات فرصة نطلب فيها من الآخر الذي نحاوره أن يخبرنا برأيه عن كل ما يتعلق بنا، مباشرةً وبوضوح وبشيء من التفصيل والهدوء والتحليل، بدل أن

يأتي هذا من قبله بشكل غير مباشر ومن خلال دفاعه عن ذاته وهو يرى نفسه في قفص الاتهام؟ ..

** باحث سياسي وكاتب في صحيفة الوطن*

(*) نشرت المداخلة في ملحق الرسالة صحيفة المدينة بتاريخ ١٤٢٦/٣/٢٧هـ الموافق ٦ مايو ٢٠٠٥م

---

ohneikandil.com

obeikandl.com

وائل مرزا: (٢-٢)

حوار القاسم وفوكوياما: إعادة اكتشاف الآخر

* غالبية هؤلاء المثقفين يمثلون خطا فكريا يحمل جميع تعقيدات وتناقضات الإرث والواقع الثقافي والسياسي الغربي

إن في حوار القاسم وفوكوياما الكثير من الإيجابية. وهي إيجابية يمكن رؤيتها من عدة وجوه أشرت إليها في هذا التعليق بشكل مباشر وغير مباشر. ولكنني أعتقد بأن الفائدة الأولى تتمثل في أن يكون مثل هذا الحوار حافزا للتفكير، جديا، وبشكل علمي ومنهجي، وبعيدا عن ضجيج الشعارات، في كيفية فهم هذا النموذج من المثقفين الغربيين. ومن ثم، في الطريقة الأنسب للتعامل والحوار معهم على المدى الطويل. ذلك أن من السذاجة بمكان تسمية رسالة أو اثنتين من المثقفين على أنها حوار. كما أن من التبسيط الاعتقاد بأن دعوة بعض الصحفيين والأكاديميين تفي بالأغراض المطلوبة من ذلك الحوار.

إن غالبية هؤلاء المثقفين الذين نتحدث عنهم يمثلون خطا فكريا يحمل في طياته جميع تعقيدات، وأحيانا تناقضات، الإرث والواقع الثقافي والسياسي الغربي. حيث يمكن أن تتعايش المبادئ في جانب مع المصالح من جانب آخر، والمعرفة في قضية مع الجهل في قضية أخرى. رغم هذا، يشعر كثير منهم بالانسجام الداخلي

بأشكال يستغربها وربما يرفضها المثقفون من حضارة أخرى. ولكن استعمال الاستغراب والرفض مدخلا للتعامل معهم لا يؤدي إلا إلى تعميق الهوة. وهو بالتأكيد لا يخدم قضايانا في شيء. في حين أن التقاط خيوط معينة في أطروحاتهم وبناء حوارات ومشاريع عليها يمكن أن يساهم في ردم تلك الهوة.

لقد حاولت التقاط بعض تلك الخيوط على سبيل المثال بشكل سريع ووجدت كثيرا مما يمكن يمكن أن يكون مداخل تفكير داخلي أو مداخل حوار مع الآخر. فيما يلي بعض الأمثلة من النوع الأول (الإسلام نظام ثقافي معقد يملك تاريخا طويلا جدا، وله الكثير من الطبقات والمستويات المختلفة من الأفكار، وقابل لأن يفسر بطرائق متنوعة تماما)، (في وجه التحدي الجهادي لم يكن هناك أعداد كافية من الناس داخل المملكة العربية السعودية وداخل الدول الإسلامية الأخرى ممن يعترضون حقيقة على ذلك ويدخلون في معركة أيديولوجية)، (كان يوجد جهد سعودي لتمويل رجال دين هم في السجون الآن، ممن اعتنقوا الإسلام وبعض هذه الجهود مقلقة لأن نوع الإسلام الذي اعتنقه هؤلاء بواسطة البعثات ليس معاصراً لكنه نسخة متطرفة)، (يوجد في السعودية أناس يريدون تمويل الإرهاب والحكومة لا تستطيع السيطرة عليهم.. هذا ما نفهمه في الولايات المتحدة ولذلك سؤالنا هو: ما الذي سيحدث في المستقبل؟ هل هذه مشكلة يمكن حلها دون خلق أزمات داخل المجتمع السعودي؟) تلك بعض آراء الرجل. فهل يمكن أن نفكر ونتحدث بوضوح وصراحة مع النفس في هذه القضايا؟ أم هل ننكرها؟ وهل ينهي الإنكار الموضوع؟

أما بالنسبة للنوع الثاني فقد وجدت ما يلي (تصحيح صورة الإسلام ليس مسألة علاقات عامة ولا تتعلق بمحاولة تسويق المملكة العربية السعودية إلى الجمهور الغربي. حاولنا أن نفعل ذلك في سياساتنا في الشرق الأوسط ولم ينجح مسعانا كما ينبغي)، (الغرب لا يدري بما يحصل داخل السعودية.. ونحن لا نسمع شيئًا عن التطورات التي تتحدث عنها)، (أنا شخصياً لم أكن أحبذ الحرب لأنه وبمجرد أن تبدأ الحروب يكون لها دائما نتائج غير متوقعة لا نراها في البداية وأعتقد أن الإدارة الأمريكية وهي تسعى لوأد الإرهاب في العراق قد أنشأت في واقع الأمر إرهاباً أكبر. لقد ارتكبنا أخطاء بالفعل وعلينا تداركها وتصحيحها)، (صانعو القرار في الولايات المتحدة ينظرون للسعودية كصندوق أسود.. لا نفهم في الحقيقة المدارس والانقسامات والتفسيرات والاختلافات المتعددة عندكم، ولا نفهم التغيرات المختلفة للإسلام في السعودية.. هذه مشكلة يجب حلها)، (نحن لدينا سوق حرّ مفتوح للأفكار)، (لا أعتقد أن باستطاعة الولايات المتحدة أن تقول أي شيء عن الإسلام، وأعتقد أن أي تغيير في الإسلام ينبغي أن يحدث من المسلمين أنفسهم)، (أنا لست من أنصار استخدام القوة المفرطة لنشر الديمقراطية. في الواقع إن مفهوم الديمقراطية نفسه ينبئ بعدم قدرة أحد على فرضه على مجتمع آخر، فالديمقراطية تعني الاختيار الشعبي وإذا لم يرغب الناس في المجتمع في الديمقراطية فلن تحدث)، (أعتقد أن ما يحدث في جوانتامو نوع من رد الفعل المبالغ فيه قامت به الولايات المتحدة

وفقدت الولايات المتحدة الكثير من مصداقيتها السياسية بمعاملة المسجونين بهذا النحو.. فهذه المعاملة لا تستحق أي مكاسب تحققها الإدارة بانتهاجها هذا الأسلوب)، (أهل الشرق يحاولون إنشاء نظام سياسي في الشرق الأقصى يستند على القيم اليابانية وقد هزموا في ذلك، لكنهم عندما هزموا لم يستمروا في المقاومة بل بدءوا بالمنافسة اقتصادياً وليس عسكرياً)، (لا أعتقد أنه في النهاية سيكون هناك تجمع ثقافي واحد.. الثقافة ليست وسيلة لتحقيق غاية ولكنها غاية في حد ذاتها، والناس تود أن تبقى ثقافاتها وتحافظ على طرق حياتها.. لذلك فهي لن تختفي ولا أعتقد أنه أمر جيد أن تختفي.. لا أحب أن أرى نفس السلوك في كل مكان أذهب إليه لأن الاختلاف هو الذي يجعل للحياة قيمة ومتعة).

لماذا يقرأ إنسان حوار القاسم مع فوكوياما فتلفت نظره هذه الآراء، في حين يقرأ إنسان آخر نفس الحوار فلا يكاد يراها؟! وهل يترتب على هذا الاختلاف في النظر إلى الأمور اختلاف جذري في الموقف من الآخر وطريقة التعامل معه؟ وهل يشعر بعض المنصفين من القراء بعد قراءة المقاطع السابقة أنهم لم يكادوا يلاحظوها في قراءتهم الأولى؟ وهل توجد في هذا دلالات تتعلق بتركيبتنا الفكرية والثقافية يجب إعادة النظر فيها؟ وهل يؤمن ولو بعض القراء بأن من الممكن عمل الكثير فعليا إذا ما أُحسن التقاط تلك الخيوط ومتابعتها باحترافٍ يفهم كيف تعمل المنظومة العالمية المعاصرة؟

أترك القارئ الكريم مع الأسئلة السابقة ليفكر فيها بحرية. وأختم بطمأنة صاحب الحوار وقرائه بأن كل من يعرف الثقافة الأمريكية ويعرف شيئا عن فوكوياما يعلم أن الرجل ليس "مثقفاً يابانياً متأمركاً" كما نقل القاسم عن البعض. وإنما هو (أمريكي بقدر كون فطيرة التفاح أمريكية) كما يقولون في بلاد العم سام..

(*) نشرت المداخلة في ملحق الرسالة بصحيفة المدينة بتاريخ ١٤٢٦/٤/٥هـ الموافق ١٣ مايو ٢٠٠٥م

obeikandl.com

obeikandl.com

حسن الصفار[*]:

انفتاح الدعاة والمثقفين الإسلاميين على الآخر

المبادرات الجريئة التي يقوم بها الأستاذ عبد العزيز قاسم في الانفتاح على الآخر الداخلي والخارجي، عبر حواراته ومكاشفاته، أمر يستحق التقدير والإعجاب.

فالأستاذ عبد العزيز جزء من المحيط الثقافي الإسلامي، وقريب من أوساط الدعاة الإسلاميين في المملكة؛ يعيش هموم الصحوة الإسلامية، ويتبنى تطلعاتها المشروعة.

لكنه تميّز عن الكثيرين في الوسط الإسلامي بمبادراته للانفتاح على الآخر من الداخل؛ كرموز المذاهب والتوجهات الإسلامية الأخرى، والمثقفين الليبراليين والحداثيين، وكذلك الانفتاح على الآخر من الخارج؛ كحواره الجديد الشيّق مع المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما.

في الوقت الذي يتحفظ فيه أكثر الإسلاميين في المملكة عن مثل هذا التوجه، وتبقى علاقاتهم ضمن وسط تياراتهم وتوجهاتهم.

وإني أستغرب من درجة التحفظ والحذر التي يصرّ عليها هؤلاء تجاه الآخر المخالف معهم مذهبياً أو فكرياً، حيث يفترض فيهم كعلماء ومثقفين ودعاة أنهم واثقون من فكرهم واتجاههم، وبالتالي فلا خوف عليهم من أن يتأثروا بالآخر على حساب

مبادئهم إذا التقوا معه أو حاوروه أو تعاطوا معه في شأن من الشؤون العامة.

كما يفترض أنهم أصحاب رسالة ورأي وثقافة؛ لا بد أن يتحينوا الفرص لعرض رأيهم على الآخرين، ومناقشة الآخرين في توجهاتهم الخاطئة حسب رأيهم.

فلماذا يعزفون عن الانفتاح على الآخر؟ ويبقون ضمن دائرتهم المغلقة؟

إن التلاقي بين بعضهم بعضا كأصحاب اتجاه واحد، لا يضيف لهم إضافة نوعية ولا يحقق كسباً جديداً. بينما اللقاء مع أصحاب الآراء الأخرى قد يحقق شيئاً من ذلك، كاحتمال التأثير على الآخر لصالح القضايا التي يتبنونها.

كما أن تعاطي الداعية مع تياره وجمهوره فقط لا يتيح له مجال الاطلاع والتعرف على تطورات ساحة الثقافة والفكر، لأنه يتعامل مع التلامذة والأتباع وليس مع الأنداد والأمثال والنخب الفكرية.

وقد حاورت بعض إخواني الإسلاميين في المملكة عن سبب عزوفهم عن اللقاء والحوار مع الآخر الداخلي فضلاً عن الخارجي، فأكدوا قناعتهم بأهمية ذلك وفائدته؛ لكنهم يتهيبون ويتقون تيارهم ومنافسيهم ضمن التيار أن يتهموهم بالخلل في مبدأ الولاء والبراء!!

وعودة إلى ما ورد في حوار الأخ عبد العزيز قاسم مع فوكوياما فإنه يجب أن يلفتنا كإسلاميين إلى تقصيرنا على هذا

الصعيد؛ لأن تعدد وتكرار اللقاء مع المفكرين الأمريكيين والغربيين من قبل علماء الإسلام والدعاة والمثقفين الإسلاميين يساعد كثيراً على تبيين مواقفنا والدفاع عن قضايانا، وافتراض التعصب والعناد من كل الآخرين ليس موضوعياً؛ ولا يعفينا عن السعي لعرض وجهات نظرنا أمامهم.

بقي أن أشير إلى نقطة إيجابية عند المفكرين الآخرين غالباً ما نفتقدها في أجوائنا، وهي استقلاليتهم أو لأقل إظهار هذه الاستقلالية في الآراء والمواقف، حيث لم يتردد فوكوياما في نقد مواقف الإدارة الأمريكية والاعتراف بتقصير المثقفين الأمريكيين إلى آخر موارد النقد الذاتي التي بدت واضحة في كلامه.

بينما يضطر الواحد منا أو ينساق غالباً إلى الدفاع عن كل شيء عندنا دون أن نتوفر على شجاعة الاعتراف بالخطأ والإقرار به.

ونقطة أخرى تتمثل في غياب وتغييب التوجهات والآراء الإسلامية المنفتحة، فما يبدو من حديث فوكوياما أنه لم يقرأ لمفكرين إسلاميين رواد مثل مالك بن نبي، والسيد محمد باقر الصدر، والشيخ محمد الغزالي، والسيد محمد الشيرازي، والسيد محمد حسين فضل الله، والشيخ محمد مهدي شمس الدين؛ وأمثالهم من المفكرين الإسلاميين الذين كشفوا عن عمق إنسانية الإسلام وحضارية مبادئه.

مفكر إسلامي سعودي من الطائفة الشيعية

(*) نشرت المداخلة في ملحق الرسالة صحيفة المدينة بتاريخ ١٢/٤/١٤٢٦هـ الموافق ٢٠/٥/٢٠٠٥م

---

obeikandl.com

د. خضر محمد الشيباني*:

"نهاية التاريخ": بين "حالة الانبهار" و"نشوة الانتصار"!!

لعل أبرز ما يميّز مقولة "نهاية التاريخ" التي طرحها البروفسور "فرانسيس فوكوياما" هو طبيعة أحداث ومعطيات "الحقبة الزمنية" التي ظهرت فيها تلك المقولة، ولذا فإن الصدى المدوّي الذي أحدثته تلك المقولة على الساحة العالمية يعكس طبيعة الحقبة وخصائصها، ويرجع - في المقام الأوّل - إلى بُعدها السياسي، وليس إلى محتواها الفكري، أو مضمونها الفلسفي، أو أساسها العلمي.

مقولة "نهاية التاريخ" التي طرحها "فوكوياما" في مقال نشره في عام ١٩٨٩م، ثم وثّق طرحه وتوسّع فيه في كتابه: "نهاية التاريخ والإنسان الأخير" الذي نشره في عام ١٩٩٢م، أصبحت في مضمونها العام - على الأقل - معروفة لدى الكثيرين، وصار هو وصاحبه "صامويل هانتنجتون" من أبرز علامات "الفكر الأمريكي" في العقد الأخير من القرن العشرين، والبروفسور "هانتنجتون" هو - أيضاً - مثل صاحبه، بدأ أطروحته بمقال بعنوان "صراع الحضارات" في عام ١٩٩٣م، ثم أتبع جهوده في عام ١٩٩٦م بكتاب يبلور فيه الأفكار تحت عنوان: "صراع الحضارات وإعادة تشكيل النظام العالمي".

حالة الانبهار:

لقد أثار الكاتبان بأطروحتيهما جدلاً واسعاً على نطاق عالمي، ولأن بضاعة "الثقافة العربية" هي "الكلاميات والبكائيات"، فقد كان من الطبيعي أن يكون مثقفو العالم العربي من أكثر الناس انخراطاً في ذلك الجدل حيث انسجمت "رؤية فوكوياما" مع السياق الإنشائي والممارسات اللفظية التي تتباهى بها "العقلية العربية". فشمّر مثقفونا وذوو الاهتمامات الفكرية عن سواعدهم للغوص في بطون الأطروحتين لتحليل ذلك "الفكر العميق"، والتقاط "الدرر الكامنة" ذات الأبعاد الفكرية والاجتماعية والتاريخية التي لا يفقهها إلا من أوتي حظاً وافراً من القدرات الذهنية، والتمكّن المعرفي، ولذا لم يصبح غريباً أن يُزجّ بأيٍّ من الاسمين في أي لقاء فكري، أو حوار ثقافي للتدليل على سعة الاطلاع، وعمق الرؤية، ومواكبة العصر.

في الوقت الذي انغمس فيه كثير من المثقفين العرب في الاحتفاء بمقولة "فوكوياما"، والتسويق لها، والترويج لآفاقها الثرية حسب مزاعمهم، فإن هناك ردود فعل معاكسة برزت بين فئات أخرى راحت تندّد بالمقولة لتنطلق من مفاهيم "الاستعلاء" و"التورّم الذاتي" المعتادة في "الثقافة العربية"، حاملة معها أوهام امتلاك الحلول غير المجرّبة، ووصم الحضارة الغربية بأشنع الصفات وأسوأ السلبيات.

كلا الموقفين في الواقع هما تعبير نفسي عن "حالة الانبهار" التي يعيشها العالم العربي إزاء إنجازات العالم المتقدّم وقفزاته،

فالموقف الأوّل وجد في الاستسلام لهيمنة القوة و"ثقافة الغالب" مخرجه، وأما الموقف الثاني فلم يجد تعويضاً لمشاعر الإحباط وسطوة الهزيمة إلا الهجوم المفتعل في محاولات لتغطية العورات، والالتفاف حول مكامن الضعف المسيطرة على واقع مجتمعاته.

أما التعامل الصحيح مع أطروحة "فوكوياما" فينبغي أن يكون عبر الأسس نفسها التي يدّعي "فوكوياما" أنه استند إليها في تقرير نتيجته، فهو يزعم أنه يتوخّى أسساً علمية، ولقد أكّد ذلك في حواره مع الأستاذ عبد العزيز قاسم عندما قال: (ليست لدي نظرية تاريخية قوية كالتي قدّمها ماركس على سبيل المثال، ولكن لدي قناعات علمية تؤيد نظريتي بمسيرة التاريخ نحو اتجاه معين، ومقالتي عن نهاية التاريخ اختتمتها بتساؤل ينبغي على الجميع مناقشته؛ لأنني وعندما أنظر حولي بالعالم لا أجد بدائل قوية للديمقراطية الليبرالية في المجتمعات الحديثة على الأقل، وإذا أخبرني أحد بوجود ما يثبت عكس ذلك فسأكون سعيداً وسأقول: إنني مخطئ في نظريتي).

نشوة الانتصار:

لا يمكن بحال فهم أطروحة "فوكوياما" إلا في إطار ظرفها التاريخي، فلقد نشر مقالته قبل فترة وجيزة من سقوط "حائط برلين" مؤذناً بانفراط عقد الشيوعية، وأما كتابه المؤصّل لأسس ومنطلقات تلك المقولة فقد صدر في عام ١٩٩٢م، أي: بعد تفكّك الاتحاد السوفيتي وانهيار "النظرية الشيوعية".

لذا فإن توقيت مقولة "نهاية التاريخ"، ومحاولة تأصيلها الفكري، هما في الواقع نتاج للحظة تاريخية تمثّلت في انتصار "الديموقراطية الرأسمالية" على "الشيوعية الاستبدادية"، وهي لحظة حاسمة - دون شك -، ولذا نستطيع أن نفهم أن تكون تلك المقولة مظهراً من مظاهر "نشوة الانتصار"، وتسجيلاً لمشاعر الهيمنة التي سادت بين المفكّرين والسياسيين الغربيين ليطلق بعضهم عليها اسم "لحظة القطبية الأحادية" (unipolar moment) التي هي مدخل طبيعي لـ"حقبة القطبية الأحادية" (unipolar era)، ولكن لا يمكن بحال تعميم تلك اللحظة أو الحقبة على التاريخ البشري بأسره، وإسقاطها على مستقبل البشر لتصبح، وفق "رؤية فوكوياما"، تأكيداً لانتصار أزلي للقيم والمفاهيم التي طوّرها وحبّذها ومارسها العالم الغربي.

لقد أمسك "فوكوياما" بوهج "لحظة الانتصار" التاريخية ليطلق مقولة "نهاية التاريخ"، ولأنه يُعتبر أحد الآباء المؤسسين لحركة "المحافظين الجدد"، فإنه اهتمّ بتوظيف خصائص تلك الحقبة لصالح انتماءاته السياسية، فراح - عبر أطروحته الشهيرة - يستشرف مستقبل ما بعد مرحلة "الحرب الباردة"، ويتولّى إعادة ترتيب الأوراق، ومراجعة الأفكار والسياسات والمنظومات تهيئةً لما أسموه "النظام العالمي الجديد"، وتتأكّد تلك الانتماءات السياسية إذا عرفنا أن "فوكوياما" هو أحد مؤسّسي منظمة "مشروع القرن الأمريكي الجديد" التي تأسّست في عام ١٩٩٧م.

من ذلك المنطلق الذي يخضع لاعتبارات سياسية صرفة، وضرورات هيمنة محضة، نستطيع أن نفهم أطروحة "فوكوياما" عن "نهاية التاريخ"، وأطروحة "هانتنجتون" عن "صراع الحضارات"، وبالرغم من التناقض الفجّ بين الأطروحتين في التعليلات والاستنتاجات إلا أنهما يلتقيان في الأهداف لينضويا - تلقائياً - تحت مفهوم "سياسة القوة" بحيث يستطيع "القطب الأوحد" فرض رؤيته على العالم عبر تهميش واستئصال الحضارات الأخرى في "صراع الحضارات"، وعبر التبشير بالديموقراطية الليبرالية بصفتها "نهاية التاريخ".

نستطيع أن نقول إن الأطروحتين لا تمثّلان "فكراً خالصاً" قادراً على مواجهة التمحيص الموضوعي بالرغم من "حالة الانبهار"، بشقّيها المؤيّد والمندّد، التي أصابت كثيراً من المثقفين العرب، ولكنهما - دون شك - يتدثّران بلبوس "فكري" في عملية "ترويج إعلامي" ذكية، و"تخطيط سياسي" ماهر، تهتمّ بتطويع الإمكانات واستغلال الظروف لتحقيق المصالح، وهذا ما أدركه "المحافظون الجدد" بتبنّيهم للمقولتين المتناقضتين لتصبح الأطروحتان "العمود الفقري" لخطابهم في مرحلة ما بعد حماقة الحادي عشر من سبتمبر.

الوقود وراء انطلاق الأطروحة:

إذا كانت تلك الأطروحة تعبيراً عن "لحظة انتصار" تاريخية من ناحية، وتكريساً لقطبية أحادية من ناحية أخرى، فإننا لا

نستطيع أن نتعامل معها بمعزل عن فهم "خصائص المنتصر"، وتحليل طبيعة "القطب الأوحد"، ولا شك أن الولايات المتحدة الأمريكية ظاهرة تاريخية بكل المقاييس، فهي تأسّست برؤى نحو المستقبل، وتفاعلت في تكوينها أعراق وأجناس وأديان، وتصارعت على ساحاتها توجّهات وفلسفات ومصالح، لتصبّ كل تلك العناصر في بوتقة نشطة نتج عنها معطيات حيوية، وروائح كريهة، وتناقضات حادّة.

أما ما يميّز تلك البوتقة فهي أنها كانت في كل حالاتها وتحوّلاتها تنقد ذاتها، وتصحّح مساراتها، وتحرص على تأمين الوقود اللازم لتحافظ على عطائها وإنتاجها، ولم يكن هذا الوقود سوى "الحركة العلمية – التقنية" التي استطاعت أمريكا أن تتعامل مع مقتضياتها ومقوّماتها بنجاح وحيوية لتصبح أعظم إمبراطورية على مستوى التاريخ البشري من حيث آفاق الهيمنة، ومناطق النفوذ، والرفاهية المادية، والتطوير التقني، والقوة التدميرية، والاكتشاف العلمي.

تلك الحقيقة الصارخة تكفي لفهم منطلقات ودعائم مقولة "نهاية التاريخ"، فهي مجرّد "خطاب مؤدلج" في "لحظة انتصار" حقيقية، وأما المياه المعرفية والفكرية لهذه المقولة فهي مياه ضحلة، وكان على مثقفينا الذين أغرقوا في خلفياتها الفلسفية والفكرية، وحمّلوها أكثر مما تحتمل أن يدركوا أنها تكتسب أهميتها فقط من كونها صادرة، في لحظة تاريخية حاسمة، عن مركز الهيمنة العالمي المتمثّل في التفوّق التكنولوجي والإنجازات العلمية... لا أكثر ولا أقل.

أسس الأطروحة:

يعترف "فوكوياما" بأنه استلهم فكرته من أطروحات بدأت بين مفكّري الغرب في مطلع القرن التاسع عشر الميلادي، وتأصّلت بأطروحات "هيجل" و"ماركس" بأن: (البشرية ستتوقّف عن أيّ تقدّم إضافي في منظوماتها ومبادئها الأساسية؛ لأن الأسئلة الكبرى للبشرية تكون قد استقرّت، وأن شكل المجتمع أصبح متوافقاً مع أعمق رغبات وطموحات الإنسان)، وهكذا يقفز "فوكوياما" إلى حتميته التاريخية، فيرى أن "الديموقراطية الليبرالية" ستكون (نقطة النهاية في التطوّر العقائدي للبشر)، وتصبح (الشكل النهائي للحكومة البشرية).

يتحدّث "فوكوياما" عمّا أسماه "التاريخ ذو الاتجاه" (directional history)، ويحدّد ذلك الاتجاه الحتمي بأنه نحو "الديموقراطية الليبرالية"، ويُغفل "فوكوياما" - عمداً أو سهواً - حقيقة أن ما يصنع ذلك الاتجاه في هذه الحقبة من التاريخ هو القوة التي تمثّلها هيمنة أمريكا العلمية والتقنية، ولو كان مصدر ذلك الطرح بروفسور في إحدى الدول المغلوب على أمرها منظّراً لمستقبل ثقافته لما اهتمّ به أحد. ولما تكالب على أطروحته مثقفون وإعلاميون في جهد مستميت للغوص في بطون معانيها، وأعماق تجلّياتها.

يلجأ "فوكوياما" إلى "العلوم الطبيعية" و"علم النفس" لتسويغ نتائجه وحتميته التاريخية المزعومة، وأما فيما يخصّ التبرير المستند إلى "العلوم الطبيعية"، فإنه يستشهد بما أسماه "منطق العلوم الطبيعية الحديثة" ليذكّرنا - باديء ذي بدء - بأن "منهج

العلوم الطبيعية" هو النشاط الاجتماعي الوحيد الذي تحقّق حوله الإجماع على أنه تراكمي، وذو اتجاه محدد، وهذا المنهج سيؤدّي في النهاية إلى أن تعمل الآثار الاجتماعية والاقتصادية والاتصالاتية للحركة العلمية والتقنية على إيجاد التجانس بين المجتمعات البشرية.

يقول "فوكوياما" في إطار هذا التبرير "العلمي": إن (الآليّة التاريخية المتمثّلة في العلوم الطبيعية الحديثة كافية لشرح قدْر كبير من طبيعة التغير التاريخي والتجانس المتنامي بين المجتمعات الحديثة)، ولكن "فوكوياما"، بعد جهد واضح في محاولة استخدام "المنهج العلمي" لتسويغ أطروحته، يعترف بأن ذلك في حدّ ذاته: (غير كافٍ لتبرير ظاهرة الديموقراطية)، وبالتالي فإنه يهدم ما بدأ به من محاولة استغلال "الفكر العلمي" لتبرير تلك "الرؤية السياسية"، وتسويغ ذلك "الخطاب المؤدلج".

الحقيقة الوحيدة التي تبرز من استشهاد "فوكوياما" بـ"منطق العلوم الطبيعية الحديثة" هي أن هذا "المنطق" هو الذي أرسى البنية الصلّدة لما تتمتّع به أمريكا من تفوّق وهيمنة لتمكّنه وغيره من السياسيين والمفكرين لتوظيفها في فرض معطياتهم، وبالتالي الخلوص إلى أن ثقافتهم ومنظوماتهم الفكرية والحياتية هي صاحبة الشأن الأعلى، والمقام الرفيع، والحتمية اللازمة.

وعندما أخفقت "الآلية العلمية" في أن تقود "فوكوياما" إلى "الجنة الموعودة"، فإنه لجأ إلى "علم النفس" ليأخذنا عبر رحلة طويلة من التاريخ والفلسفة لينتهي إلى منطق (هيجل) في تحليل

obeikandi.com

تلك المسارات؛ فيذكر أن الأصل هو "الصراع من أجل الاعتراف" (struggle for recognition)، وذلك حريٌّ به أن يقود إلى "الديموقراطية الليبرالية"!.

يمكننا - عبر تمحيص متجرّد - أن نرى أن "مقولة فوكوياما" هي رؤية تبسيطية لظاهرة "العولمة"، وهي ظاهرة معقّدة المكوّنات، ومتشابكة المفردات، وتزداد تعقيداً وتشابكاً مع تسارع التفاعلات البشرية، والقفزات التقنية، والتطوّرات العلمية، والتغيرات الاجتماعية، والمصالح الاقتصادية، والتحوّلات السياسية، وهي متغيرات جمة لا يمكن أن تحيط بها مفردة واحدة، ولذا فإن "مقولة فوكوياما" لا تعدو أن تكون رؤية طموحة تهتمّ بفرض "قواعد اللعبة"، عوضاً عن الاهتمام بدراسة مركّباتها وخصائصها.

وغنيٌّ عن القول إن أطروحة "فوكوياما"، كما هو حال الأطروحات الإنسانية كلها، تحمل في طياتها نقائضها، وتولّد تساؤلات تعود بنا إلى المربّع الأوّل، ليصبح "الإنسان الأخير"، وهو الفقرة الثانية من عنوان كتاب "فوكوياما"، ليس هو "الطبعة النهائية من البشر"، حسب وصفة "فوكوياما"، ولكنه عملية تراكمية مستمرة تحكمها سنّة "التدافع بين الناس"، ولنسمح هنا لصاحب أطروحة "صراع الحضارات" ليتدخّل فيقول: (الأهمّ هو أن ندرك أن جهود الغرب لترويج قيم الديموقراطية والليبرالية، وللحفاظ على تفوّقه العسكري، ولتوطيد مصالحه الاقتصادية، سيقابله ردود أفعال من الحضارات الأخرى).

هل تراجع "فوكوياما"؟:

لا يبدو من حوار "فوكوياما" مع الأستاذ عبد العزيز قاسم أنه تراجع بشكلٍ قطعي عن أطروحته، أو عدّل من ملامحها، ولا يسمح المقام هنا بالخوض في ما تعرّضت له أطروحة "فوكوياما" من مقاومة ومعارضة من قبل مثقفين ومفكرين وسياسيين في العالم الغربي، ولكن يهمّنا أن نتوقّف مع صاحبها الذي نشر بعدها كمّاً كبيراً من المقالات والأبحاث والكتب، ونراجع مواقفه وتحليلاته.

في محاضرة ألقاها "فوكوياما" في عام ٢٠٠٢م بعنوان "هل بدأ التاريخ من جديد بعد ١١ سبتمبر؟"، نجده يقول: (بالتأكيد لا توجد قوى عظمى جديدة غير ديموقراطية قادرة على تحدّي الولايات المتحدة، فالصين يمكن أن تتأهّل يوماً ما، ولكنها لم تبلغ تلك النقطة بعد)، ونسأل... ماذا يحدث لمقولة "نهاية التاريخ" عندما تصل الصين أو غيرها إلى تلك النقطة؟.

وفي مقال بعنوان "لحظة المحافظين الجدد"، نشره "فوكوياما" في عام ٢٠٠٤م، نجده يتحدّى مفهوم "الهندسة الاجتماعية" التي تهتمّ بالتحكّم في سلوك المجتمعات، وينتقد غزو أمريكا للعراق قائلاً: (إذا كانت أمريكا لا تستطيع أن تتخلّص من الفقر في بلدها، ولا تستطيع تحسين نظامها التعليمي، فكيف نتوقّع منها أن تُحضر الديموقراطية إلى جزء من العالم قاومها بعناد، وهو - أيضاً - مُعادٍ لأمريكا بشراسة).

ومن حقّنا أن نقول هنا: إنه إذا كان "فوكوياما" غير مقتنع بمفهوم "الهندسة الاجتماعية"، فإننا نعجب لقناعته بحتمية

"الهندسة الاجتماعية والعقدية والاقتصادية والثقافية" التي تقود إليها مقولة "نهاية التاريخ".

وفي المقال نفسه يقول "فوكوياما": (السياسة العاقلة لا تتحقّق عبر المقامرة بكل شيء في لعبة النّرد، فالثقافة ليست قدَراً، ولكنها تلعب دوراً في جعل بعض أنماط المؤسسات محتملاً)، ونسأل... هل تتصاعد هنا رائحة التشكيك في مقولة "نهاية التاريخ" لتكون "الديموقراطية الليبرالية" - في أقوى أحوالها - مجرّد احتمال بين احتمالات عديدة لمستقبل البشرية؟ .

أما في كتابه الذي نشره في عام ٢٠٠٢م بعنوان: "مستقبلنا ما بعد البشري... نتائج ثورة التقنية الحيوية"، فإنه يطرح رؤية مفادها أنه نتيجة للتقدّم في الطب الحيوي والهندسة الجينية، فإننا نواجه احتمال مستقبل تتغير فيه البشرية نفسها بحيث لا يمكن التعرّف عليها، ويتنبأ "فوكوياما" بأن سيطرة البشرية على تطوّرها ستحمل نتائج كبيرة، وقد تكون وخيمة، على "الديموقراطية الليبرالية"، ومن حقّنا أن نتساءل هنا عن موقع "نهاية التاريخ" في مثل هذه الرؤية الخاضعة للتطوّرات العلمية والتقنية المتسارعة، ونسأل... تُرى هل تكون الضربة القاضية لمقولة "نهاية التاريخ" على يد "منطق العلوم الطبيعية الحديثة" الذي استنجد به "فوكوياما" من قبل في محاولة لتسويغ مقولته تلك؟ .

أما بالنسبة لي فلا يهمّني تراجع "فوكوياما" أو إصراره، فهو حرٌّ في ترويج ما يحلو له من قناعات، ولكن يهمّني أن لا تشغلنا

ثقافتنا الكلامية، ومداخلاتنا الإنشائية، وتورّماتنا الذاتية عن استخلاص الجوهر في القضايا، فينبغي أن لا نحوم حول الحمى في فراغات متكرّرة تتوالد ذاتياً عبر مهارات لفظية وأوهام جامحة، بينما يهتمّ الآخرون بتوطيد دعائم "العلوم والتقنية" لفرض معطياتهم وأطروحاتهم، وأما "كلمة التاريخ" فهي كما قال المستشار الألماني "هندنبرج" في نهاية الحرب العالمية الأولى: (ويل للمغلوب).

أكاديمي وكاتب سعودي

(*) مقالة خص بها د. خضر الشيباني الكتاب

o p e i k a n d l . c o m

يوسف أبا الخيل[*]: (١ - ٣)

فرانسيس فوكوياما والليبرالية الحقة

قرأت اللقاء الصحفي الذي أجراه المشرف على ملحق الرسالة بجريدة المدينة الأستاذ عبد العزيز قاسم مع المفكر الأمريكي من أصل ياباني «فرانسيس فوكاياما» على هامش الندوة التي أقامتها مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء بالمملكة المغربية في الثامن من أبريل الحالي، ومن تلك القراءة رأيت أن أتداخل مع فوكوياما ببعض التعليقات على بعض النقاط التي وردت في ثنايا حديثه.

قبل أن أسطر مداخلاتي على بعض ما دار في ذلك اللقاء، يجدر بي الإشارة إلى فوكوياما نفسه كمقدمة تعريفية ضرورية به قبل الدخول في ثنايا آرائه بأن أقول: إنه صاحب نظرية «نهاية التاريخ» التي تتلخص حسب رؤيته بأن الليبرالية الغربية الحالية تمثل أرقى ما وصل إليه الفكر الإنساني من إمكانية اختراع النظم الصالحة للحياة بشكل عام سواء على مستوى السياسة أو على مستوى الاجتماع، وبالتالي فسيأتي اليوم الذي تقوم فيه المجتمعات الإنسانية الأخرى خارج منظومة المجتمعات الغربية بتطبيق هذا النموذج الليبرالي باعتباره - كما يرى - الأصلح والأرقى لقيادة الحياة البشرية على الأرض من خلال تطبيق مبادئ ونظم

الديمقراطية الحقة في الحكم ومن خلال تطبيق مبادئ الليبرالية المدنية التي تقوم على حرية الضمير كأساس لتدشين نظام العلاقة بين الأفراد داخل المجتمع.

احتوى اللقاء على كثير من النقاط التي أرى مناسبة الإشارة إليها والتعليق من ثم عليها، فهو أولاً ينظر إلى الإسلام كأي نظام ثقافي آخر له أسسه ومنطلقاته وجذوره التكوينية وهو بالتالي أيضاً - حسب رأيه - كأي نظام ثقافي قابل للتفسير بطرائق مختلفة، وعندما يقول فوكوياما عن الإسلام بأنه نظام ثقافي فإنه يشير - حسبما فهمت من سياق حديثه وما أعرفه عن ليبراليته المشهورة - إلى تلك الشروحات والتفسيرات والتأويلات وكافة الهوامش التي صاحبت النصوص الإسلامية الأولى خاصة نصوص القرآن الكريم، وبالتالي فهو من هذه الناحية لا يختلف كثيراً عن النظرة المنطقية والعقلانية لكثير من المفكرين الإسلاميين الذين اعتادوا على التفرقة بين النص المقدس وتفاسيره، وفق هذه الرؤية فلا ينبغي في رأيي أن يُنظر إلى رأي فوكوياما في الإسلام كنظام ثقافي على أنه ينتقص أو ينكر إلهية النص القرآني كما يمكن أن يفهم البعض، بل إنه لا يبعد عن القول بأن هذه التفاسير والتأويلات لا تعدو أن تكون جهوداً بشرية حاولت تفكيك النص المقدس من خلال النظام الثقافي الشامل الذي كانت تعيشه ووفق الأبستمولوجيا المتوفرة لها، وبالتالي فإن نظاماً ثقافياً بُني على النص المقدس في ما قبل ثمانمائة سنة مثلاً جدير أو على الأقل قابل لأن يتغير تماماً وتتغير تبعاً لذلك منطلقاته وأهدافه انطلاقاً

من نظام ثقافي جديد ينظر لتلك الأمور التي كانت مبتغاة ومطلوبة من قبل تلك التفاسير بأنها لم تعد كذلك ببروز مطالب وغايات جديدة يمكن للتأويلات الجديدة أن تستنتجها بالاعتماد على ذات النص الذي أنتجت بواسطته التأويلات القديمة مطالبها آنذاك.

مثلاً: فإن حزمة التطرف والعنف والانغلاق ونفي الآخر التي يروج لها ابن لادن والقاعدة بالاعتماد على تفاسير واجتزاءات انتقائية لنصوص معينة، كانت في الأساس حصيلة نظام ثقافي ساد في فترة ما من فترات التاريخ الإسلامي بمؤثرات سياسية واقتصادية واجتماعية معينة مختلفة تماماً عن تلك المؤثرات التي صاحبت الفترات الذهبية من نفس التاريخ، والتي ساد فيها التسامح والانفتاح غاية جعلت سيد الخلق أجمعين صلى الله عليه وسلم يموت ودرعه مرهونة عند يهودي مقابل طعام اشتراه منه، كما جعلت أحد خلفائه الراشدين وهو الإمام علي بن أبي طالب يضطر للجلوس أمام القاضي شريح بصحبة أحد خصومه من اليهود كأي خصمين عاديين يدلي كل منهما بحجته للقاضي، وينتظر حكمه بدون أي مؤثرات من الخليفة نفسه، وكلا الفترتين اللتين ساد فيهما التسامح ثم الانغلاق والعنف فيما بعد، تعتمدان في التأسيس الثقافي لما تراه على ذات النصوص القابلة للقراءات المختلفة حسب الثقافة السائدة والواقع المعاش الذي يستنطق النص لتركيب وتأليف ما يرومه من أنظمة وقواعد للمعاملات والسلوك.

من هذه النقطة المفصلية في نظرته للإسلام كنظام ثقافي فإن فوكوياما لا يرى أن هناك معركة حاصلة أو يمكن أن تحصل

بين الغرب والإسلام على هذا الصعيد بل إنها - أي المعركة - حاصلة أو ستحصل مستقبلاً داخل العالم الإسلامي نفسه على خلفية تغيير التأويلات التقليدية، وخاصة منها ما يؤسس لنظرية العنف من خلال انتقاء أو اجتزاء للنصوص أو تأويلها بما يتفق والنظرة المؤسسة للعنف، كما هي حال القاعدة في تأسيسها للعلاقة مع الآخر غير المسلم بتصوير الإسلام على أنه لا يرى حقاً في الوجود لغير المسلمين، وهو ما تنفيه النصوص الصريحة وتنفيه كذلك الفترات التاريخية الإسلامية التي ساد فيها التسامح بأبهى صوره عندما كان المسلمون يؤسسون لعلاقة متسامحة مع الآخر، انطلاقاً من نفس النصوص التي يرى فيها المتعصبون وأصحاب نظرية العنف أنها تؤسس لمذهبهم، لذا فإن فوكوياما يرى أن معركة التحديث يجب أن تتم من داخل المجتمع الإسلامي بإعطاء الفرصة للقوى المعتدلة ذات النفَس المتسامح التي تؤسس علاقتها مع الآخر غير المسلم على قيم البرّ والقسط والعدل وفق نصوص القرآن نفسه، بينما تحصر علاقة الحرب بالدفاع عن الأوطان والأنفس حال الاعتداء عليها من أي كائن سواء أكان مسلماً أو غير مسلم، فالمعتدي في حقيقته لا يقر بالإسلام كدين رحمة وهدى وعدل، ولو كان كذلك لما أقدم على الاعتداء وهو يعلم أن الله تعالى حرّم الظلم على نفسه، وجعله محرّماً بين عباده، وأي ظلم أكبر وأسوأ من الاعتداء على الأنفس والأوطان؟

إذاً ففي مجال التفسيرات المتعددة المنبعثة أساساً من رحم التغيرات الثقافية بمعناها الشامل، فإنه يمكن النظر إلى رأي

فوكاياما بدون خوف من ملامسة الثوابت وخاصة ما يتصل منها بالنصوص المقدسة على اعتبار أنها - أي النصوص المقدسة - ثابتة وقطعية ونهائية، بينما تأويلاتها وتفاسيرها متغيرة، إن أي نظرة موضوعية إلى التفاسير القديمة للنصوص التي تُعنى بالفلك والعلوم الطبيعية ستثبت صوابية تلك النظرة، إذ سيجد الناظر في تلك التفاسير ما يثير دهشته عندما يقارن ما انتهى إليه المفسرون القدامى بشأن معطيات تلك النصوص وفقاً لما كان سائداً وقتها من نظام ثقافي مغلق، مع ما انتهى إليه العلم الحديث بشأنها ليتوصل وفق نظرة عقلانية متجردة إلى أن الشروحات على النصوص تظل بحاجة إلى مراجعة وفق ما يستجد على النظام الثقافي السائد من تغيرات، لتستمر فعالية النص وإيجابيته انطلاقا من صلاحيته لكل زمان ومكان... «يتبع»..

** باحث وكاتب بصحيفة الرياض السعودية*

(*) نشرت المداخلة في صحيفة الرياض بتاريخ السبت ٢٨ ربيع الأول ١٤٢٦هـ . ٧ مايو ٢٠٠٥م

Obeikandl.com

يوسف أبا الخيل: (٢ - ٣)

مع فوكوياما والليبرالية

تحدث فوكوياما المفكر الأمريكي للزميل عبد العزيز القاسم من جريدة المدينة في حوار صحفي نشرته مؤخراً جريدة المدينة عن نقطة أراها غاية في الأهمية، وهي الفصل بين الليبرالية كأحد الإنجازات الرائدة للحداثة وبين من يعيشون في ظلها داخل النظم والبلاد الغربية أو حتى في أي نظام أو بلد ليبرالي آخر، ذلك أن كثيراً ممن يوجهون أصابع الاتهام إلى الليبرالية بأنها تخلت عن أهم مبادئها التي قامت عليها وهي الحرية وحقوق الإنسان، يدللون على ما يزعمونه فشلاً لها بالممارسات اللامسؤولة لبعض من هم محسوبون على النظم السائرة في فلكها خارج محيط تلك النظم، ويضربون مثلاً قريباً وناجزاً لما يدعونه بما حدث في سجن أبو غريب من انتهاكات مرعبة قام بها الجنود الأمريكيون ضد المساجين العراقيين، في ذلك المعتقل سيئ السمعة، أو ما يحدث حالياً من اعتقالات لبعض المشتبه في ارتكابهم أعمالاً إرهابية في معسكر غوانتانامو، بحيث إن حدوث تلك مثل الانتهاكات يأتي في نظرهم كدليل على فشل الليبرالية أو عجزها التام عن توفير الحد الأدنى مما كانت وما زالت تتزعم التبشير به من حقوق أساسية للإنسان، يأتي على رأسها ومن أبرزها احترام المساجين وعدم اعتقال الناس أصلاً إلا بموجب مذكرات اعتقال صادرة من

القضاء، وأن لا يتم إيقاع أي نوع من أنواع العقوبة عليهم إلا تحت مظلة القضاء أيضاً، ومن ثم فهم يرون أن ما قام به بعض الجنود الأمريكيون بصفتهم محسوبين على أكبر معاقل الليبرالية في العالم يأتي كدليل على التناقض بين ما تدعيه الليبرالية أو على الأقل ما تدعيه الدول السائرة في فلكها وبين ما هو موجود على أرض الواقع من انتهاكات تتناقض مع أبسط حقوق الإنسان.

قبل أن أستعرض موقف فوكوياما من هذه النقطة المثيرة للجدل، أشير إلى أنني قد كتبت موضوعاً في هذا المنبر عقب اكتشاف ما جرى في سجن أبوغريب، أشرت فيه إلى أن فظاعة ما جرى في ذلك المعتقل على يدي أناس تجردوا تماماً من أبسط أنواع الإنسانية، وتساووا في انعدام آدميتهم مع أسوأ أنواع الضواري التي تفتك بالأحياء لمجرد الفتك، يجب أن لا يُنسينا أن اكتشاف وفضح كل ما جرى وعرضه على أنظار العالم بالصوت والصورة جاء عن طريق الإعلام الغربي نفسه (الأمريكي والبريطاني بالذات)، فلولا قيام محطات التلفزة وكبريات الصحف الأمريكية والبريطانية بكشف خبايا كل ما فعله الجنود بأولئك المساجين - بغض النظر تماماً عن خلفياتهم وانتماءاتهم وما اقترفوه من قبل - لظل الأمر طي الكتمان، ولأضحى حبيس أدراج ملفات البنتاغون ومستندات وزارة الدفاع البريطانية، وأشرت حينها إلى أن ذلك المعتقل يمثل واحداً من عشرات المعتقلات التي بناها البعثيون إبان نعيق بومهم الخَرِب على العراق، والتي مارسوا فيها كل ما يمكن أن يعد عاراً على الإنسانية في أسوأ عصور

انحطاطها، ومع ذلك ظلت أنباء تلك الممارسات من قبيل اللامفكر أساساً في كشفه أو مقاربته سواء على مستوى الإعلام العراقي أو العربي عموماً، وقلت حينها: إن مجرد كشف ممارسات أولئك الجنود في ذلك المعتقل أدى على الأقل إلى إيقاف تلك المهازل فور اكتشافها فضلاً عن تقديم مجترحي سيئاتها إلى المحاكمة.

موقف فوكوياما يدور في ذات السياق، فهو يشير إلى أن ما حدث في العراق من انتهاكات تعتبر ولا شك فظيعة ومرعبة ولكن أحد أهم الأشياء التي ينبغي معرفتها - كما يقول - هو أن معظم الأمريكيين يرونها بالفعل مرعبة، وكل الجهات القضائية في أمريكا ضد هؤلاء الناس الذين ارتكبوا أعمال التعذيب، ثم أشار إلى خلاصة الجواب على التساؤلات حول تناقض الليبرالية أو إدانة بعض أفعال من ينتسبون إليها، بأن العيش في مجتمع ليبرالي لا يعني عدم ارتكاب أخطاء أو عدم انتهاك حقوق الإنسان، ولكن الفارق الأصيل هو وجود إجراءات مؤسسية عريقة تفرض سيادة القانون، وتأخذ على عاتقها آليات التصحيح لأية انحرافات وقعت أو متوقع لها أن تقع، وهذه الآليات موجودة بالفعل في كافة الدول التي تتبنى النظام الليبرالي الديمقراطي وعلى رأسها الدول الغربية.

في المقابل وكدليل على فعالية الآليات التصحيحية الليبرالية في الغرب، فإن المحكمة الدستورية الأمريكية أصدرت قبل فترة قرارها بعدم قانونية احتجاز الحكومة الأمريكية للأشخاص في معتقل غوانتانامو، وأن لهم - أي أولئك المساجين - حق رفع الدعاوى ضد الحكومة الأمريكية أمام نفس المحكمة.

هناك نقطة غاية في الأهمية تؤصل لفك الاشتباك المتصور تجاه مبادئ الليبرالية وممارسات معاقلها، وهي أن سيادة الليبرالية في مجتمع ما لا تعني أن أفراده تطبعوا بطابع مبادئ الليبرالية بالكامل، بحيث أصبحوا ملائكي التصرفات، محترمين للإنسان وحقوقه، كارهين للاستبداد والظلم، وهذا الأمر وإن كان فيه من الصحة ما فيه، إلا أن الإنسان يبقى أسير نزعته الخَلقية إلى الظلم والإجحاف والاستخفاف بأخيه الإنسان متى ما أتيحت له الفرصة بالاستفراد بالقوة بعيداً عن فرمانات القانون، مصداق ذلك نجده في كتاب الله العزيز من قوله تعالى في الآيتين السادسة والسابعة من سورة العلق: ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ ﴿٦﴾ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾. إن مجرد استغناء الإنسان بالقوة والجبروت يدعوه فوراً إلى الطغيان والظلم ما لم تكن هناك قوانين تحد من قدرته ورغبته في ذلك، أما في الآية الرابعة والثلاثين من سورة إبراهيم فيقول الله تعالى: ﴿إِنَّ الإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ وجاء هذا الوصف القرآني باستخدام صيغة (فعول) كدليل على أن الظلم طبع أصيل في الإنسان وليس تطبعاً، والفارق يبقى فقط في مدى وجود ما يحد من جبروت هذا الطبع الإنساني، وهو ما توفره آليات الليبرالية بغض النظر عن أية ممارسات تقع خارج محيط تلك الآليات.

إن من هالتهم فظائع أبوغريب - ونحن منهم بالطبع - وتنادوا من ثم على إثرها لإعلان فشل مبادئ الليبرالية قياساً على تجرد أولئك السجانين من إنسانيتهم، ينسون ولا شك أن الظلم والاستبداد في أبشع صوره طبع أصيل في الإنسان، وأنه متى ما

أصبح في حل من أية التزامات قانونية تجاه الآخرين فإنه سيصبح وحشاً بل وسادياً لا يتلذذ إلا على وقع سماع أنين الحيارى والمعذبين، ووقائع التاريخ شواهد على هذه المأساة الإنسانية، ولو أن سجن أبو غريب كان في واشنطن أو لندن أو غيرهما من المدن الغربية لما زاد أولئك السجانون المرعبون على أداء التحية للمسجونين ريثما يحكم القاضي بشأنهم، ليتصرفوا على أساسه دون زيادة أو نقصان، وهذا هو الفرق بين الليبرالية والشمولية.

(*) نشرت المداخلة في صحيفة الرياض ٢ ربيع الآخر ١٤٢٦هـ - ١٠ مايو ٢٠٠٥م)

obeikandl.com

يوسف أبا الخيل: (٣ - ٣)

غرس المفاهيم من خلال الطرح غير العقلاني

يرى الدكتور محمد عابد الجابري أنه لكي يتم غرس المفاهيم الحداثية في الذاكرة الجمعية لمجتمع معين مثل مفاهيم «الديمقراطية» و«التسامح» و«حقوق الإنسان» و«المجتمع المدني» فلا بد من تجذيرها تراثياً حتى يمكن تهيئة الذهنية والوجدان الشعبي الجمعي لتقبلها باعتبارها من مفرزات ثقافته ومكونات تراثه، بمعنى أن يتم البحث في التراث بشكل عام عن عناصر نظرية أو تطبيقية لأي من تلك المفاهيم التي يُراد لها أن تأخذ حيزاً صلباً في بنية المجتمع، وعندما يقتنع الوجدان الشعبي بأن المفاهيم التي يراد له أن يتماهى معها ليست غريبة عنه بل تمثل إحدى معطيات ثقافته فإن أمر تمريرها مجتمعياً يصبح أمراً ليس في غاية الصعوبة.

على الصعيد نفسه صرح مؤخراً صاحب نظرية «نهاية التاريخ» المفكر المعروف فرانسيس فوكوياما أن مهمة خلق مجتمعات ليبرالية ليست مهمة سهلة، خاصة وأنها - أي الليبرالية - لا بد وأن تنطلق من قناعة شعبية في المقام الأول، ولذا فقد اعتبر أنه لكي يتم خلق مثل تلك المجتمعات، فلا بد من طرح غير عقلاني أحياناً يؤسس لتدعيم عادات ثقافية ضرورية لإيجاد المجتمع الليبرالي، هذه

العادات الثقافية تتمثل بالاقتناع باللجوء إلى الحلول الوسط عند التنازع حيال رغبات متعارضة بدلاً من محاولة فرض رأي واحد أو رغبة واحدة، والإيمان بإيجابية اللجوء للحوار بدلاً من العنف، والتسامح مع الآراء المخالفة من منطلق حقها في التفاعل مع معتقداتها ومذاهبها الخاصة، وغير ذلك من أسس ضرورية لتدعيم الاتجاه نحو خلق المجتمع الليبرالي الحقيقي، وفي سبيل تدعيم تلك القيم اجتماعياً فلا بد حسب رأي فوكوياما من الاقتناع - خاصة من جانب النخب وقادة الفكر في المجتمعات - أن الذي يدفع الناس إلى التجاوب مع هذه القيم وإعارتها اهتمامهم واعتبارها من صميم الثقافة العامة المكونة لهوية المجتمع، ليس بالضرورة وجود حسابات علمية منطقية يتم بها حساب مصالحهم الشخصية التي سيجنونها من وراء اقتناعهم بتمثل تلك القيم الليبرالية، إذ إن ذلك غير ممكن - خاصة في البدايات - وبدلاً من ذلك فلا بد - حسب رأيه - من استخدام التراثات المختلفة لإيجاد مُكوِّن جذري لما سيتم تدشينه في المجتمع من قيم ليبرالية وديمقراطية، بمعنى أن يتم البحث في التراث المعني عن جذور لأية قيم يراد لها أن تستوطن الشعور الجمعي باقتناع تام، وهو الأساس في الحكم على مدى نجاح المهمة من عدمها.

هذه النظريات التي تناقش سبل تدعيم مفاهيم الحداثة في المجتمعات من خلال استخدام آلية تبيئة تلك المفاهيم تراثياً، سبق لي أن ناقشتها على صفحات هذه الجريدة في مقال جعلته على جزأين، كان محوره الرئيسي يدور حول تساؤل مفاده إن كان ثمة

ضرورة لتبيئة المفاهيم الديمقراطية والحداثية بشكل عام في التراث العربي والإسلامي بشكل عام من أجل ضمان نجاح تطبيقها في المجتمعات العربية والإسلامية، وكان المقال بمثابة مداخلة على ما طرحه الدكتور محمد عابد الجابري في كتابه (نحن والتراث) من التأكيد على ضرورة تلك التبيئة، وما يطرحه في مقالاته التي يكتبها في بعض الصحف العربية بين الفينة والأخرى، فهو – أي الجابري – يرى ضرورة تلك التبيئة لأية جهود يراد لها أن تؤتي أُكلها في سبيل تدعيم قيم الحداثة في المنطقة العربية والإسلامية، وقد طرح الجابري عدة نماذج من واقع الصيرورة التاريخية لليبرالية الغربية، تشير إلى أن الفلاسفة الأوروبيين الذين أخذوا على عاتقهم مهمة بسط فلسفة التنوير في المجتمع الأوروبي اضطروا إلى البحث عن أية تجارب أو نصوص أو ممارسات تراثية لكي ينسبوا لها ما كانوا بصدد نشره وتدعيمه من قيم ليبرالية في الوجدان الشعبي الأوروبي أولاً قبل الانتقال إلى طرحها والمطالبة بها على مستوى الأنظمة السياسية. وتساءلت وقتها أيضاً عن سر تقدم الديمقراطية والليبرالية في بعض المجتمعات الآسيوية مثل مجتمعات الهند وكوريا واليابان، رغم أن الهند مثلاً لم تحتج بالتأكيد لتبيئة حداثتها، وهي التي تتوافر على مئات الآلاف من الديانات والمذاهب، ومع ذلك فلا أحد ينكر أهمية التبيئة التراثية لقيم الحداثة في الوجدان الجمعي ولكن أيضاً ليس بالضرورة – من وجهة نظري – أن تكون الحداثة أو لا تكون، اعتماداً على إيجاد مكونات تراثية لها، ولكن فوكوياما عاد ليؤكد ما ذهب إليه الجابري

من أن طرحاً غير عقلاني سيصبح من الضرورة بمكان عندما يراد للقيم الليبرالية أن تنجح في مجتمع ما، ولكن عندما لا يتمكن المجددون والمصلحون من إيجاد تلك المكونات المجذرة للمفاهيم الحديثة في التراث المعني هل يعني ذلك توقف جهود التحديث؟.

كما أشرت آنفاً فقد ضربت في مقالي السابق أمثلة لنماذج من المجتمعات المعاصرة التي استطاعت أن تتأقلم مع قيم الحداثة بدون أن تضطر لتبيئتها في تراثاتها، وأذكر أنني جعلت على رأس تلك الأمثلة «المجتمع الياباني» و«المجتمع الهندي» و«المجتمع الكوري الجنوبي» فهذه المجتمعات تتعاطى الحداثة بنموذجها الغربي رغم أن بلداً مثل الهند يتوافر كما قلنا على مئات الآلاف من الديانات والمذاهب المختلفة حد التناقض بما لا يستطيع معه أي مهتم بهذا الشأن أن يزعم أنها - أي الهند - استطاعت أن توائم بين مفاهيم الحداثة وبين معطيات التراث الهندي كله بكل ما يشتمل عليه من فسيفساء دينية وطائفية ومذهبية، لكن مما لاشك فيه أن الحفرالأركيولوجي في مكونات التراث لإيجاد جذور تأسيسية لأية قيم يراد تأصيلها وتدعيمها في حياة المجتمع، سيسهل مهمة المجددين والمصلحين ويختصر الأزمنة اللازمة لقطف ثمار ما هم بصدد العمل على جعله واقعاً في حياة الناس، ولكن متى ما كان التراث مستعصياً على مثل تلك الجهود فمن غير المنطقي أن نقفل الباب أمام المعاصرة، وإلا ظلت معظم شعوب الأرض خارج التاريخ، وهذه على الأقل تظل مجالاً للتساؤلات التي على المفكرين الكبار من طراز الجابري بالذات أن يولوها اهتمامهم بدل إيصاد الباب

على ثنائية حادة مفادها إما تبيئة مفاهيم الحداثة أولاً، وإما التوقف عن السعي في جهود التحديث.

(*) نشرت المداخلة في صحيفة الرياض الأربعاء ١٠ ربيع الآخر ١٤٢٦هـ - ١٨ مايو ٢٠٠٥م

obeikandl.com

obeikandl.com

محمد محفوظ(*):

وقفة مع فرانسيس فوكوياما

قام الإعلامي السعودي الأستاذ عبد العزيز قاسم بإجراء حوار مطول مع المفكر الأمريكي من أصل ياباني (فرانسيس فوكوياما)، ونشره في ملحق الرسالة لجريدة المدينة في يوم الجمعة بتاريخ (٢٢ - ابريل - ٢٠٠٥م).

وقد وضح المفكر الأمريكي في هذا الحوار، رأيه في الكثير من القضايا التي تشغل الساحة الفكرية والسياسية العالمية.

ونحن نحاول في هذا المقال أن نقف وقفة سريعة مع رؤية فوكوياما لطبيعة العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي والالتباسات التي نشأت من جراء أحداث الحادي عشر من سبتمبر.

ولا شك أن القضايا الفكرية والسياسية، التي يشتغل عليها فوكوياما في أبحاثه ودراساته، هي تشغل بال واهتمام الكثير من النخب السياسية والثقافية في العالم.

ولعلي لا أبالغ حين القول: إن الانطباع الأول الذي خرجت به بعد انتهائي من قراءة الحوار، هو أن الشرط الضروري للتعامل الحسن والفعال مع الغرب، هو التحرر من سيطرته وهيمنته، لأنه لا يمكن لأية أمة أن تتعامل بسوية مع أمة أخرى، وهي تمارس عليها كل أشكال السيطرة والهيمنة.

وسيبقى تعاملنا مع الغرب تعاملاً عصابياً، أي ينطوي على عنصر التبجيل والانجذاب من جهة، وعنصر الكره والحقد والرفض من جهة ثانية، طالما بقينا في وضع التبعية والخضوع الموضوعي الراهن.

فالسبيل الأنجع للخروج من هيمنة الغرب المعرفية والسياسية، والتحرر من سلطانه، هو معرفته معرفة تفصيلية وعملية. فالعلاقات بين الدول والبشر ليست خاضعة لما ينبغي أن يكون، بل هي قائمة على القوة ومتعلقاتها، إذ ما دمنا نعاني الضعف والترهل، فليس بمقدورنا أن نكوّن علاقة متكافئة مع الدول والأمم الأخرى. أن نصنع قوتنا، ونبني فضاءنا الحضاري والاقتصادي والثقافي، هو الذي يجعلنا ويؤهلنا إلى نسج علاقات متكافئة مغ غيرنا من الأمم والحضارات.

وصناعة القوة، واجتراح المعجزة الذاتية، ليست مسألة جاهزة أو سهلة المنال، وإنما هي مشروع مفتوح، يتطلب أن يمارس كل إنسان عربي ومسلم حريته وإبداعه وسيادته على نفسه. فهذه هي نواة صناعة القوة، وبناء الذات الحضارية. فلا بد أن يمتلك كل واحد منا سيادته على نفسه، حتى يتسنى لنا بناء علاقة متكافئة مع الآخرين. فبدون صناعة القوة، وإنجاز نهضتنا الشاملة، لن نتمكن من تحقيق مقولة العلاقة المتكافئة مع الغرب.

فالتكافؤ في العلاقات الحضارية لا يتأتى من الأمنيات والطوباويات، وإنما عن طريق بناء أمة فاعلة وخلاقة، حتى تتشكل

كل الظروف والأسباب، التي تجعلنا طرفاً قوياً، نتمكن من صناعة علاقة متكافئة مع العوالم والأمم الحضارية الأخرى.

وإن التحدي الذي تعيشه الأمة اليوم، لا يستدعي الانكفاء والانعزال، وإنما الانفتاح والتجديد. لأننا لا يمكن أن نواجه التحدي بالهروب إلى الوراء. فلم يسجل لنا التاريخ أن أمة استطاعت مقاومة التحديات التي تواجهها بالانكفاء على ذاتها. كل التجارب التاريخية تؤكد وتثبت العكس. بمعنى أن سبيل الأمة التي تريد تجاوز أزماتها وتحدياتها، هو الانفتاح المعتمد على الأصالة، والتجديد المتكئ على الثوابت والقيم الراسخة. والغرب لم يصل إلى حداثته المعاصرة، واكتشافاته العلمية والتقنية الهائلة اليوم صدفة، أو عبر تجاوز المعطيات التاريخية والاجتماعية. وإنما وصل إلى تقدمه الراهن، عبر ممارسة تاريخية - اجتماعية طويلة ومستديمة.

فلم يبدأ الغرب في انعتاقه وتحرره من معوقات التطور والتقدم، بمشروع حداثي مصطنع، يلهث وراء اقتناء الجديد أو هدم الذات الثقافية. وإنما بدأ الغرب طريق تحرره وتطوره وتقدمه بمشروع نهضوي، أخذ أبعاده التاريخية والمعرفية والاجتماعية، وتراكمت خبرات النخبة الغربية في هذا السبيل. فالحداثة في تاريخ التطور الغربي، هي الوليد الاجتماعي الطبيعي لمشروع النهضة الغربية.

إن إلغاء تاريخ هذا التطور، والتغافل عن مرحلة تاريخية أساسية من هذا التطور لا يصنع إلا نظرة شوهاء، لا تؤدي بنا إلا إلى المزيد من الضياع التاريخي والحضاري.

Obeikandi.com

من هنا فإننا نعتقد أن الحداثة ليست مجرد التزامن مع الآخر الحضاري في أدواته وتقنياته، بل هي تراكم للخبرة والتطور.

ومن الأخطاء الحضارية التي وقع فيها الكثير، اعتبار الحداثة مجموعة مظاهر ومنتجات الحضارة.

لهذا أصبحت الكثير من شعوب العالم الثالث، تحيا الحداثة بثقافة التخلف وتاريخه. فهي لا تنتمي إلى منظومة فكرية حديثة، وإنما تدعي ذلك. لهذا فهي لا تنتج، ولا تعيش الفعالية الحضارية في حياتها، بل تعيش الاستهلاك والتبعية بأجلى صورها وأشكالها. وهذا من جراء العلاقة السطحية والفوقية والمصطنعة التي تربطها بالحداثة.

فحينما لا تكون العلاقة حقيقية بين المجتمع والحداثة، تتحول الأخيرة إلى وهم كبير، وسراب لا نهاية له. لأنه سيعتبر الحداثة مزيداً من اقتناء منتجات الغرب وتقليده حضارياً، وهو لا يدرك أن هذه العملية تزيده بعداً عن هدفه المنشود، كما تشوه قيم الحداثة الحقيقية.

أسوق كل هذا الكلام، من أجل الإجابة على بعض الإثارات الفكرية التي تضمنتها إجابات فوكوياما. فهو يريد القول: إننا وبعد أحداث الحادي عشر من سبتمبر، أصبحت علينا استحقاقات فكرية وسياسية ينبغي دفعها. وذلك باتجاه الاندغام التام في المشروع الثقافي والسياسي الغربي.

بينما ومن خلال التجربة الحداثية الغربية، وطبيعة التطور الإنساني، نرى أن الحداثة ليست وصفة جاهزة، وإنما هي ممارسة

تاريخية وتطور اجتماعي متواصل. ومن الظلم المساومة بين المفهوم والتجربة الغربية.

لذلك نجد وفي الكثير من التجارب العربية - ولكون العلاقة مصطنعة بينها وبين الحداثة - أن هذه التجارب لم تنتج إلا تحديثاً قسرياً ومنفصلاً بشكل عميق عن البنية الثقافية والاجتماعية. وإن التطورات الكمية التي حدثت في جسم العديد من هذه التجارب، ليست في حقيقة الأمر إلا مجموعة شكليات ومظاهر للتحديث، دون الإمساك بالقيم والمبادئ الحقيقية للتحديث الشامل.

لهذا فإننا نرى أن الحداثة كمرحلة يبلغها الاجتماع الإنساني، بحاجة إلى توفير الشروط الثقافية والاجتماعية لبلوغها، إذ لا تتم التطورات الاجتماعية صدفة، أو بدون توفر مقدماتها. وإنما هي بحاجة إلى توفير كل العوامل والشروط التي تؤهل الاجتماع الإنساني إلى بلوغ عالم الحداثة.

من هنا فإن الحديث عن الحداثة وضرورتها وثمارها العامة، دون توفير مقدماتها وشروطها الاجتماعية ومناهجها الثقافية، يُعد جهداً ضائعاً، أو في أحسن الحالات لا يوصلنا إلى مرادنا العام.

إن مشروع الحداثة، لا ينجز في الساحة الاجتماعية، إذا لم تتوفر ثقافة تدعو إليه، وتوضح سبل الوصول إليه، وإذا لم يتوفر الوعي الاجتماعي المناسب، الذي يحتضن كل المناشط التي تصب في هذا السبيل. ويضاف إلى كل ذلك، وجود روح معنوية رفيعة لدى المجتمع، بحيث ينطلق منها لاستيعاب التطورات، وتجاوز العقبات، وصناعة المنجز الحضاري.

لهذا من الضروري التفريق بين الحداثة والتحديث. فإذا كانت الحداثة تعني التأكيد على قيم المشاركة والفعالية. فإن التحديث هو قبل كل شيء عملية أو مجموعة من العمليات التراكمية التي تطور - في مجتمع ما - قوى الإنتاج وتعبئ الموارد والثروات، وتنمي إنتاجية العمل وتمركز السلط الاجتماعية والسياسية داخل أجهزة محكمة، وتحرر في الآن نفسه تقاليد الممارسة السياسية من المشاركة في الحياة العامة، وتؤنسن القيم والقوانين والنواميس. وهذا يعني أن عملية التحديث في التجربة العربية لا تتعدى التقليد الأبله، واللهاث الفارغ لنموذج تحديثي يغايرنا في الظروف الاجتماعية والحضارية، ولا يتناغم وأصول حركتنا الاجتماعية وذاتنا الثقافية.

وبهذا لا يصح أن نطلق على عملية التحديث في التجربة العربية، أنها عملية تراكمية وتواصلية في خط سير معروفة بداياته ومعينة غاياته. لأنها أساساً تتحول في مضمونها إلى تحرر من مرجعية القيم الذاتية. وكأن التحديث معول هدم لكل ما هو ذاتي، تحت دعوى الإبداع والتجاوز المستمر نحو المستقبل. وقد عبَّر (ميشيل فوكو) عن هذه المسألة في شرحه للانفصال الحادث في التصورات التاريخية الغربية حين أكد على أن تاريخاً صقيلاً وأليس ومتسقاً يسير على نظام واحد وقد يجري في السياق نفسه، في السقوط نفسه، أو في الصعود نفسه، أو في الدور نفسه، كل الناس والحيوانات والأشياء أي كل كائن حي أو جامد.

فالتحديث عند فوكو يعني: الانفصال عن التاريخ الصقيل، وهو انفصال يعود بنا إلى الحقبة التاريخية الغربية القديمة (الحقبة الإغريقية).

فلا غرابة إذن أن يكون التحديث وتجريته في العالمين العربي والإسلامي في التاريخ المعاصر ضد الحداثة وقيمها. وعليه فإننا مع الحداثة، ونتطلع ونطمح أن ينخرط فضاؤنا العربي والإسلامي في مشروع التقدم والحداثة. ولكن هذا لا يعني القبول بالرؤى الجاهزة التي يصدرها لنا المفكرون الغربيون سواء عن الحداثة أو غيرها من العناوين الفكرية والسياسية والحضارية.

إننا نعتقد أن المجتمعات لا تتقدم إلا بإرادتها وعملها المتواصل، لإنهاء موجبات الجمود والتخلف والانحطاط، والانخراط الفعلي في مشروع البناء والتقدم.

وإن تحديات الراهن مهما كانت صعبة وقاسية، فهي لا تدفعنا إلى تبني خيارات وهمية لتقدمنا وتطورنا. بل تحفزنا على نقد ذواتنا ومراجعة خياراتنا، وبناء تصوراتنا الجديدة على ضوء فهم عميق للواقع بكل أبعاده، ومعرفة دقيقة للتجارب الحضارية والإنسانية، واعتزاز علمي وواع بثوابتنا ومرتكزاتنا المعرفية والثقافية.

ويجدر بنا في نهاية المقال أن نؤكد على ضرورة التواصل والحوار مع النخب الثقافية والفكرية الغربية، وذلك من أجل إزالة

الالتباسات وتظهير الحقائق، ومنع الانحدار الذي قد يهدد طبيعة العلاقة بين الغرب والعالم الإسلامي.

باحث وكاتب سعودي من القطيف

(*) نشرت المداخلة في صحيفة الرياض بتاريخ ١٤٢٦/٣/٢٤هـ الموافق ٣ مايو ٢٠٠٥م

---

obeikandi.com

حسين شبكشي(*):

نهاية التاريخ عند فوكوياما هي بدايته عند الزرقاوي

وسط الصقيع وبين الثلوج السويسرية بقرية دافوس، وقبل جحيم الحادي عشر من سبتمبر كان لقائي مع المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما. فنجان قهوة جمعنا وأحاديث الصراعات الثقافية كانت محورنا. فرانسيس فوكوياما التقط أطراف التاريخ بحسب رؤاه، وأصدر نظرية نهاية ذلك التاريخ، وأعطى بذلك وقودا هائلاً لأصحاب نظرية المؤامرة ومروجي صراع الحضارات، وكان كتابه أرضية ملائمة للكتاب المرجعي في هذا الشأن الخاص بصاموئيل هانتغتون والمعنون بصراع الحضارات. واستغلت أطروحته مجموعة المحافظين الجدد التي وصلت بمعية الرئيس الأمريكي الحالي جورج بوش، فجعلتها نقطة انطلاق لتأريخ جديد على العالم بدلا من أن يكون مبنياً على مبدأ الديمقراطية كما كان يروج، بات الآن مبنيا على الحرية. وفرانسيس فوكوياما ما هو إلا نموذج للباحث الأمريكي " الجديد " الذي انفتح على العالمية وركب موجة العولمة، وبات يحلل ويشرح ويتعمق في ماهيات الثقافات التي أمامه وحوله؛ ليرى كيف يمكن من خلال كل ذلك صناعة مستقبل عولمي جديد خاضع لقيم معينة ذات مرجعية ثابتة مصدرها الغرب. وهو في هذا الأمر لا يختلف عن صاموئيل هانتغتون أو توماس فريدمان أو جيفري ساكس على سبيل المثال. وبالرغم من

مساهمات فوكوياما الفكرية الأخرى إلا أن منتجه الفكري المتعلق بنهاية التاريخ يظل هو منتجه الأشهر. وهو سواء بقصد أو بدون قصد فتح بابا لم يغلق فيما يتعلق بالكتب ذات العناوين المتعلقة بالنهايات. وقراءة فوكوياما للتاريخ "وقتها" قراءة قاصرة، فهي تحكي نظرية "عن" التاريخ بحسب ما يراه وليس "من" التاريخ نفسه. وقد حاول فوكوياما بعد ذلك تطوير هذه الفكرة بالتركيز على ركائز أخرى كموضوع الثقة وعلاقتها بتأسيس الدولة، وبعد ذلك كتب عن التطور البشري، وخطط التنمية، وبعدها كتب عن دور المرأة في قيادة الأمم. وجميعها كتب "تبشيرية" بالمعنى المستقبلي عن واقع آت مغاير للعصر الحالي؛ لأن "قيما" جديدة ستطغى أساسها عدل وتطبيقها حرية. ولكن فوكوياما اصطدم بواقع مؤلم عطل من انتشار نظريته. وهذا الواقع المؤلم يتمثل في أن الفكر الأممي لا يزال يتعطل أمام طغيان العقيدة الذاتية للأنا والمدينة والقبيلة والعرق والدين والدولة، فامتلأ العالم بحروب أثنية ودينية كلها للحفاظ على الهويات قبل زوالها ودخولها في أرشيف التاريخ. وفوكوياما نفسه يعاني شخصيا من هذا الطرح، فهو بحسب كثيرين لا يزال مفكرا "يابانيا" بالرغم من أمريكيته!

تجربة فوكوياما هي عينة صغيرة للصراع الجدلي ما بين أهمية النظرية وفداحة التطبيق. فنهاية التاريخ عند فوكوياما هي بدايته عند الزرقاوي، وبين الاثنين يظهر الاختلاف بين الأمم والذي يستدعي طرحاً جديداً لم يكتب بعد.

كاتب سعودي بصحيفة الشرق الأوسط

obeikandi.com

(*) نشرت المداخلة في ملحق الرسالة بصحيفة المدينة بتاريخ ١٤٢٦/٣/٢٠هـ الموافق ٢٠٠٥/٤/٢٩ م

obeikandl.com

obeikandl.com

بلال التليدي[*]:

تأملات نقدية في مداخلة فوكوياما

يبدو أن الجمهور الواسع من المثقفين الذين قصدوا الندوة الدولية التي نظمتها مؤسسة الملك عبد العزيز للعلوم الإسلامية والبحوث الإنسانية كانت تنتظر بشغف مداخلة فوكوياما، كانت تنتظر بالتحديد تقويمه لنظريته، ووجهة نظره من الانتقادات العميقة التي توجهت لها. فقد مر على صدور كتابه سنوات طويلة، فبعد حرب الخليج الأولى، وقعت تطورات عالمية كبيرة، لعل أبرزها أحداث الحادي عشر من سبتمبر، وما تلاها من هيمنة أمريكية على العالم، وأيضا من تمزق مرحلي أو مفصلي في الموقف الأمريكي الأوربي. فهل نجح فوكوياما في تبرير نظريته؟ وهل النسق النظري الجديد الذي اقترحه لتسويغ نظريته يمكن أن يقنع المتابع لحقيقة ما يجري على الأرض؟ وما صدقية التفسيرات التي أعطاها للأحداث التي وقعت بعد صدور نظريته؟ وإلى أي حد تعامل فوكوياما مع الانتقادات بمنطق علمي؟

عمق النظرية

تتجه كل مفاصل النظرية إلى توضيح حقيقة واحدة: التحديث هو قدر كل الشعوب، وقبل ذلك حلم كل الدول، وهو الطريق الوحيدة لتحقيق التنمية الاقتصادية والسياسية، والتغيير الثقافي، إلا أنه لا يتصور حصوله بغير تطور العلوم الطبيعية والتكنولوجية.

obeikandl.com

تلك العلوم التي تدفع البلدان إلى الصعود في سلم التحديث، فتبدأ عملية التنمية الاقتصادية التي تعتبر مؤشرا حقيقيا يمكن أن نقيس به مستوى هذا التحديث. وهكذا فتايوان والصين وكوريا قد بدأت بمستوى معتبر في التحديث نتيجة لتوجه هذه الدول نحن الصنيع وارتفاع نسبة الدخل الفردي فيها.

فالدخل الفردي مؤشر حقيقي يعكس مدى ركوب الدول سلم التحديث أو تخلفها عنه، وعنده أن مبلغ ٥٠٠٠ دولار كدخل فردي هو مبلغ سحري، أي هو السقف الذي في ضوئه يمكن أن نحكم على دولة ما بكونها حدثت معالمها.

والدولة حينما تسلك هذا المسلك، تتوجه بالضرورة إلى تحسين التعليم، والخدمات الصحية والاجتماعية، غير أن أثر التحديث على الجانب السياسي يكون أضعف إذا ما قورن بالاقتصاد، إذ أثبتت الوقائع ـ حسب فوكوياما ـ أن القوانين السياسية لا يمكن عولمتها بسهولة. غير أنه يرى أن الأشياء التي تبدو مقبولة نسبيا هي قضية الديمقراطية الليبرالية. إذ إن هناك قاعدة ثبتت تاريخيا بالاستقراء وهي أن قليلا من الدول الغنية من ليست بها ديمقراطية ليبرالية، وإن كان الاستثناء واردا في كون دول أخرى فقيرة استطاعت أن تؤسس نموذجا ناجحا للديمقراطية الليبرالية كالهند وكوستاريكا.

وتضعف حلقة التأثير بشكل أكبر كلما اقتربت من الجانب الثقافي، لكن هذا لا يمنع من القول: بأنه لا بد للتحديث أن يحدث

تغييرات حقيقية وجوهرية على المستوى الثقافي والاجتماعي. فالصين مثلا، وإن كانت تنطلق من نسق ثقافي مغاير لمثيله في الدول الغربية، فهي بفعل التحديث، تعيش نفس التغييرات الثقافية التي تعيشها هذه الدول، بل تواجه أيضا نفس المشاكل: (تفكك الأسرة، التغيير في أنماط العلاقات داخل المجتمع...).

وإذا كان هناك من استثناء يشذ عن القاعدة فهو اليابان، فهي وإن ركبت قطار التحديث غير أنها تبقى مختلفة في السياسة والثقافة، في هذا المثال يقترح فوكوياما مخرجا لهذا الاستثناء: "لا نريد عالما يكون فيه تنميط ثقافي".

والقضية المحورية التي حاول فوكوياما أن يسوغها على المستوى الثقافي، واعتبرها تحديا مطروحا على العالم الإسلامي هي قضية الهوية الدينية. فهو يرى أن المجتمع الحداثي يتطلب نوعا من الفصل بين الديني والسياسي، ويمضي في تسويغ هذا الطرح من داخل التجربة الغربية، مستقرئا بعض أحداث التاريخ، ليطرح في الأخير التحدي على العالم الإسلامي: هي سيصل العالم الإسلامي إلى نفس الاستنتاجات؟ أي هل سيتبنى العالم الإسلامي الفصل، وإن بنوع ما، بين الديني والسياسي؟

نسق النظرية

يقترح فوكوياما نسقا تقليديا يقلب فيه عوامل التأثير. فقد درجت النظريات التقليدية على طرح مفهوم الفاعل التاريخي؟ هل هو الجانب السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي أو المعرفي العلمي؟ وقد

تبنى فوكوياما هذه المقاربة التقليدية، واقترح أن يكون الجانب العلمي التكنولوجي هو العامل أو بالتعبير الماركسي هو الفاعل التاريخي.

فالعلوم الطبيعية والتكنولوجية هي آلة لها محرك مرتبط بموصلات تلمس الجوانب الأخرى، وهي تؤثر أولا على التنمية الاقتصادية بشكل أكبر، ويضعف تأثيرها كلما اقتربت من المسألة السياسية أو الثقافية. غير أن التنمية الاقتصادية حينما تحدث، يبرز بالضرورة طلب المشاركة في الحكم، وتحسين أداء المؤسسات أو بعبارة: التنمية الاقتصادية تفرض نوعا من التنمية السياسية التي بدورها تتجه بفعل جدل السياسي والاقتصادي للتأثير في النسق الثقافي.

تأملات في النظرية

لم يفت فوكوياما أن يشير إلى الانتقادات العميقة التي وجهت إلى نظريته، وقد حاول حصرها في محاور:

- الإسلام والشرق الأوسط: ويقصد الظاهرة الإسلامية المقاومة للتحديث بالمفهوم الأمريكي، ويرى أن هذه الظاهرة لا تعكس استماتة ثقافية لهذه المنطقة من العالم بقدر ما هي مجرد حالة تاريخية عابرة متعلقة أساسا بقراءة أيديولوجية سياسية للدين. تلك القراءة التي لا تعتمد النص الديني، وإنما تستعين بالتراث الأوروبي خاصة تلك الأفكار الراديكالية التي نجدها عند الفاشيين والنازيين، ويرى فوكوياما أن هذه المنطقة ـ الشرق الأوسط ـ تبقى مشكلة أمام نظريته خاصة وأن الإرهاب كظاهرة

obeikandl.com

لا يوجد بقوة إلا فيها. ويلتمس لذلك مخرجا سطحيا يتجه فيه إلى ربط الظاهرة بالمملكة العربية السعودية باعتبارها تمتلك الإمكان المالي، وتدعم هذا النوع من الإسلام المتطرف.

- الخلاف الأوربي الأمريكي: يعتبر فوكوياما أن هذا الخلاف يعتبر من الأمور المذهلة التي لم يتنبأ بها في كتابه، ويستعين بما كتبه جاك ديريدا في حصره لموضوعات الخلاف ليؤكد استحالة وقوع حرب بين الألمان والفرنسيين ضد أمريكا. ويعزو الأمر إلى مشكلة الديمقراطية.

- مشكلة الديمقراطية: لعل الأمر البارز الذي سجله بصدد هذه المسألة هو كون التحديث يراهن كثيرا على الديمقراطية داخل الدولة باعتبارها كيانا قطريا، ولكنه لا يراهن على الديمقراطية كأسلوب لمعالجة المشكلات على المستوى الدولي. وهذا يتطلب في نظره المسارعة لإصلاح الخلل بإنشاء مؤسسات أو آليات للمحاسبة والمساءلة السياسية داخل الفضاء الدولي. وهو يعتقد في هذا الإطار أن الأمم المتحدة لم تعد قادرة على الوفاء بهذا المطلب.

الملاحظات النقدية

الملاحظة الأولى: نهاية التاريخ نظرية أم برنامج سياسي؟

النظرية عادة تستبطن رؤية معينة للتاريخ والإنسان، وتستقرئ عناصر الفاعلية وتحدد العلائق بينها، وتبرر اختيار الفاعل التاريخي تبريراً نظريا وتاريخيا، وتقرأ تطورات الحدث في ضوء حركية الفاعل التاريخي.

نظرية فوكوياما تفتقد كل هذه الأبعاد وتمزج بين أنماط متناقضة من التفكير الفلسفي كالمزج بين الفكر الماركسي المراهن على تفسير التاريخ من أجل تغيير الواقع، والفكر البنيوي الذي يرسم صورة للعلائق السائدة والبنى المؤسسية من أجل المحافظة على شروط الواقع السائد. وهكذا تمزج نظرية فوكوياما بين بعدين فلسفيين متناقضين:

. **مفهوم الحتمية**: إذ تتجه نظريته لرسم قدر معلوم يتجه إليه العالم وهو التحديث، ويجتهد في تفصيل القوانين المتحكمة في هذا المسلسل.

. **المفهوم العلائقي البنيوي**: إذ يرسم صورة مؤسسية ميكانيكية تحضر فيها العلوم والتكنولوجية كبنية مؤثرة على البنية الاقتصادية التي تؤثر بشكل معين على البنية السياسية. وهكذا يتأثر النسيج الثقافي بمجمل التأثيرات التي تحدثها البنى السابقة.

وإذا كان هذا التوجه لا يستجيب لمقتضيات النظرية، ويعتمد التلفيق الفلسفي أسلوبا لرسم معالم طرح فكري معين، فإن المتأمل في حيثيات النظرية والمعطيات التي تبرر بها عناصرها المفصلية يجد نفسه أمام توجه سياسي، أو قل للدقة: أمام برنامج سياسي يعتمد مفهوم التصنيف أساسا لتحليل الواقع والتاريخ كما يعتمد أسلوب التدبير السياسي.

. نماذج من التصنيف:

١ . كل دولة ارتفع دخلها الفردي، وقارب ٥٠٠٠ دولار فهي دولة حداثية.

٢ . هناك دول يستحيل أن تكون في الدرج الأول من سلم التحديث.

٣ . الحركات الإسلامية (لأن مشروعها يفسد عليه استنتاجاته) هي حركات تأخذ أفكارها من الأوروبيين الراديكاليين من تراث الفاشيين والنازيين تحديدا، وتجمع أفكارا متطرفة من العالم وتقدم تأويلا معينا لها .

. مفهوم التدبير السياسي:

ويظهر ذلك جليا من خلال إشارتين:

١ . حينما تحدث عن الخلاف الأمريكي الأوربي اقترح تدبيرا سياسيا هو: "أمريكا ليس بها اشتراكيون، وأوربا ليس فيها جمهوريون، وبالتالي فالأرضية المشتركة يكون فيها الحزب الديمقراطي بأمريكا وحزب الوسط بأوربا" .

٢ . اقترح لتدبير ومعالجة مشكلة الديمقراطية على المستوى الدولي عدم التعويل على الأمم المتحدة، وراهن على إنشاء مؤسسات للمحاسبة والمساءلة السياسية لتطويق أي خلاف دولي كبير كالخلاف الأمريكي الأوربي.

الملاحظة الثانية: النسق لا يتسق

قد رأينا من خلال تحليل عمق النظرية أنها أقرب ما تكون إلى البرنامج السياسي منها إلى أبعاد النظرية، والذي يزيد الأمر

تأكيدا أنها تعتمد نسقا غير منطقي، فالتحديث حسب فوكوياما أمر حتمي، والعالم متجه إليه حتما. لكن العلوم والتكنولوجيا أمر غير ميسور ومتعذر التحقق في مجموع العالم. فكيف يلزم الحتمي ولازمته التي هي الآلة والمحرك غير لازمة؟!

ولعل هذه الملاحظة تدفعنا إلى الاستنتاج بكون التحديث قد يكون حتميا في الدول الغربية، ولا يكون كذلك في دول أخرى. أو قد يكون للتحديث مضمونان على المستوى الواقعي: تحديث الغالب، وتحديث المغلوب، وفي كلتا الحالتين فالنسق لا يتسق، أما الملاحظة الثانية في هذا الموضوع فهي التلفيق النظري الذي يرتزق من الفكر الماركسي فاعلية البعد الاقتصادي، وأثر قوى الإنتاج على البنى الفوقية (السياسية والثقافية مثلا...) ويجعل للعلوم والتكنولوجيا دور المحرك والفعل التاريخي. وهو معطى وصفي لطبيعة التحول في التجربة الأمريكية أكثر من كونه استقراء لمعطيات التاريخ.

فلقد أثبتت القراءة المتأملة للتجربة الأوربية أن الفكر الأنواري قد سبق الثورة الصناعية، وهذا ما يجعل البناء الذي أسسه فوكوياما بناء سياسيا يعتمد الوصف الظاهر لملاحظات حول التجربة الأمريكية، ولا يرقى لمستوى البناء النظري الذي يعتمد الاستقراء أداة لتقويم التجارب التاريخية، ويشترط الاطراد في الأمثلة والنماذج، ويبرر الاستثناءات القليلة ببعض القواعد ذات الخصوصية، كما فعل كارل ماركس تحديدا عندما طرح (مفهوم نمط الإنتاج الآسيوي).

وترد ملاحظة أخرى يجدر تسجيلها في هذا الصدد: فقد أثبتت الوقائع التاريخية تأثيرا للتنمية السياسية على المنظومة الاقتصادية، والتجربة الإسبانية في هذا المجال تبقى قوية ووجيهة.

وهكذا ومن خلال الملاحظات التي سجلناها يظهر لنا أن ما يسمى "بنظرية فوكوياما" لا تملك البعد النسقي، وتفقد ماهيتها كنظرية، وتبقى في الأخير عبارة عن توجه سياسي أو برنامج سياسي، يقرأ الأحداث بانتقائية مخلة، ويفسرها بالقاعدة حينا وبالاستثناء حينا آخر من غير ضوابط ولا قواعد، ويعتمد التصنيف السياسي والإيديولوجي المخل، ويقترح المعالجات والتدبير السياسي لبعض المشاكل، كل هذا يدفعنا إلى القول بأن هذا النسق يفتقد لأهم حلقة، وهو كونه لا يتسق.

الملاحظة الثالثة: المركز والأطراف

السؤال الأكثر إحراجا والذي فضل فوكوياما عدم طرحه في المداخلة هو: ألا تشكل صيرورة التحديث في الدول الغربية عائقا للتحديث في دول العالم الثالث؟

المتأمل في الميكانزمات التي يتم بها التحديث في الولايات المتحدة الأمريكية يدرك أن هناك تحديثين ممكنين:

- **التحديث الفاعل**: وهو والذي يتطور بشكل تصاعدي، ويشترط لذلك تدخلا اقتصاديا وسياسيا وثقافيا في الدول الأخرى.

- **التحديث التبعي**: إذ يفرض استمرار التحديث الفاعل التدخل في الدول الأخرى في بناها السياسية ومنظوماتها الاقتصادية ونظمها الثقافية، وهكذا تتقلب نظرية فوكوياما. فليست العلوم هي التي تفعل فعلها في هذه المعطيات، إنما الضرورة التي تفرضها صيرورة التحديث الفاعل، لنأخذ مثالا على ذلك: ففي أمريكا إن ضمان استمرار ارتفاع الدخل لدى الفرد يقتضي تحكما أمريكيا في سوق النفط، ولا يكون ذلك إلا بهيمنتها على مصادره. وهذا لا يتحقق إلا بالتدخل لتغيير النظم السياسية. والتحكم في منظومة اقتصادها بما يحقق استقرار الوضع الاقتصادي في أمريكا.

وهكذا فنحن أمام تصور أقرب لما طرحه الدكتور سمير أمين حول نظرية المركز والأطراف، وإن كان قد أطره بمنظور ماركسي يجعل الفاعلية لقوى الإنتاج. أو هو بعبارة: أقرب للتصور الذي استلهمه راشد الغنوشي من سمير أمين وأضفى عليه الأبعاد القيمية والثقافية، والذي يميز فيه بين نمو المركز الذي يتطلب تقطيع الأطراف، ولعل هذه هي النقطة المحورية التي يمكن أن تنسف ما يسمى بنظرية فوكوياما.

على أننا يمكن أن نستفيد وبشكل إيجابي من تحليل مهدي عامل، وهو يطرح مفهوم نمط الإنتاج الكولونيالي لكي نفهم على نحو مختلف استحالة التحديث في دول العالم الإسلامي بنفس المنظور الذي يؤصل له فوكوياما لاعتبار التناقض في صيرورة التطور النسقي، بين التحديث الفاعل والتحديث التبعي، وهو أمر منطقي ومبرر نظريا وواقعيا وتاريخيا.

الملاحظة الرابعة: التحديث والثقافة

لعل خطأ فوكوياما المركزي هو اعتماده المحورية الأوروبية أساسا للتفكير؛ لأن من شأن هذا التوجه أن يلغي الخصوصية والتميز الحضاري.

والتجربة الإسلامية في عمومها تشير إلى إمكانية خروج التحديث من نسيج الثقافة، فلقد أثبتت التجربة التاريخية الإسلامية الإمكانات التي يتوفر عليها النسق الثقافي؛ إذ يستطيع أن ينتج النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي، ولعل تحليلات الدكتور برهان غليون في هذا الاتجاه جد موفقة إيجابا وسلبا.

فمن حيث الإيجاب: فتاريخ الإسلام شاهد على أن الثقافة هي التي صنعت نظامها المجتمعي ونظامها الاقتصادي والسياسي.

ومن حيث السلب: فلقد استطاع الاستعمار أن يقوض كل النظم الاقتصادية والسياسية والاجتماعية، لكنه عجز عن القضاء على النسق الثقافي الذي ظل دائما مصدر الممانعة. فقد كان عصيا على الاختراق، ولقد احتفظ برصيده وأنتج في دول الاستقلال بتحالف مع النزعة الوطنية والعروبية الأنظمة القطرية.

يضاف إلى ما ذكرنا أن ملاحظات فوكوياما حول الصين غير دقيقة، فالصين امتلكت ناصية تحديثها من بنائها الثقافي ومن ثورتها الثقافية، وليس من فعالية العلوم، فالبناء الثقافي هو صاحب الفاعلية، وهو المحرك والفاعل التاريخي في الصين. أما نموذج اليابان بلد فوكوياما الأصلي، فإن تحليله يبقى شاهدا على

تناقضه، فقد اضطر إلى الاعتراف بكون الثقافة والسياسة في اليابان تختلف عن مثيلاتها في العالم الغربي. وإذا كان فوكوياما قد عجز عن تفسير هذا الأمر، واكتفى بإجابة سياسية فيها كثير من الدوغمائية: "لا نريد عالما منمطاً ثقافياً" فإن الأمر الواضح هو أن الثقافة لها قوانين وآليات غير تلك التي تحدث عنها فوكوياما.

والذي يستدعي كثيرا من التأمل أن الرجل لم يلتفت إلى الديمقراطية والتحديث التركي الإيراني، وإن كانت إشارته للأداء السياسي الضعيف للدول الأصولية (إيران نموذجا) مقصودا سياسيا. فالتجربة التركية الحالية والإيرانية في التحديث والديمقراطية تفسد بشكل كبير ملاحظات فوكوياما واستنتاجاته المضطربة.

الملاحظة الخامسة: الهوية الدينية

لعل الأمر الذي يبدو نشازا في هذه النظرية هو الاستنتاج الذي ساقه فوكوياما بخصوص الهوية الدينية، إذ اشترط للتحديث الفصل بين الديني والسياسي دونما تبرير نظري، وغاية ما ساقه في الموضوع أمران:

. **قراءة التجربة الأوروبية باختزال متكلف:** فعنده أن الرهان على المرجعية الدينية كان سببا في قيام حروب دينية، والنهضة الأوروبية لم يكن النجاح ليكون حليفها لولا القطيعة مع الدين.

. **المسيحية هي الأساس المرجعي لليبرالية الديمقراطية**، ولكن ليس بمعنى أن للدين فاعلية وحضوراً تاريخياً، فالمسيحية أنتجت الليبرالية الديمقراطية، وهذه الفكرة انقطعت عن أصولها، واجتثت

من مصادرها التاريخية، وصارت إبداعا كونيا غير مرتبط بالفكرة الدينية.

وأول ما يسجل على هاتين النقطتين: التناقض الصارخ، وحضور الاستثناء النظري كحل يتدخل به فوكوياما، كلّما أحس بشيء يفسد استنتاجاته، ليجمع بين المتناقضات، فالمسيحية أنتجت الليبرالية الديمقراطية ولكن الاستثناء هنا: هو استقالة السبب المنتج (الذي هو الدين) وكونيه المنتج (الذي هو الديمقراطية الليبرالية)، وهو عبث نظري واضح، فمشكلة الهوية الدينية لا يمكن أن نحسم بصددها بهذه السهولة لمجرد قراءة تجربة تاريخية غربية تختلف التقديرات والتفسيرات بشأنها، فالعولمة والتحديث لا يستهدفان فقط العالم الغربي، وإنما هما مطروحان على كل العالم بتعدد أنساقه الثقافية (العالم الإسلامي العربي، العالم الهندي، العالم الصيني..) وغيرها من العوالم التي تتميز بخصوصياتها الثقافية وتجاربها التاريخية الفريدة.

فالإشكال الديني يبقى حاضرا بقوة، ولا يمكن أن يتعامل معه بهذا الاختزال اللاتاريخي، ولعل فوكوياما أدرك هذه الخطورة حينما امتنع عن الحديث عن الهوية الدينية في العالم الإسلامي، واكتفى بطرح السؤال: هل سيصل العالم الإسلامي إلى نفس هذه الاستنتاجات؟

ولعله بذلك يدرك كون هذه الهوية الدينية لا يمكن أن يحسم فيها المنطق الداخلي لصيرورة التحديث، بمعنى لا يمكن للتحديث

الحقيقي داخل بلد عربي إسلامي أن يمضي في اتجاه الفصل بين الديني والسياسي، مما يفتح المجال واسعا للتحديث الفاعل (الأمريكي الأوروبي) للتدخل في البلدان الإسلامية بالآليات الاقتصادية والسياسية والقانونية والقمعية والعسكرية لتغيير المنظومة السياسية وشرعياتها، وتغيير المنظومة الثقافية المجتمعية بشكل يسمح بالحديث عن العولمة في المحيط الإسلامي، وهو أمر لا بد أن يواجه من طرف الحركة الإسلامية والوطنية وقوى المقاومة الثقافية العمق الاستراتيجي لهذه الأمة.

الملاحظة السادسة: تفسير الظاهرة الإسلامية

يبدو أن فوكوياما اجتهد في امتلاك ما يمكن أن نصطلح عليه تجاوزا "تفسيرا للظاهرة الإسلامية" تعتمد مقاربته للظاهرة الإسلامية على ثلاث نقاط:

١ ـ الظاهرة الإسلامية ليست استماتة ثقافية، ولكنها مجرد حالة تاريخية، وهي تعتمد قراءة معينة للنص الديني.

٢ ـ الظاهرة الإسلامية ليست فكرا أصيلا منطلقا من ثقافة الأمة، وإنما هي نتاج تجميع لحاصل الأفكار الغربية الراديكالية، وتأويل لها، وصياغة مركبة لها في قالب يستثمر النص الديني للوصول إلى أهداف سياسية.

٣ ـ "الإرهاب الجهادي" المتمثل في ظاهرة أسامة بن لادن هو نتاج الدعم المالي للمملكة السعودية التي تنصر هذا النوع من الفهم المتطرف للإسلام.

والواقع: أن هذه الأفكار لم تنل حظا من الرصيد المعرفي ولا من حسن التركيب والصياغة، والرجل - وإن كان قد تحدث عن حسن البنا وسيد قطب والإخوان المسلمين - فلم يزد على ذكرهم بالاسم، وواضح أن الرجل لم يتتبع الرصيد المعرفي لكسب الحركة الإسلامية، ولم يتتبع التطورات الفكرية التي رافقتها، ولا علم منازع التفكير عندها ومشاريه، مما يزيد الملاحظة السابقة تأكيدا، وهو أن أفكاره أبعد ما تكون عن النظرية، وأقرب ما تكون إلى البرنامج السياسي.

والمتأمل في كسب الحركة الإسلامية، ورصيدها المعرفي الإخواني وغير الإخواني يلمس استحالة تأثر الحركة الإسلامية في تأصيلها ومصادر تفكيرها بالفكر الأوروبي الراديكالي.

بل على العكس من ذلك، فلقد خاضت الحركة الإسلامية، في تعبيرها القطبي تحديدا، صراعا فكريا عميقا مع نوازع التفكير الغربي، كما تأثرت الحركة الإسلامية ذات المنزع المعتدل، وهي التيار الأغلب، بقيم الانفتاح والحداثة، خاصة تلك التي لا تتأطر بالحمولات العقدية، فقد انفتحت الحركة الإسلامية على الديمقراطية وعلى العولمة وعلى مفاهيم حقوق الإنسان بما يسمح بالاستنتاج المعاكس لمنظور فوكوياما.

والأجدى لمفكري الغرب ممن لا يحتكون بمشارب الفكر الحركي الإسلامي أن يترفعوا عن الانزلاق إلى مواقع الاستخدام الإيديولوجي للموضوعات إلى رحابة التلقي المعرفي، ولقد أثبتت

الوقائع استعداد الحركة الإسلامية لبسط خطابها ومصادر تفكيرها، بل وانخرطت في منتديات للحوار مع الغرب مبينة ثوابتها وقيمها، ووسائل اشتغالها السلمية (نموذج حوار حماس وحزب الله مع المثقفين الأمريكيين القريبين من صناع القرار الأمريكي في بيروت).

الأمر الثاني البالغ الأهمية، والذي يدعو إلى الذهول والاستغراب هو السؤال: ما هو المنطق الذي اعتمده فوكوياما في الإثبات والنفي في الظاهرة الإسلامية؟

- "هي ليست استماتة ثقافية" هذا نفي.
- "هي حالة تاريخية استثنائية" هذا إثبات.

فغياب المنطق المفسر يدل على تهافت هذا الطرح، ذلك التهافت الذي تؤكده أكثر المعطيات الواقعية، فأغلب المقاومات الحقيقية للمشروع الأمريكي هي ذات توجيه إسلامي أو تأطير وطني. وهي ليست مقاومة عارضة لكنها مؤثرة وأصيلة. ولقد استطاعت أن تربك السيناريوهات الأمريكية (حزب الله في لبنان - هيئة علماء المسلمين في العراق - المقاومة الإسلامية الوطنية في فلسطين - المقاومة الشعبية الإسلامية في أفغانستان...).

الأمر الثالث: إن تفسير ظاهرة "تنظيم القاعدة" بذلك الاختزال السطحي يدل على أن الأمر يتعلق بتوجه سياسي، يستهدف فرض أجندة سياسية على المملكة العربية السعودية بقصد إلغاء شرعيتها الدينية وتهميش حضورها الثقافي والوطني والإسلامي البارز. فالسيناريو الصهيوأمريكي يتطلب تغييرا في

المنطقة، ذلك التغيير الذي يمس أساسا المحور السوري اللبناني، ويستهدف الضغط على السعودية ودفعها في اتجاه علمنة المؤسسات، وإلغاء الشرعية الدينية... ومن ثمة فتفسير ظاهرة القاعدة "بالدعم المالي للسعودية لهذا النوع من الفهم للإسلام" يقصد أمرين:

ـ اتهام المملكة، وفي ذلك تبرير سياسي كافٍ لفرض الأجندة الأمريكية في المنطقة.

ـ الإشارة إلى الجانب المالي، والقصد من ذلك تبرير التوجه نحو التحكم في مصادر النفط في المملكة.

أعتقد، هذه هي القراءة التي تناسب هذا التفسير الوارد في أفكار فوكوياما لا باعتبارها نظرية، ولكن باعتبارها برنامجا سياسيا.

الملاحظة السابعة: الاقتصاد والقيم:

لا ينكر أحد أن لتطور وسائل الإنتاج بعض التأثير على أنماط العلاقات السائدة، وعلى طريقة التفكير أيضا، لكن هذا التأثير لا يرقى ليمس قاعدة النسق الثقافي جملة، والذي يفسر فاعلية العامل الاقتصادي في تغيير الأنماط الثقافية في أمريكا وأوربا هو قابلية القاعدة التي يتأسس عليها النسق الثقافي للتغيير، فقاعدة النسق الثقافي الغربي تتأسس على نزعة الفردانية وهي نزعة متكيفة مع تحولات الاقتصاد، وخاضعة لتأثيراته، بخلاف النسق الثقافي في العالم الإسلامي الذي يعتمد الجماعة المؤسسة على الرابطة الدينية. فهذه القاعدة لا تسمح إلا بالتغيير في بعض فروع

وأنماط السلوك دون أن يصل الأمر إلى التغييرات الجذرية التي تمس أصول النسق الثقافي والاجتماعي، ويمكن لنا أن نتأمل ردود أفعال المجتمع الإسلامي من جملة من القضايا خاصة تلك التي لها تعلق بالأسرة والمجتمع، والمتأمل لبعض أنماط السلوك التي تخرج عن إطار القاعدة يجدها غير مؤطرة بذات القناعة الفكرية الغربية التي تتيح للفرد أن يتصرف باعتباره حرا، وإنما هي انزلاق غير واعٍ لا يلغي القاعدة التي بني عليها النسق الثقافي، بل يزيد في تأكيدها في الوعي الجمعي للأمة.

وتلك ملاحظات ترد على نظرية فوكوياما التي لا تعير اهتماما لاختلاف الأنساق الثقافية، وتغاير المعادلات الاجتماعية في كل من الغرب والعالم الإسلامي.

الملاحظة الثامنة: وقوف قطار التحديث الأمريكي

لعل المتأمل في ارتفاع أسعار النفط وارتباط كل ذلك بالمشروع الأمريكي في المنطقة يعطي نظرة واضحة على مآلات الوضع لو بدأ التطبيق الفعلي لبقية أجندة مشروع الشرق الأوسط الكبير.

إن الرهان على الأجندة الأمريكية قد يؤدي إلى تدهور مأزقي في الاقتصاد العالمي، ذلك التدهور الذي قد يمس قطار التحديث الأمريكي بشكل مباشر. فإذا انضاف إلى هذا التدهور اختلال الأمن، وضعف السيطرة على بعض الدول واحتمال ظهور تكتلات معادية للعولمة وذات تعبيرات سياسية سلمية قوية. فإذا تضافرت هذه العوامل. وفشلت الخطة الأمريكية في فلسطين، واختل الوضع

الأمني في العراق. وفشلت الاستراتيجية الأمريكية على المحور السوري اللبناني، وتدشنت عمليات الإصلاح المؤطرة بالمضمون الوطني داخل النظم السياسية... فإن الأمر حتما سيدفع الفاعل الأوربي إلى أخذ المبادرة التاريخية بنحو أقرب إلى منطق النفعية الواقعية، وهذا بالتأكيد سيكون على حساب قطار التحديث الأمريكي.

الملاحظة التاسعة: في نهاية نهاية التاريخ

لعل المتأمل في مسار المقاومة للهيمنة الأمريكية وآثارها على المستوى الاقتصادي والسياسي أولا، ثم على رصيد الممانعة الثقافية ثانيا، يدرك إلى أي حد يمكن أن يربك هذا السيناريو حسابات نظرية نهاية التاريخ. وهكذا ومع تطورات الحدث تتضاف المقاومة الأفغانية إلى العراقية فالفلسطينية فالسورية فاللبنانية فالسودانية... لتشكل الجبهة الأوسع للممانعة الثقافية التي تؤذن ليس بنهاية التاريخ وإنما بنهاية نهاية التاريخ.

الملاحظة العاشرة: في بداية التاريخ: مقدمات في مشروع التحديث الإسلامي

أختم ملاحظاتي بالتجربة التحديثية التي يسعى المشروع الإسلامي إلى تشييدها: المشروع التركي المراهن على التنمية الاقتصادية والتنمية السياسية في ارتباط مع الهوية الثقافية في واقع سياسي يخضع لمعادلة صعبة، هذا المشروع يستطيع إذا تحقق

له النجاح أن يؤسس لبداية التاريخ، التاريخ الذي لم يبدأ، ولعل المقدمات الأولى لمشروع التحديث الإسلامي تؤذن حقيقة بهذه البداية.

*** باحث وكاتب مغربي**

(*) نشرت المداخلة في ملحق الرسالة بصحيفة المدينة بتاريخ ١٤٢٦/٤/٢٦هـ الموافق ٢٠٠٥/٦/٣ م

obeikandl.com

د. خالد الدخيل(*) يتساءل: (١-٣)

هل هذا نموذج للحوار مع الغرب؟!

في ١٤٢٦/٣/١٣هـ نشر ملحق الرسالة في صحيفة المدينة لقاء مطولا مع الكاتب الأميركي فرانسيس فوكوياما، قام به عبدالعزيز قاسم، مدير تحرير الصحيفة ومشرف الملحق. شارك في اللقاء الدكتور عزت خطاب، أستاذ الأدب الإنجليزي في جامعة الملك سعود، والدكتور إبراهيم البلوي من الجامعة نفسها، والدكتور محمد جنجار أمين عام مؤسسة الملك عبدالعزيز. تولى الدكتور خطاب عملية الترجمة بين فوكوياما وقاسم، إلا أنه أخذ بمجريات الحديث، فساهم من عنده بمجموعة من المداخلات والأسئلة. وكذلك فعل المشاركان الآخران. وبعد نشر المقابلة اقترح عبدالعزيز على عدد من الكتاب السعوديين قراءة اللقاء، ثم كتابة انطباعاتهم حول ما جاء فيه، وخاصة ما قاله فوكوياما في إجاباته عن الإسلام، وعن المجتمع السعودي وثقافته الإسلامية، وذلك على شكل مداخلات تعكس وجهة نظر فئة من المثقفين السعوديين (لعلها تكون عينة ممثلة)، وموقفهم ممّا قاله فوكوياما عن هذا الموضوع. وقد قال عبدالعزيز قاسم إنه سيتولى تقديم هذه المداخلات إلى فوكوياما ليطلع عليها، ومن خلالها يطلع على موقف المثقفين السعوديين حيال القضايا التي تناولها في هذه المناسبة وغيرها، وتمثل نقاط اختلاف أو التقاء بين السعوديين

والأميركيين. بهذه الصيغة التي أرادها عبدالعزيز يكون اللقاء المنشور، وتعليقات السعوديين عليه شكل من أشكال الحوار، وإن على مستوى معين ومحدود، بين العرب المسلمين والغرب، وتحديدا بين السعوديين والأميركيين.

لعله من الواضح من هذه المقدمة أنني لن أتناول هنا اللقاء فقط، بل إلى جانب ذلك سأتناول عينة من المقالات التي كتبها بعض المثقفين السعوديين تعليقا على اللقاء. أي: إنني لن أكتب تعليقا على إجابات فوكوياما وحدها، وإنما سأتناول هذه الإجابات، آخذا في الاعتبار الأسئلة التي طرحت عليه، وطبيعة الحوار الذي فرضه اللقاء بينهما. بعبارة أخرى، سأحاول أن أقرأ أسئلة اللقاء، وإجابات فوكوياما عليها، ثم تعليقات الكتاب السعوديين على الإجابات. كل ذلك - الأسئلة والإجابات والتعليقات - يشكل في مجموعه نصا واحدا. وهو نص أزعم أنه ينطوي على ما يكشف عن إن كان ما حدث، من أسئلة وإجابات وتعليقات، شكلاً من أشكال الحوار، أم صيغة أخرى للتخاطب والتواصل. في السياق نفسه لن يكون هدفي الأساسي كتابة رد على فوكوياما، أو محاولة تفنيد ما قاله عن المجتمع السعودي. وهذا في الحقيقة هو كل ما فعله المعلقون السعوديون، ماعدا تركي الحمد.

السبب وراء محاولتي تجنب ذلك مرده إلى أمرين:

الأول: أن هدفي محصور في التعرف على طبيعة ما دار بين فوكوياما والسعوديين، في اللقاء الذي تم، والتعليقات التي أثارها

ما جاء في اللقاء. وعليه، وهذا هو **الأمر الثاني**، لا ينبغي للسجال أن يكون محصوراً في هذه الحالة مع ما قاله فوكوياما عن قضايا ومسائل هي بطبيعتها إشكالية، وقابلة للاختلاف والاتفاق، بهذه الدرجة أو تلك من الوضوح. بل يجب أن يمتد ليشمل ما قاله السعوديون أيضا، سواء اتخذ هذا القول صيغة سؤال، أو صيغة تعليق على ما قاله فوكوياما. بهذه الطريقة يكون السجال مع النص ككل، نص ما حدث بين كل الأطراف، آلية لا بد منها لتحقيق ما أرمي إليه، أو ذي صلة به بدرجة لا يمكن الاستغناء عنها. واختياري لهذه الطريقة في التناول لا يعني أبدا أنني لا أجد نفسي مختلفا مع بعض أو كل ما قاله فوكوياما في هذا اللقاء وغيره، أو مع ما قاله من تبرعوا بالتعليق على إجابات فوكوياما، وإنما لأنني عندما فرغت من قراءة اللقاء وجدت أن السؤال الذي فرض نفسه عليّ منذ البداية، وبإلحاح هو: هل أن الذي أمامي هو حوار بالفعل؟ أم مجرد مقابلة مع نجم ثقافي من الولايات[1] المتحدة اتخذ موقفا من الإسلام، ومن السعودية تحديدا باعتبارها تمثل صوتا إسلاميا؟ وبرز أمامي السؤال نفسه عندما انتهيت من قراءة المداخلات السعودية على ذلك اللقاء. من الواضح أنني أفترض هنا أن الذي حدث في هذا السياق كان ينبغي أن يأخذ شكل الحوار.

حاولت أن أقرأ المقابلة مع فوكوياما، والتعليقات عليها كمراقب، مهتم بموضوع الحوار، وبالتالي فإن قراءتي للقاء تنطلق من هذا الاهتمام تحديدا، وتستند إلى مؤشرات مثل تواصل الأسئلة، وجود الأسئلة الصعبة، إخضاع الإجابة للتدقيق، نقض

Obeikandi.com

الإجابة، ثم نقض النقض، وضع الإجابة للشك والتساؤل،... إلخ. هذه وغيرها مؤشرات يجب أن ينتظمها سياق فكري، أو سياسي متصل ومتماسك على أساس من فرضيات ومرئيات محددة وواضحة لكل طرف. وهذه في مجموعها تشكل المعيار الذي استندت إليه في قراءتي للقاء. بمعنى آخر، لم أقرأ اللقاء بغرض الرد على هذا الطرف أو ذاك. قرأته لمجرد اكتشاف إن كان اللقاء نجح في أن يكتسب صفة الحوار وروحه بين الذين شاركوا فيه. هناك أكثر من مبرر لذلك. الأول أننا في المجتمع السعودي أخذنا الخطوة الأولى في سبيل غرس فكرة الحوار في ثقافتنا المحلية، وهي الفكرة التي ظلت غائبة عنها حتى الآن. ولذلك من الأهمية بمكان أن نتعرف، وفي السياق نفسه، على معنى الحوار. ولا أزعم هنا أكثر من أن ما أقدمه مجرد مساهمة لتحقيق الهدف نفسه. أما من حيث السبب الذي على أساسه اخترت أن يكون تناولي للقاء بالطريقة التي تم بها فيعود أولا بشكل أساسي إلى أنني من ناحية جزء من العملية الثقافية والفكرية بشكل عام، وأشارك أطراف اللقاء، بمن فيهم فوكوياما، الكثير من اهتماماتهم وتساؤلاتهم، إلا أنني من ناحية ثانية عربي سعودي. كان أمامي هنا سبيلان للتعاطي مع ما حدث بين فوكوياما وجمع من السعوديين: إما أن أتناول ذلك كمواطن سعودي يهمه ما يقال عن وطنه ومجتمعه، أو أن أتناوله كمثقف يملك همًّا معرفيا وسياسيا. وقد استقررت على الخيار الأخير، أولا لأن الاخوة الآخرين حاولوا القيام بمهمة الرد على ما قاله فوكوياما. هذا مع ملاحظة أن هذا لا يعني أنني أتفق مع ما قيل في هذا الاتجاه. اهتمامي انصب هنا

obeikandi.com

على إخضاع مضمون اللقاء ـ ما قاله فوكوياما، وما قاله السعوديون، ورد السعوديين على فوكوياما ـ لشيء من التحليل والمساءلة.

والثاني، وهو الأهم، أن هذا الخيار الأخير يتسع بدرجة كبيرة ليشمل الخيار الأول، حتى وإن لم تتم الإشارة إليه بشكل مباشر.

لقاء أم حوار؟

بعد هذا المدخل القصير أدلف إلى الموضوع مباشرة، وأبدأ من الملاحظة نفسها التي أشرت إليها عرضا في المدخل، وهي أن اللقاء الذي تم مع فوكوياما لم يكن أكثر من ذلك: لقاء سرعان ما تحول على يد الطرف السعودي إلى مناسبة عبّر فيها عن مشاعر من الضيق والتبرم تراكمت لديه تجاه السياسة الأميركية، باعتبارها سياسة امبريالية ومتعجرفة، تسعى إلى فرض نموذجها السياسي والفكري على العالم، بما في ذلك العالمان العربي والإسلامي. كذلك لم تخرج المداخلات السعودية على اللقاء عن السياق نفسه. على العكس كرست طبيعته كمجرد لقاء عابر تحدث فيه كل طرف إلى الطرف الآخر، وتبادل معه الاتهامات، من دون أن يتحدث معه أو يصغي إليه. لم تستمع أطراف اللقاء إلى بعضها البعض. الكل كان متمترسا خلف قناعاته المسبقة. ومن هنا لم يتسنّ لهذا اللقاء أن يتحول إلى حوار حقيقي ومعمق، حوار سياسي ونظري حول رؤية الطرفين تجاه القضايا المطروحة.

ربما قيل إن توقع حصول حوار بهذه الصيغة هو توقع في غير محله، لأن طرفي اللقاء لا تجمع بينهما أرضية فكرية أو نظرية

مشتركة، فضلا عن تناقض مواقفهما السياسية. يضاف إلى ذلك أن كل طرف ينتمي إلى سياق تاريخي مختلف عن الآخر. لكن هذه الاختلافات والتباينات بين الطرفين هي في الواقع أهم مبرر لأن يكون هناك حوار بينهما وليس العكس. الاختلاف هو المبرر الوحيد للحوار مع الآخر، وخاصة من الخارج. والاختلاف من طبائع الأمور التي ليس هناك مضر من تقبلها في الأخير والتعايش معها. غياب لغة الحوار عن اللقاء وما تبعه من مداخلات السعوديين لا يعود على الأرجح الى ما بين الطرفين من اختلافات وتناقضات، بل إلى غياب قناعات الحوار وآلياته عند أحد الطرفين أو لدى كليهما معا.

السؤال الذي يفرض نفسه هنا هو: إذا كان ما حدث بين أطراف اللقاء في المغرب لم يأخذ صفة حوار، فما هي الصفة التي يمكن أن يوصف بها ما دار بينهما؟ طبعا من الممكن القول بأن تبادل الرأي والمعلومة، وتطارح السؤال والجواب هو في الأخير شكل من أشكال الحوار. وهذا من حيث المبدأ صحيح. لكن تبقى مسألة جد مهمة وهي الصيغة التي ينبغي أن يكون عليها تبادل الرأي والمطارحة. فقد تأخذ شكل حزمة من آراء وأسئلة غير متصلة، ومعلومات متناثرة لا تجمعها رؤية متكاملة، ولا منهج واضح في منطلقاته وأهدافه. وبالتالي تفتقد إلى التحليل، والتحليل المضاد، والمجادلة المتبادلة. لكن المتصلة أيضا سواء كان ذلك ضمن خطاب واحد، أو في سياق مواجهة بين أكثر من خطاب. وما حصل في لقاء المغرب كان في تصوري أقرب إلى الصيغة الأولى منه إلى الثانية. كانت هناك أسئلة، وكانت هناك

إجابات. وربما قيل بأن أسئلة السعوديين وتعليقاتهم جاءت في اللقاء معبرة عن توجه واحد متصل وغير منفصل. لكن الوحدة والاتصال هنا كانت في الشكل من حيث إن الذي انتظمها هم سياسي واحد، أو الموقف من أميركا، وليس رؤية منهجية وموقفاً فكرياً يتم التعبير من خلاله عن ذلك الهم المشروع. وعلى العكس من ذلك جاءت إجابات فوكوياما، معبرة عن هم سياسي مختلف، ولكن من خلال رؤية منهجية وموقف فكري واضحين. انطلاقا من ذلك أقترح أن تكون الاجابة على السؤال الذي طرح في بداية هذه الفقرة على الشكل التالي: استعراض مختصر لبعض ما جاء في لقاء الدار البيضاء مع فوكوياما. ثم إلقاء نظرة على بعض المداخلات السعودية حول ما قاله فوكوياما في ذلك اللقاء. وأخيرا، وبناء على كل ذلك، محاولة التعرف على الطرفين، السعودي والأميركي، اللذين شاركا فيما يمكن أن نسميه بمحاولة للحوار أخفقت بينهما. يفترض الأمر في هذه الحالة أن يكون هناك نوع من خاتمة تتضمن بعض التحليل والاستنتاجات. الا أنني سأترك هذا للقارئ، ليستنتج ما يريد أن يستنتجه.

(*) كاتب وأكاديمي سعودي بجامعة الملك سعود

obeikandl.com

د. خالد الدخيل: (٢-٣)

هل كان فوكوياما فيما لاحظه عن المجتمع السعودي يحاول أن يمارس شيئا من التفكير والحوار؟

يضعنا عبدالعزيز قاسم في الأجواء التي قادت إلى اللقاء مع فوكوياما هكذا، " كان نجم ندوة مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية الأخيرة التي عقدت بالدار البيضاء مؤخرا هو المفكر الأميركي من أصل ياباني فرانسيس فوكوياما، فقد غصت القاعة الرئيسة عن آخرها بالحضور الذين توافدوا من وقت مبكر، فضلا عن قاعة أخرى بها شاشة عرض امتلأت هي الأخرى. عقدت الندوة تحت عنوان (وجهة التاريخ: العقل وشروط الوجود الإنساني) فيما كانت ورقة السيد فوكوياما بعنوان (نهاية التاريخ.. بعد مرور ١٦ سنة على إعلانها)، ومن حسن الحظ أنها المحاضرة الوحيدة التي حظيت بترجمة فورية إلى اللغة العربية ما جعلنا في الصحيفة نحقق سبقاً بنشر ترجمة المحاضرة. " المهم في هذا الاستشهاد نقطتان: الأولى النجومية التي حققها فوكوياما في بلد عربي مسلم، وحضور هده النجومية بشكل واضح في اللقاء، والثانية حرص عبدالعزيز على نشر محاضرة فوكوياما، وعلى إجراء حديث معه لصحيفة المدينة. إلى جانب نجومية فوكوياما هناك سبب آخر فرض إجراء الحديث أو اللقاء معه، وهو ما أشار إليه عبدالعزيز عندما قال في تقديمه:

"وعرج (فوكوياما في محاضرته) على دور السعودية في ترويج (الإسلام الراديكالي)، بزعمه، ومن ثم خلق (السلفية الجهادية) بسبب توافرها على البترودولار. ثم يضيف قائلا: "أسفت جدا لبعض المغالطات التي رددها الرجل، وألححت على الأخوة القائمين على الندوة بأن يرتبوا لي حوارا صحافيا معه، حيث بادروا مشكورين إلى تلبية طلبي ووافق فوكوياما على الحوار مشترطا ساعة واحدة فقط." . إذا "محاضرة فوكوياما ومغالطاته" كانت الدافع الآخر لإجراء الحديث معه. مما يوحي بأن الحافز للقاء كان أساسا لمواجهة فوكوياما بما ورد في محاضرته من مغالطات. وليس للدخول في حوار فكري وسياسي معه انطلاقا من هذه المغالطات. وهذا بحد ذاته لا غضاضة فيه، وكثيرا ما يحدث. لكنه ليس حوارا. من حيث المبدأ يمثل الاختلاف المبعث الأساسي للحوار. والمغالطة، إذا صح أنها كذلك، صيغة صارخة وربما عنيفة للاختلاف. وتبعا لمبعث المغالطة قد تكون منطلقا لحوار معمق وثري، خاصة عندما تكون المغالطة نابعة من سوء فهم، أو نقص في المعلومة، أو مجرد اختلاف في الرؤية. أما عندما تكون المغالطة لذاتها، وتعبيرا عن تعصب أيديولوجي أعمى، فإنها في هذه الحالة لا تصلح أن تكون منطلقا لأي شكل من أشكال الحوار.

ما قاله فوكوياما هنا عن الإسلام وعن المجتمع السعودي ليس جديدا بل يكاد أن يكون متداولا منذ أمد ليس بالقصير، ولذلك كان من الممكن لعبدالعزيز وزملائه أخذ مغالطات فوكوياما، كما سماها، مدخلا لحوار أوسع. لكن الذي حدث كان شيئا مختلفا:

كان في أغلبه أسئلة تأرجحت بين محاولة استثارة عين الرضا لدى فوكوياما عن السعودية والإسلام من ناحية، وبين الاحتماء بآلية الدفاع المعهودة، وذلك بالإشارة إلى أخطاء ونواقص الأميركي أو الغربي الذي يرمي السعودية والإسلام بمغالطاته. من ناحية أخرى. لعل المفارقة في موقف الطرف السعودي واضحة هنا، وكذلك السبب أو الإطار الذي ساعد على بروزها. من حيث الإطار ينبغي ملاحظة أن اللقاء مع فوكوياما حدث بعد أحداث ١١ سبتمبر، وبعد الغزو الأميركي للعراق، وبشكل خاص بعد الهجمة الإعلامية الشرسة من قبل الإعلام الأميركي، والكثير من المسؤولين والكتاب الأميركيين، هجمة استهدفت السعودية، والإسلام بشكل مباشر، بل وبشكل بذيء أحيانا.

ينتمي فوكوياما إلى التيار المحافظ الذي يمثل أهم وأبرز القوى التي تقف وراء تلك الهجمة وتغذيها. والأرجح هنا أن فوكوياما كان في اللقاء رمزا أميركيا محافظا استخدمه الطرف السعودي ليعبر من خلال التهجم على آرائه، وتسفيهها أحيانا، عن موقفه من السياسة الأميركية في هذه المرحلة التي تشهد صداما مباشرا بين العالم العربي والولايات المتحدة. لكن فوكوياما، من ناحية ثانية، هو نجم ثقافي بارز في الأوساط الثقافية والسياسية الأميركية، بل ونجم عالمي تتطلب الحنكة والمصلحة السياسية كسبه، وتشجيعه على تغيير نظرته السلبية تجاه السعودية، وتجاه الإسلام، أو على الأقل التخفيف من غلواء هذه النظرة. وأسئلة اللقاء تكشف أكثر عن الجانب الثاني من المفارقة، في حين أن

مداخلات السعوديين بعد ذلك تكشف أكثر عن الجانب الأول منها: محاولة كسب فوكوياما كنجم ثقافي، أو محاولة زحزحته ليكون أكثر إيجابية وتفهما في نظرته للسعودية (الجانب الثاني من المفارقة) يتضح بشكل خاص في أسئلة اللقاء، من السؤال الثاني وحتى السؤال السادس. في هذا الجزء من اللقاء يتبارى عبدالعزيز ود. خطاب على محاولة إقناع فوكوياما بأمرين: الالتفات إلى الجوانب الإيجابية في المجتمع السعودي، والثاني الإلحاح في عرض زيارة السعودية عليه حتى يرى بنفسه تلك الجوانب التي تغيب عن واحد مثله يتحدث عن هذا البلد من على مسافة بعيدة. من المناسب هنا إيراد ما دار بين الطرفين بنصه، ولو أن في ذلك شيئا من الإطالة.

بعد إجابة فوكوياما على السؤال الأول دار الحديث كما يلي: يعلق قاسم على إجابة فوكوياما بالسؤال التالي، وإذن سيد فوكوياما، ما الذي يمكن أن تقترحه لنا لتصحيح صورة الإسلام لديكم في الغرب، وطالما، باعترافك، أن المقتنعين بإسلام (بن لادن) هم قلة؟

- حسناً أولاً وقبل كل شيء لا أعتقد أن هذه مسألة تتعلق بنا في الغرب أو بالعلاقات العامة، لا أعتقد أنها مسألة تتعلق بمحاولة تسويق المملكة العربية السعودية إلى الجمهور الغربي. حاولنا أن نفعل ذلك في سياساتنا في الشرق الأوسط ولم ينجح مسعانا كما ينبغي. أعتقد أن أكبر معركة قائمة الآن حقيقة هي

ليست بين الغرب والإسلام، ولكنها معركة داخل الإسلام حول طرق تفسير التقاليد الدينية وأعتقد أن أكثر الأشياء إقناعاً والتي يمكن أن تقوموا بها في مواجهة الجمهور الغربي هو أن تدخلوا في تلك المعركة وأعني أن يكون التفسير قائماً على التنافس والانفتاح لأنني أعتقد أن واحداً من الأشياء التي تقلق العديد من الأشخاص في الغرب أنه في وجه التحدي الجهادي لم يكن هناك أعداد كافية من الناس داخل المملكة العربية السعودية وداخل الدول الإسلامية الأخرى ممن يعترضون حقيقة على ذلك ويدخلون في معركة أيديولوجية.

ويبدو أنهم يتخوفون وبصورة ما من أنهم يسايرون الموقف الغربي. لكن أعتقد أن ذلك سيكون من أكثر الأمور إقناعاً وأنه حقاً يمكن القيام به في المجتمع السعودي.

* **د. خطاب:** ولكن سيد فوكوياما، لا بد أنك لا تعلم بأن بعض الغلاة في التيار الديني لدينا في السعودية حجّموا إلى حد كبير. في هذا الإطار يبدو أن الغرب لا يدري بما يحصل داخل السعودية.

- ربما يكون هذا صحيحاً.

* **د. خطاب:** دعني أضرب لك مثلاً، بأن هذا اللقاء الذي يجريه الزميل قاسم ربما لم يكن في الإمكان نشره قبل بضع سنوات، ولكن الآن يستطيع نشر حديثك بكل يسر وبدون خوف. التجاذبات قائمة.

- لكننا لا نسمع عنها شيئاً.

* **قاسم**: لهذا أتمنى عليك سيد فوكوياما زيارة السعودية كي يكون حديثك أكثر موضوعية وعلمية. فضلا عن أن التقاءك بالنخب الثقافية السعودية سيغير كثيرا من الصورة النمطية لديك عن وطني بصورة أكثر توازنا وموضوعية.

- بالطبع ما قلته صحيح، وأنا أرحب بهذه الدعوة، ولكني لمشاغلي الكثيرة لا أستطيع أن أعد أو أحدد موعداً من الآن لهذه الزيارة، ولكني أرحب جداً بالدعوة.

* **د. خطاب**: أناس بحجمك وفكرك عندما يأتون إلينا، فإنهم حتما سيرون السعودية على حقيقتها. نتمنى أن مجموعة كبيرة من ذوي التأثير في الفكر الغربي والسياسي أن يأتوا لزيارة المملكة، ونحن نتذكر صموئيل هنتنجتون الذي زار السعودية قبل سنوات في مهرجان الجنادرية، وكثير من هؤلاء كانوا ينتقدون السعودية ولكن عندما أتوا ورأوا الحقيقة بأنفسهم تغير كثير من انطباعاتهم المسبقة.

- أنا أتمنى الذهاب للسعودية وأرى بنفسي. أعتقد بأن حادثة ١١ سبتمبر أفرزت كثيرا من التيارات غير المفهومة في كثير من أنحاء العالم، من الأهمية بمكان أن يكون للإنسان تجربة مباشرة في هذا الموضوع".

كما أشرت يكشف هذا المقطع من اللقاء عن نقاط وأمور عديدة، أكثرها وضوحا لهفة الطرف السعودي على كسب تفهم، بل وتعاطف فوكوياما مع بعض التغيرات التي حصلت في السعودية، والتي يبدو أن الكثير من الغربيين، بما فيهم فوكوياما، لم يلتفتوا

إليها. بل إن الأسئلة في هذا المقطع تترك الانطباع بأن الطرف السعودي تقبل من دون نقاش صحة ما قاله فوكوياما في إجابتيه على السؤالين الأول والثاني عن الإسلام، وعن المجتمع السعودي، ما عدا أن ما قاله لا يأخذ في الاعتبار تلك التغيرات المشار إليها. الاهتمام السعودي هنا تركز على ما سماه فوكوياما، في مكان آخر من اللقاء، بالعلاقات العامة. مما يؤكد أن الطرف السعودي لم يحاول الدخول مع فوكوياما في حوار جاد ومعمق حول ما تم تناوله في هذا الجزء من اللقاء، وخاصة ما ورد في إجابة فوكوياما على السؤالين المذكورين. هذا رغم أن ما قاله هنا ينطوي على أهمية تتطلب الالتفات إليها.

في إجابته على السؤال الأول، وكما هو واضح من الاستشهاد السابق، تطرق فوكوياما إلى ثلاثة نقاط مهمة: الأولى أن الإسلام نظام ثقافي مركب له تاريخ طويل، وله طبقات ومستويات مختلفة، وبالتالي قابل للتفسير بمناهج مختلفة. بناء على ذلك، النقطة الثانية، فإن محاولة فرض تفسير واحد للإسلام هو نوع من التطرف أو التشدد الذي يرى فوكوياما أنه منتشر على نطاق واسع في المجتمع السعودي. يميز فوكوياما هنا بين هذا التشدد الثقافي، وبين الأيديولوجيا السياسية المتطرفة لأسامة بن لادن، مشيرا إلى أن نطاق انتشار هذه الأيديولوجيا في المجتمع السعودي محدود. لكنه يرى في الوقت نفسه، أو النقطة الثالثة، أن المجتمع السعودي منقسم على نفسه حول قضايا أساسية. في إجابته على السؤال الثاني عما يقترحه لتصحيح صورة الإسلام في الغرب أشار إلى أن

هذه مسألة لا تتعلق بالغرب، ولا يمكن القيام بها من خلال العلاقات العامة، ومحاولة تسويق المملكة العربية السعودية. لقد حاولت الولايات المتحدة، كما يقول، تسويق سياساتها في العالم العربي ولم تنجح في ذلك. يرى فوكوياما أن على السعوديين مواجهة حقيقة أن الصراع الأساسي ليس بين الغرب والإسلام، بل داخل الإسلام حول "طرق تفسير التقاليد الدينية". ومن ثم يعتقد فوكوياما أن "أكثر الأشياء إقناعا والتي يمكن أن تقوموا بها في مواجهة الجمهور الغربي هو أن تدخلوا تلك المعركة. وأعني أن يكون التفسير قائما على التنافس والانفتاح".

في هاتين الإجابتين طرح فوكوياما مجموعة من الملاحظات والإشكاليات الفكرية التي يرى أنها بارزة في البنية الثقافية للمجتمع السعودي. وهذه ملاحظات جديرة بالاهتمام، لأنها تمثل تحديا للطرف السعودي في اللقاء كان يجب مواجهتها، والدخول في حوار معه حولها. هناك أسئلة تفرض نفسها في هذا السياق. مثلا، هل هذه الملاحظات صحيحة؟ وإذا كانت كذلك، كيف يمكن تفسيرها تاريخيا؟ ليس من الحوار في شيء المبادرة في هذه الحالة إلى آلية الدفاع، ورفض الملاحظات رأسا لمجرد أنها جاءت على لسان أميركي محافظ. هناك أسئلة أخرى ذات صلة. هل كان فوكوياما فيما لاحظه عن المجتمع السعودي يحاول أن يمارس شيئا من التفكير والحوار؟ أم أن هذه الملاحظات لا تمثل بالنسبة له وللأميركيين أكثر من فرصة تبرر استهداف السعودية لأغراض تتعلق بسياسات وأهداف السياسة الأميركية في هذه المرحلة؟

وربما أن السؤال الأهم، واللقاء مع فوكوياما، يتعلق بموقع ملاحظاته المذكورة عن المجتمع السعودي في سياق فرضيته عن نهاية التاريخ؟ لكن بدلا من ذلك تجاهل الطرف السعودي تلك الملاحظات، وحصر اهتمامه بمحاولة إقناع فوكوياما بتغيير نظرته إلى الإسلام وإلى المجتمع السعودي مستخدما في ذلك منهج التسويق والعلاقات العامة، وليس الجدل والحوار الفكري. وينبغي التأكيد على أن ما قاله فوكوياما هنا عن الإسلام، وعن المجتمع السعودي ليس جديدا، بل يكاد أن يكون متداولا منذ أمد ليس بالقصير. ومع أن ملاحظاته قد لا تعبر بالضرورة عن معرفة عميقة بالإسلام وبالمجتمع السعودي، أو عن متابعة قريبة لما يحصل في هذا المجتمع، إلا أنها ملاحظات ذكية تطرح جملة من الأسئلة تشكل في مجموعها تحديا حقيقيا لا بد من مواجهته مباشرة. فالقول بأن الإسلام مركب وذو تاريخ طويل مع تفاسير وتأويلات مختلفة لم يعد بحد ذاته موضوعا للاختلاف الجاد، لكنه يظل مفتوحا على أكثر من معنى تبعا لاختلاف الرؤية. ومن ثم فالسؤال هنا: ما مدى تقبل هذه الملاحظة في المجتمع السعودي؟ وهل صحيح أن هناك انقساما داخل هذا المجتمع على أسس فكرية ودينية؟ كذلك قول فوكوياما بأن التشدد الديني منتشر على نطاق واسع في المجتمع السعودي أمر معروف لدى السعوديين أنفسهم. لكن السؤال: ماذا تعني هذه الحقيقة؟ وهل هي معترف بها في الداخل؟ ولماذا لا تشكل بحد ذاتها مصدرا للقلق إلا مؤخرا، ولدى فئة محدودة داخل المجتمع؟ طبعا كان من الممكن طرح أسئلة

عن دور السياسة الأميركية في المنطقة في نمو ظاهرة التشدد هذه. لكن الاقتصار على هذا السؤال، وتناوله بشكل سياسي وسجالي مباشر، بل ومكرور أحيانا، لا يسمح بحوار جاد ومعمق. في السياق نفسه يتطلب الأمر طرح سؤال عن دور الأنظمة السياسية العربية نفسها في نمو هده الظاهرة. هذه وغيرها من الأسئلة كانت جديرة بأن تفتح مجالا رحبا للحوار لم يتم استغلاله في اللقاء.

من ناحية أخرى، يكشف الاستشهاد السابق عن ضعف التواصل بين طرفي اللقاء. وهو ضعف يعود، كما يبدو، إلى اختلاف في الرؤية، وفي مناط الاهتمام، أو بعبارة أخرى اختلاف في منهج التناول لدى الطرفين. حيث كان فوكوياما يتحدث عن قضايا وأفكار مثل طبيعة الإسلام كفكر وثقافة، وما يتعلق بذلك من مناهج وطرق للتفسير والتغيير، في حين أن عبدالعزيز ود. خطاب كانا مشغولين بمسألة تحسين سمعة المجتمع السعودي لدى مفكري الغرب. وكما ذكر سابقا، أشار الكاتب الأميركي إلى أنه لا يمكن الوصول إلى هذا الهدف باستخدام أسلوب "العلاقات العامة"، وإنما يقتضي الأمر مواجهة المسألة أو الإشكالية في الداخل السعودي بشكل مباشر أولا وقبل كل شيء. كان ينبغي التقاط ملمح مهم في رأي فوكوياما هنا، وهو رأي يدعمه فشل الولايات المتحدة بسبب التناقض الفاضح بين طبيعة وتوجه سياساتها تجاه المنطقة من ناحية، وبين ما تقوله حملاتها التسويقية لأهل المنطقة عن القيم والمثل الأميركية من ناحية أخرى. إشكالية المجتمع السعودي، كما يرى فوكوياما، ليست

إشكالية سمعة تحتاج إلى تحسين بقدر ما أنها إشكالية أداء ومنهج تحتاج إلى مراجعة وتطوير في تناول القضايا ومعالجتها. لا بد من الإشارة في هذا الصدد إلى أن فوكوياما، وفي إجاباته على بعض الأسئلة التي طرحت عليه في اللقاء، لم يتردد في الالتزام بالمنهج ذاته. فقد اعترف بأمور عدة مثل عدم معرفته بالمجتمع السعودي بما يجعل منه متخصصا في شؤونه، وبالدور الأميركي في خلق التطرف في أفغانستان، وباستعداده لمراجعة بعض مواقفه وآرائه عن الإسلام والمجتمع السعودي. في المقابل لم يعترف الطرف السعودي في اللقاء بأي شيء. بل اقتصر في أسئلته على الأسلوب الذي يعتمد آلية الدفاع من ناحية، ومحاولة كسب النقاط من اعترافات فوكوياما، من ناحية ثانية.

obeikandl.com

obeikandl.com

د. خالد الدخيل: (٣-٣)

* ما حصل بين فوكوياما وبعض السعوديين كان لقاء تعارف ولم يكن لقاء حوار معمق

أستأنف حديثي الذي بدأته قبل حلقتين تعليقا على اللقاء مع المفكر الأمريكي فرانسيس فوكوياما..

لعل أكثر ما يكشف غياب سمة الحوار عن اللقاء كان الجزء الذي خصص لتناول موضوع الليبرالية. طرح فوكوياما في هذا الجزء رؤيته لمعنى الليبرالية، والقضايا التي تعنى بها. من القضايا التي أشار إليها مثلا حدود سلطة الدولة في المجتمع، ومفهوم الفرد، وحدود خيارات الفرد والمجتمع، وسيادة القانون. وأكد على أن العيش في مجتمع ليبرالي لا يعني تلاشي الأخطاء واختفاء انتهاكات حقوق الإنسان، لكنه يعني توفر الآليات القانونية والمؤسساتية التي تسمح بتصحيح هذه الانحرافات. كان من الممكن الدخول في حوار حول هذه المفاهيم والإشكاليات، معناها، وجذورها التاريخية، ومدى تحققها على أرض الواقع في الغرب، وإمكانية تطبيقها في المجتمعات العربية والإسلامية. هل هناك مثلا تناقض بين الإسلام والليبرالية؟ وهل غيابها عن المجتمعات العربية والإسلامية يعود لتناقضها مع الإسلام؟ أم يعود لطبيعة الدولة في هذه المجتمعات؟ بدلا من ذلك قصر السعوديون مجادلتهم على حقيقة أن السياسة الأمريكية في العراق وفي فلسطين لا تتفق مع مبادئ الليبرالية.

وهذه إشارة إلى أن الدول الغربية بقدر ما أنها ملتزمة، أو ملزمة باحترام مبادئ وحدود الليبرالية في سياساتها الداخلية، إلا أنها في سياساتها الخارجية تتنكب كثيرا لليبرالية والحرية. لكن لماذا هذا التناقض؟ هل يعود إلى طبيعة الليبرالية؟ أم إلى طبيعة الدولة؟ ثم إن السياسة الخارجية هي مثل المعادلة، لها أكثر من طرف، والطرف الآخر في هذه الحالة هي الدول العربية والإسلامية. بل إن هذه الأخيرة تتنكب لليبرالية في سياساتها الداخلية والخارجية معا. من هذه الزاوية تبدو إشارة السعوديين إلى تناقض الغرب في سياساته الخارجية مع مبادئ الليبرالية، مع أنها إشارة صحيحة، إلا أنها إشارة انتقائية تتجاهل الإشكالية في كليتها، وبالتالي تمثل نوعا من المماحكة السياسية أكثر منها محاولة لحوار جاد ومثمر. بشكل عام يمكن القول بأن أسئلة اللقاء جاءت منفصلة وليست متصلة، تنتظمها مجموعة فرضيات ومرئيات متكاملة. قليلا ما كانت هناك أسئلة متتابعة أو إلحاقية تسمح بتناول قضية بعينها بما تستحقه من التحليل والمقارنة. والأسئلة التي كانت من هذا النوع كانت في أغلبها أسئلة معلوماتية أكثر منها أسئلة تحليلية تلاحق طروحات فوكوياما وتخضعها للتدقيق والمساءلة المنهجية. كانت هناك مع بعض التجاوز استثناءات، من مثل بعض الأسئلة المتعلقة بالليبرالية، ونوع الإسلام الذي تريده أميركا، والعلاقة بين الإسلام والحداثة. كذلك كان الأمر مع الأسئلة التي تناولت ميل الأميركيين إلى الكتابة عن السعودية والإسلام من دون معرفة متخصصة ومباشرة للموضوع

محل الدراسة. هذه كانت أسئلة الماحة، ومناسبة للموضوع، وتعكس ملمحا يعتمد الملاحظة والرصد، إلا أنها في الوقت نفسه كانت أسئلة قصيرة النفس، ولا تتابع الإشكالية التي تطرحها بنفس أطول مما حصل. من الناحية المقابلة جاءت إجابات فوكوياما بدورها سريعة، والكثير منها جاء سطحيا، خاصة ما كان منها عن الإسلام والسعودية، أو عن موضوع السياسة الخارجية. لا بد هنا من ملاحظة ما أشار إليه عبدالعزيز في مقدمته من أن اللقاء تم الترتيب له على عجل، وما كان لذلك من دور في شكل ومضمون ما نتج عن ذلك اللقاء من أسئلة وإجابات. في الوقت نفسه لا بد كذلك من ملاحظة أن طروحات فوكوياما ليست جديدة أو مفاجئة، إلى جانب أن القضايا التي تناولها اللقاء ليست هي الأخرى جديدة. وعليه يمكن القول أن طرفي اللقاء كان لهما بشكل أو بآخر موقف مسبق مما تناوله اللقاء، ومن ثم لم يتفاجأ أي منهما بالآخر تماما. ربما أن الأهم هنا هو أن اللقاء لم ينطلق من أساسه ليكون حوارا بين رؤيتين مختلفتين، رؤية يمكن وصفها بـ"الإسلامية"، وأخرى ليبرالية. هذا لم يحدث بالقصد والتخطيط، وإنما كأمر واقع فرض نفسه مع بداية اللقاء على الجميع. إذا هل الأسئلة هي السبب في أن بعض إجابات فوكوياما جاءت على ذلك النحو من السرعة والسطحية؟ أم أن الأمر كان على العكس من ذلك؟ ربما أن الأمر يعود إلى مسألة التخصص، خاصة وأن فوكوياما أشار إلى اختلافه وتباين مستوياته بين المشاركين. مهما كان، أترك هذه الإشكالية، وأستدرك شيئين. الأول أن الإجابات مع

بعضها تعكس رؤية فوكوياما المنهجية للقضايا المطروحة. حيث يلاحظ في هذه الأجوبة تركيز فوكوياما على مسألة الاختلاف والتعدد، ورفضه لفكرة التطرف بكل أشكالها، وابتعاده عن الالتزام الأيديولوجي الضيق، ومرونته المنهجية. كان يميل إلى إيضاحها في كل إجاباته، سواء منها ما تعلق بالسعودية والإسلام، أو بالسياسة الأميركية. وكل ذلك يتسق مع خط فوكوياما السياسي، ورؤيته المنهجية، اللتين تحتل الديموقراطية الليبرالية منهما موقع المركز. الشيء الثاني، وهو متصل بالأول، أن إجابات فوكوياما كانت في الوقت نفسه إجابات مباشرة وصريحة أيضا. وقد اعترف عبدالعزيز بذلك أثناء اللقاء، وفي مقدمته التي نشرها بعد ذلك، مما يعكس أن فوكوياما حاول أن يلتزم بما تقتضيه الأمانة العلمية. بعبارة أخرى، بهذه المواصفات كانت أسئلة اللقاء وإجاباته تنم عن أن ما حصل بين فوكوياما وبعض السعوديين في المغرب كان لقاء تعارف، ولم يكن لقاء حوار معمقاً.. هل هذا مبرر كاف للشكل والمضمون اللذين ظهر بهما اللقاء؟ لا أظن ذلك. هو سبب ربما يستوجب التفهم، لكنه ليس سببا كافيا لتبرير ما حصل.

الدفاع عن المجتمع..
أم الانحياز للحقيقة؟!

بقلم: محمد سعيد طيب(*)

ما زالت ذاكرة الملايين في العالم تحتفظ بذلك المشهد التليفزيوني للحظة انطلاق أول سرب للقاذفات الأمريكية المتجهة لضرب بغداد، متزامنة مع صوت مذيع الـ CNN معلناً بداية الحرب على العراق فيما سمي بحرب الخليج الثانية!.

تلك اللحظة التاريخية قد جسدت سطوة الإعلام المعاصر، وأبرزت دوره ونفوذه حرباً بعد أن أصبح قوة العالم اليومي سلماً!.

يومها كانت صدمة إعلامنا العربي أكبر من صدمة بغداد.. فإعلامنا العربي ـ حين استيقظ من سباته ـ وجد أمام ناظريه إعلاماً عالمياً يقدم عالمين متوازيين: عالماً واقعياً، حلوه ومره، وعالماً افتراضياً "الحاضر الخالد" كما أسمته مجلة "التايم".. كل شيء يقدم عبر وسائل الإعلام.. السياسة عبر وسائل الإعلام.. العدالة عبر وسائل الإعلام.. بل الحزن عبر وسائل الإعلام "الكوارث والأحداث الدامية".. فغالباً ما تشبه الهجمات الصاقعة لوسائل الإعلام بإيماءة الساحر التقليدية التي تصرف الأنظار!!

لقد أشفقت كثيراً على الأستاذ/ القاسم وهو يسمّي مؤلفه الأخير بـ "نهاية التاريخ تحت مجهر الفكر العربي" ويحق لمثلي أن يشفق – فالكتاب من عنوانه كما يقولون – أي إنه نقد وتشريح لـ

"نهاية التاريخ" كتاباً كان أم نظرية! ومرد شفقتي تلك تعود إلى حقيقتين: الأولى تتعلق بالمؤلف وواقعه.. إذ كيف يتأتى له الانعتاق من ذلك الواقع؟ وهو الإعلامي الذي نشأ وترعرع في بيئة مازالت ترى في الإعلامي "شاعر القبيلة".. بيئة يحتم موروث ثقافتها أن ينطلق خطابه الإعلامي من "قوم هم الأنف والأذناب غيرهم" و"لنا الصدر دون العالمين أو القبر"!!

والحقيقة الثانية تتعلق بمجهر الفكر العربي الذي يريد أن ينظر إلى الكتاب من خلاله.. ولعمري هو مجهر معتم لفكر تتجاذبه التيارات والمذاهب وتعصف به الأهواء والأغراض، فكر المجتمعات المغلقة ذات النظرة الأحادية، والاعتقاد الخاطئ بامتلاك الحقيقة المطلقة.

*****

وبعد فراغي من قراءة الكتاب تراجعت بعض تلك الإشفاقات وتقدمت بعض الملاحظات.. واعتبرها انطباعات إزاء المنهج والمحتوى.. فالكتاب جدير بالاحتفاء.. لريادته في محاولة ـ وإن بدت خجولة.. ومترددة ـ الانعتاق من النهج الانغلاقي للإعلام العربي ذي النبرة التمجيدية الدعائية، حيث ظل صوته يتجه إلى الداخل ومخاطبة الذات.. لتسجيل أولى مبادرات الحوار مع الآخر عبر قامة سامقة من قامات الفكر الغربي ممثلة في المفكر الياباني الأصل الأمريكي الجنسية فرانسيس فوكوياما.

وقد توقفت كثيراً أمام تداعيات ذلك الحوار - من خلال تلك المداخلات التي تضمنها الكتاب - والتي تمثل معظم الطيف الفكري السعودي بطروحاتها المتباينة والتي كشفت بعض عوراتنا! ممثلة في تلك الآراء التي تفتقر إلى ثقافة التسامح والانفتاح وقبول الآخر، وتعوزها النظرة الموضوعية في التفرقة بين الرأي وصاحبه.

وقد يعود ذلك إلى أن الحوار جاء - وكأنه لقاء عابر بين طرفين لا تجمع بينهما أي أرضية مشتركة.. وقد أصاب أخي الصديق الدكتور خالد الدخيل كبد الحقيقة في مداخلته بملحق "الرسالة" لصحيفة المدينة في ٢٣ ديسمبر ٢٠٠٥م حيث ذكر: "إن اللقاء الذي تم مع فوكوياما لم يكن أكثر من لقاء: لقاء سرعان ما تحول على يد الطرف السعودي إلى مناسبة عبر فيها عن مشاعر من الضيق والتبرم تراكمت لديه تجاه السياسة الأمريكية باعتبارها سياسة إمبريالية ومتعجرفة، تسعى إلى فرض نموذجها السياسي والفكري على العالم، بما في ذلك العالمان العربي والإسلامي، كذلك لم تخرج المداخلات السعودية على اللقاء من السياق نفسه، بل وعلى العكس كرست طبيعته كمجرد لقاء عابر تحدث فيه كل طرف إلى الطرف الآخر، وتبادل معه الاتهامات، من دون أن يتحدث معه أو يصغي إليه، لم تستمع أطراف الحوار إلى بعضها، الكل كان متمترساً خلف قناعاته المسبقة. ومن هنا لم يتسن لهذا اللقاء أن يتحول إلى حوار حقيقي متعمق، حوار سياسي ونظري حول رؤية الطرفين تجاه القضايا المطروحة".

ومع كل ذلك يبقى هنالك السؤال الرئيس الذي ظل يؤرقني والكثيرين والذي سيظل بلا إجابة وهو: لماذا تكون القيم الديمقراطية مطلوبة وضرورية ومستعجلة.. ولا تحتمل التأخير لبعض الدول.. ولا تكون كذلك في دول أخرى؟!

وسأظل أتساءل:

أيهما أجدى.. وأدعى لقبول الآخر واحترامه: الدفاع عن سمعة المجتمع.. أم الانحياز للحقيقة والعدالة؟!

*****

أجهد القاسم نفسه وهو يحاول أن يتجاوز الدور الدعائي لبرامج العلاقات العامة بمساحيقها وزيف مكياجها، عندما جاءت رؤوس أسئلته المدببة في عقلانية تهدف إلى انتزاع إجابات من محاوره تتناغم مع قناعاته لدحض كل الدعاوى الغربية التي تلصق بالآخرين في دعم الإرهاب ورعايته، وإقناع المحاور ببطلان دعاواه في أطروحته "نهاية التاريخ" بغية الوصول إلى إبراز أخطاء بلاده وزيف حضارتها - وإن كنت أعتقد أن في عبارات الإهداء التي نصت بأن هذا الكتاب: "ترجمة للحظة غيرة ودفاع عن وطني المضيء بنور الرسالة" ما يشكك لدى البعض في عقلانية الطرح، أو أن يجعل الكتاب سكيناً دون نصل، لأن الدفاع يحتم على المؤلف التمترس وراء قناعات قد لا تقبل النقاش!!

وحقيقة.. لم أفاجأ بالمداخلات المصاحبة للحوار.. فقد جاءت - كما توقعت - لتؤكد ظاهرة الاختلاف الموروث في مجتمعنا،

تستشف بين ثنايا بعضها ثقل ووطأة ثقافة الصدام والتصادم مع الآخر، في لغة يغلب عليها التشنج، والتعصب للرأي بدعوى امتلاك الحقيقة المطلقة وبهدف إقصاء الآخر.. ويأتي بعضها متسامحاً ينطلق من أن التفاعل الصحي بين الحضارات، والعلاقات العادلة والحرة بين الدول، لا بد أن تبنى على حرية الاختيار فيما يتناسب مع هوية الأمم الحضارية المميزة لها ليدعمها، ويرفض ما يشوه المسار الحضاري والمدني والقيم المشتركة!. وأن يكون العالم منتدى حضارات مستقلة تتفاعل فيما هو مشترك إنساني عام، وتتمايز فيما هو خاص، لتتبادل المنافع وفق معايير عادلة لتحقيق الأمن والسلام والتقدم والرفاه للإنسانية جمعاء.. وهذه ـ لعمري ـ بعض قناعاتي الثابتة والتي تتلخص في: (سماء واحدة ـ وإن تعددت آفاقنا!).

*****

وعود إلى بدء.. فإن فرانسيس فوكوياما صاحب "نهاية التاريخ" وصامويل هانتنجون صاحب "صراع الحضارات" يقفان كأبرز علامتين للفكر الأمريكي في العقد الأخير من القرن العشرين ـ رغم ما أثير من جدل حول الرجلين، وحول مضامين أفكارهما.. فالاثنان يمثلان الوجه الصارخ لدعاة "الإسلاموفوبيا" مرض الخوف من الإسلام.. المرض الذي انتشر كالوباء بعد زلزال أحداث الحادي عشر من سبتمبر في أمريكا.. ولا أعتقد أن هنالك طبيباً غربياً يمكنه تقديم وصفة طبية لعلاج هذا المرض.. فالأطباء ـ نحن ـ الذين يمكنهم تقديم هذه الوصفة الطبية للعلاج.. بل هم علماؤنا ومفكرونا، بعد أن أكدت الفحوصات أن جرثومة المرض

هي ذلك (الاختطاف) الذي حدث لمبادئ وقيم ديننا الإسلامي الحنيف من قبل جهات معينة.. احتكرت تفسير نصوصه، وقامت بإعادة صياغتها وحرفتها لتتوافق مع توجهاتها وغاياتها ومآربها!.

ولعل ذلك يؤكد أن الوقت قد حان.. ليدرك زعماء العالم الإسلامي وقادته أن تركيزهم يجب أن ينصب على الأولويات التي من شأنها تغيير الصورة التي يحاول الارهابيون إلصاقها بالإسلام والمسلمين.. وإيجاد صيغ جديدة لتحديد الخطاب الديني الذي أصبح أسير تعدد المرجعيات الدينية وتنوع التيارات التي نصبت نفسها حارسة لبيضة الإسلام.. كما يجب تنقية الخطاب الديني من اللغة التحريضية التي يستخدمها بعض المتشددين.. أو اللغة الاستعلائية غير المبررة.. وقبل كل ذلك ضرورة تحديد موقف الإسلام الحقيقي من أفعال وجرائم الجماعات الإرهابية - مهما تدثرت بمسميات إسلامية، وإخراجهم من الملة علناً بدلاً عن التشدق بعبارات الاستنكار والشجب لما يقومون به قولاً وعملاً.. وضرورة نبذ سياسة "شخصنة الموقف أو المبدأ" المتمثلة في بذل الجهد للوصول إلى مغارة 'بن لادن" أو حفرة "الزرقاوي' والقضاء عليهما بدلاً من تبني سياسة القضاء على الفكرة والمبدأ.. وأتمنى أن يذهب أولئك الزعماء أبعد من ذلك سعياً للوصول لعصر نهضة عربية، لا تقتفي آثار أقدام مشروع طه حسين الفكري الذي دعا إلى اتباع خطى أوروبا وأفكارها بخيرها وشرها، وحلوها ومرها.. ولا تشتط وتنساق وراء أفكار سلامة موسى التي نادت بالخروج من اللغة والتاريخ!.

ومع عدم تحفظي على الكثير من إجابات فوكوياما على أسئلة محاوره ـ إلا أنني قد أكبرت فيه الروح العلمية حين أكد عدم ادعائه بأن أطروحته تلك هي القول الفصل فيما ذهب إليه، القول الذي لا يأتيه الباطل عن يمينه أو شماله.. وذلك باعترافه الصريح: "ليست لدي نظرية تاريخية قوية كالتي قدمها ماركس على سبيل المثال، ولكن لدي قناعات علمية تؤيد نظريتي بمسيرة التاريخ نحو اتجاه معين.. ومقالتي عن نهاية التاريخ اختتمتها بتساؤل ينبغي على الجميع مناقشته، لأنني عندما أنظر حولي في العالم لا أجد بدائل قوية للديمقراطية الليبرالية في المجتمعات الحديثة على الأقل، وإذا أخبرني أحد بوجود عكس ذلك فسأكون سعيداً، وسأقول إنني مخطئ في نظريتي".

وأخيراً.. فالكتاب جهد صادق.. يكفيه أنه يؤسس لرهان قبول الآخر في مجتمعاتنا العربية والإسلامية!.

*****

وأجدني أعيد اليوم ما قلته بالأمس[1].. بأن المفاجأة المذهلة ستظل ذلك الزلزال المريع الذي جعل من الحادي عشر من سبتمبر ٢٠٠١م تاريخاً لبداية عصر جديد للإنسانية، وبداية معاناتنا مع هم جديد في مساحة التصحر في أراضينا، والضمور في عقولنا وأفكارنا!!

---

(١) مقدمة كتاب (علاقات حرجة) للأستاذ جمال خاشقجي - رياض الريس للكتب والنشر - الطبعة الأولى - أكتوبر ٢٠٠٢م.

وكأن كل همومنا لا تكفينا.. لنفاجأ بكارثة جديدة، وهم جديد.. يضاف إلى تلك الجبال الثقيلة حقاً.. وليخلق واقعاً جديداً يشغل الوطن كله ـ قيادة وشعباً ـ بتداعياته المتسارعة، وتأثيراته المخيفة.. وأبسطها أن جعل منا الطرف الأضعف على طاولة كل حوار نجريه لتجميل صورتنا لدى ذلك الصديق الذي أدار لنا ظهره!!.

(*) المحامي والناشط الوطني المعروف

obeikandl.com

معالي الشيخ أحمد زكي يماني(*):

(*) فوكوياما يذكرني بكثير من الفقهاء الذين بهرهم فقه أئمة الفقه الإسلامي فتوقف الاجتهاد من بعدهم

قام الابن الأستاذ عبدالعزيز قاسم بجهد مشكور في حواره مع المفكر السياسي الأمريكي فرانسسكو فوكوياما، وهو إذ يُخرج نتاج جهده في كتاب، طلب من بعض علمائنا ومفكرينا المساهمة بالتعليق وإبداء الرأي.

واستجابةً لطلبه رأيت الخروج من دائرة التعليق المباشر على آراء فوكوياما والحوار معه، والاكتفاء بملاحظات عامة تدور حول الموضوع وترتبط به ولا تدخل في دائرته، فذلك أمر قام به غيري من المفكرين والعلماء الذين ساهموا بآرائهم القيمة التي يحتوي عليها هذا الكتاب ويهمني أن أشير فيما يلي إلى ما تقذف به المطابع الغربية من آراء المفكرين الغربيين التي تمسنا نحن العرب والمسلمين.

وهي آراء تنبثق من داخل البيئة والتربة التي تسمى "الحضارة الغربية" ويسميها بعضهم "الحضارة المسيحية"، وتعبّر عن جفوة نفسية من الإسلام وجهل فاضح بالشعوب أو الحضارات التي لا تنطوي تحت مظلة الحضارة الغربية، أو لعلها تختلف كثيراً أو قليلاً عنها.

بعض القائلين بتلك الأفكار أو المروجين لها، ينطلقون من أهداف سياسية، تطل برأسها من كتاباتهم، يستطيع قارئها، إذا

عاش في أرضهم واختلط بشعوبهم أن يَلْحظَها ويعرف أهدافها. من هذا الفريق صامويل هنتنجتون الذي عرفته عندما كنت أُحاضر في كلية الحقوق بجامعة هارفارد، وهو ولا شك قد خاطب العقلية الأمريكية بذكاء نادر جعل نظريته "صراع الحضارات" تجد طريقها إلى أروقة صانعي السياسة وربما عقول بعضهم.

والبعض الآخر من القائلين بتلك الأفكار لا ينطلقون دائماً من أهداف سياسية، وإنما بهرتهم حضارتهم من جوانبها الثقافية والمادية والسياسية، فرأوا فيها مثلاً أعلى لما وصل إليه العقل البشري، وأنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، فرأى أن يَعُمَّ الخير بقية البشر، ومن هؤلاء فرانسسكو فوكوياما صاحب نظرية نهاية التاريخ، وهو وإن اتفق مع هنتنجتون في بعض الآراء، إلاّ أنه يختلف عنه بكونه باحثاً موضوعياً، لا يجد حرجاً في العدول عن رأي أبداه إذا تبيَّن له صواب رأي غيره.

ويذكرني فوكوياما بكثير من فقهاء المسلمين الذين بهرهم فقه أئمة الفقه الإسلامي أمثال مالك والشافعي، فتوقف الاجتهاد من بعدهم وكأن أولئك الأئمة قد وصلوا إلى نهاية الاجتهاد، كما وصل فوكوياما إلى نظرية نهاية التاريخ، التي اكتشف بعض الثغرات فيها، فعدل عنها وسيصدر له كتاب قريباً ننتظره بفارغ الصبر بعد خروجه من المطبعة.

obeikandi.com

وهناك ملاحظات عامة وعابرة أضعها ملخّصةً فيما يلي:

أن الحضارة الغربية بعيدة كل البعد عن الديانة المسيحية رغم أن من يحمل لواءها في أوربا والأمريكيتين يعتنق أكثرهم المسيحية ويرتاد بعضهم الكنائس، ويمارسون في حياتهم ما يخالف تعاليمها.

والقائلون بصراع الحضارات ينسون أو يجهلون أن الحضارة الغربية استمدت من الحضارة الإسلامية كثيراً مما لا يستطيعون طمس بصماتها عليها.

وينسون أو يتناسون وربما يجهلون أن صحوة الكنيسة التي مهدت فيما بعد لانفصامها عن الحياة العملية في أوربا، كانت تأثُّراً بأفكار ابن رشد، وهناك في طور التحضير، مؤلف لأحد كبار المثقفين من العرب المسيحيين يثبت تأثر الكهنة المسيحيين بأفكار ابن رشد.

والحضارة الإسلامية وخصوصاً في الدولة العباسية أخذت دون حرج من الحضارة الإغريقية.

وأولئك الذين يروجون لصراع الحضارات، سيفاجؤون بردود فعل من العالم الإسلامي الذي يطلقون عليه "الحضارة الإسلامية"، ومن الحضارة الكونفوشية أو المارد الصيني، ويرتد عليهم صراعهم مع هاتين الحضارتين، كما يرتد السحر على الساحر.

إن النظام السياسي الغربي أو ما يسمى بالديمقراطية، يختلف في فلسفته وفي آلياته من بلد لآخر، ولا نستطيع أن نحصل منه على طبعة واحدة تطبق على شعوب تتفاوت مستوياتها

الثقافية والحضارية، ولو حَسُنَتْ النيات لروّجوا لمبادئ مثل حرية الرأي وصيانة حقوق الإنسان، وهي من الأسس المتفق عليها في الشريعة الإسلامية. ويستحيل أن تُطبق على شعب ثقافة ونظامَ شعب أو شعوب أخرى، والأمثلة على ذلك كثيرة ومتعددة، والنظام السياسي الأمريكي يعاني مؤخراً من ردة تزيل بعض الوهج الذي بهر فرانسسكو فوكوياما مما دفعه مؤخراً للهجوم على المحافظين الجدد، وربما يدفعه مستقبلاً إلى تعديل جذري في نظريته المعروفة.

إن الإرهاب له أنواع مختلفة وأسباب متعددة، قد يستخدم الدين وقوداً له، مثل الإرهاب الإيرلندي الذي كانت الكاثوليكية له وقوداً، ويجب أن نعترف بأن بعض المتطرفين والمتزمتين الذين يرفعون راية السلفية قد أنتجوا وقوداً ساهم في خلق الإرهابيين داخل الوطن وخارجه. وهذا باب يجب أن نلجه بموضوعية وشفافية.

وليس هذا مجال بحثه أو دراسته، وليس الدين، أو ما يسمى ديناً هو السبب، فقد تعددت الأسباب والإرهاب واحد.

هذه ملاحظات عامة فضلت أن أشارك بها بعيداً عن تفصيلات قام بها الأستاذ عبدالعزيز قاسم ومن شارك في هذا الكتاب، وأكتفي بمعلومات وملاحظات عامة قد لا تبدو مرتبطة بالموضوع، ولكنها غير منفصلة عنه.

وهي بمثابة رؤوس أقلام تحتاج لمن يدرسها ويكتب بالتفصيل عنها.

** رئيس مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي بلندن*

وزير النفط السعودي الأسبق

الفهرس

الموضوع	الصفحة
▪ مقدمة الكتاب	٧
▪ الديمقراطية الليبرالية	٩
▪ الديمقراطية الليبرالية تطبيقاً	٢٦
▪ هل الإسلام هو البديل	٣٦
▪ بين يدي الكتاب	٤٩
▪ بطاقة تعريف	٥٣
▪ نهاية التاريخ بعد مرور ١٦ سنة على إعلانها	٥٥
▪ حوار فوكوياما مع الرسالة	٦٦
▪ الخطر الإسلامي في أوروبا أكبر من مثيله في الولايات المتحدة - فرانسيس فوكوياما	٨٩
▪ نهاية التاريخ أم نهاية المثقف؟ د. سلمان العودة	٩٥
▪ أي أنواع الديمقراطية ينتظر منا فوكوياما أن نعتنق؟ د. عزيزة المانع	١١١
▪ تحامل فوكوياما المتكرر على الإسلام، د. محسن العواجي	١١٧
▪ أتفق معه بدرجة كبيرة، د. تركي الحمد (١-٢)	١٢٣
▪ أتفق معه بدرجة كبيرة، د. تركي الحمد (٢-٢)	١٢٧
▪ فوكوياما والقفز فوق الحقائق، د. عوض القرني	١٣٩
▪ الإسلام نظام إلهي شامل، د. محمد عمارة	١٥١
▪ مغناطيس السلبيات. خالد السليمان	١٥٥

obeikandl.com

- فوكوياما الشخص (١-٣) د. محمد الأحمري ١٥٧
- فوكوياما مرشداً للمحتلين (٢-٣) د. محمد الأحمري ١٦٥
- فوكوياما السياسي الواقعي (٣-٣) د. محمد الأحمري ١٧٥
- سقوط نظرية فوكوياما لا تعني نهاية العالم (١-٣) د. زهير الحارثي ١٨٩
- سقوط نظرية فوكوياما لا تعني نهاية العالم (٢-٣) د. زهير الحارثي ١٩٥
- سقوط نظرية فوكوياما لا تعني نهاية العالم (٣-٣) د. زهير الحارثي ٢٠٣
- أبعاد الحوار مع صناع القرار الأمريكي.. سهيلة زين العابدين حماد ٢٠٩
- السفير عبدالله الأشعل ويوسف القعيد وفوكوياما - حسين أبو عايد ٢٢١
- إعادة اكتشاف الآخر (١-٢) وائل مرزا ٢٢٥
- إعادة اكتشاف الآخر (٢-٢) وائل مرزا ٢٣٥
- انفتاح الدعاة والمثقفين الإسلاميين على الآخر. حسن الصفّار ٢٤١
- بين الانبهار ونشوة الانتصار - د. خضر محمد الشيباني ٢٤٥
- فوكوياما والليبرالية الحقة (١-٣) يوسف أبا الخيل ٢٥٧
- فوكوياما والليبرالية (٢-٣) يوسف أبا الخيل ٢٦٣
- غرس المفاهيم من خلال الطرح غير العقلاني (٣-٣) يوسف أبا الخيل ٢٦٩

obeikandl.com

- وقفة مع فوكوياما - محمد محفوظ ٢٧٥
- نهاية التاريخ عند فوكوياما بدايته عند الزرقاوي. حسين شبكشي ٢٨٣
- تأملات نقدية في مداخلة فوكوياما - بلال التليدي ٢٨٧
- هل هذا نموذج للحوار مع الغرب (١-٣) خالد الدخيل ٣٠٧
- ملاحظته عن المجتمع السعودي وممارسة التفكير والحوار (٢-٣) خالد الدخيل ٣١٥
- لقاء تعارف لا حوار (٣ -٣) خالد الدخيل ٣٢٧
- الدفاع عن المجتمع أم الانحياز للحقيقة - محمد سعيد طيب ٣٣١
- فوكوياما وفقهاء بهرهم فقه أئمة - معالي الشيخ أحمد زكي يماني ٣٣٩

obeikandl.com